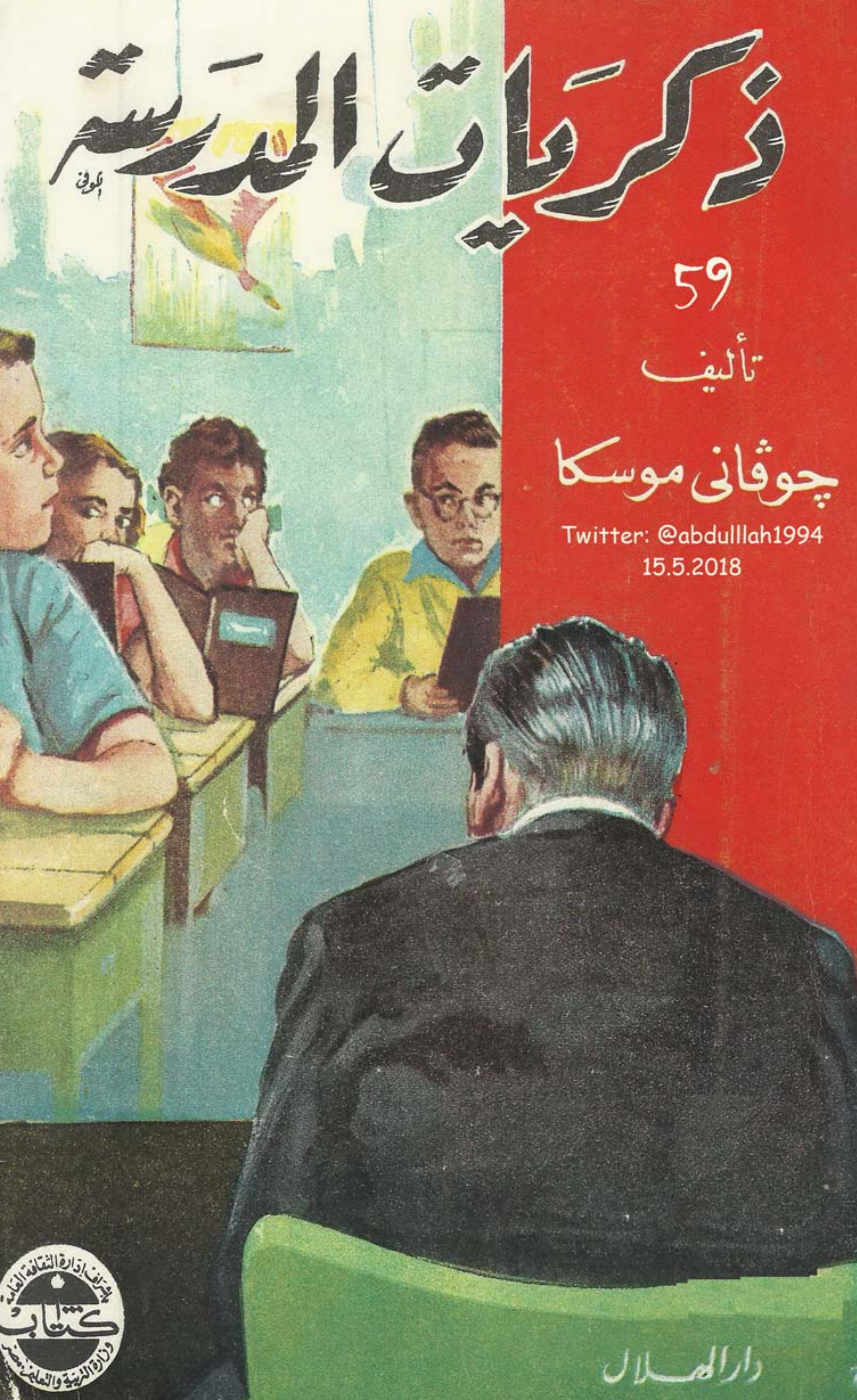

ذكريات المدرسة
59
تأليف
چوڤانى موسكا
Twitter: @abdulllah1994
15.5.2018
كتاب
دار الهلال

الألف كتاب (٣٨٦)

ذكريات المدرسة

تأليف

جوڤانى موسكا

ترجمة

أحمد محمد جاد الحق ، سمير زكى الغندور
طارق الأشرف ، محمد سعيد سالم الباجورى
محمد عباس محمد لاشين ، مدحت صادق زكى

اشراف

كليليا سارينللى شركوا ، السيد عبد الله التلبانى
مراجعة : طه فوزى

دار الهلال
١٩٦٢


Twitter: @abdulllah1994

هذه ترجمة كتاب :

Ricordi di scuola

تأليف :

GIOVANNI MOSCA

مقدمة

عندما أنشىء قسم اللغة الايطالية بمدرسة الألسن العليا بالقاهرة ، عهد الى الدكتور مراد كامل أول عميد لها فى عهـدها الحديث ، بتدريس الترجمة بالسنة الأولى

ووجدت نفسى لأول مرة فى فصل مؤلف من أربعين طالبا وطالبة لم يدرسوا من قبل اللغة الايطالية ـ وقد اختاروها كلغة أولى اجبارية ـ شرعت فى التدريس بحماسة شديدة وأحببت هؤلاء الطلبة الذين كانت تحدوهم الرغبة القوية فى التغلب على صعاب تلك اللغة الجديدة عليهم ، والذين وجدت منهم تفهما ومعاونة صادقة

وقرب نهاية العام الدراسى طلب الدكتور مراد كامل الىّ والى زملائى بالأقسـام الأخرى أن يختار كل واحـد كتابا مناسبا للترجمة الى اللغة العربية . والمشروع ، ولو انه مفيد جدا بالنسبة لمستقبل الطلاب ، الا انه بدا للأساتذة مندفعا بعض الشىء نظرا لأن معرفة الطلاب باللغات الأجنبية التى يدرسونها ما زالت محدودة ـ ولكن التفكير فى أهداف المدرسة التى كانت قريبة عهد بافتتاحها وفى الفائدة التى سيحصل عليها الطلاب ، جعلنى أقرر المحاولة

اخترت كتاب « ذكريات المدرسة » لموسكا ، لأنه بدا لى بوجه خاص مناسبا لاعطاء فكرة عن حياة وروح المدرسة الايطالية وللعمق والحساسية والانسانية التى تنعكس على صفحاته ، بجانب أسلوبه العذب

وقسمت الكتاب الى أجزاء وعهدت الى ستة من خيرة طلاب فصلى ، وبدءوا الترجمة بمساعدتى متمهلين قليلا ، ثم مضينا أسرع ، فأسرع ،

وأخذت بعين الاعتبار أن تظل الترجمة محافظة على النص الايطالى

وبعد المسودة لاحظت اختلاف أسلوب الترجمة فقررت أن أعهد بمراجعتها الى الأستاذ السيد عبد الله التلبانى وهو يجمع بين الثقافتين : العربية ، والايطالية . فقد تخرج فى كلية دار العلوم ، كما تخرج فى مدرسة الألسن العليا ، والقسم العالى للمعهد الايطالى للثقافة

وبعد عمل متواصل تكللت تضحياتنا بالنجاح وذلك بفضل مشروع « الألف كتاب » بوزارة التعليم العالى الذى نشر هذا الكتاب ، والذى نرجو أن يتمتع وينتفع به القراء ... هذا الكتاب الذى تعتبر ترجمته مثلا طيبا للثقة والارادة والتعاون الثقافى

دكتورة كليليا سارنللى

المعهد الجامعى للدراسات الشرقية ـ نابولى

تقديم

أتحدث اليكم فى هذا الكتاب عن الزمن الذى كنا فيه صغارا ، نذهب الى المدرسة ، الزمن الذى نتمنى أن يعود الينا من جديد ، ومن المحال أن يعود .. !

أتحدث اليكم عن الأحلام ، وعن الآمال التى كانت تحويها قلوبنا ، وعن براءتنا ، وعن اليراعات التى كنا نعتقدها نجوما ، لأن عالمنا كان صغيرا وسماءنا كانت خفيضة الى حد كبير ..

أتحدث اليكم عن تلك الاشياء التى تذكرونها ، واذا كنتم قد نسيتموها فسأساعدكم على تذكرها ..

أتحدث عن تلك الأشياء المفقودة التى تجدونها الآن فى أولادكم ، وتودون ألا يفقدوها أبدا .. فما أجملها !

المؤلف

يعود مدرسا

هل قُدّر لكم أن تعودوا ــ وأنتم كبار ــ الى مدرستكم الابتدائية القديمة ؟

انني عدت اليها ، ورأيتها مرة أخرى فى السنة الماضية بعد وقت طويل ، تلك المدرسة التى كنت أول أمرى تلميذا بها .. ثم عدت اليها مدرسا ورأيت مكتبتها الصغيرة ، وقاعتها الكبرى ، ومدرسيها ..

رأيت المكتبة الصغيرة لا تزال تحتفظ بطابعها وكتبها المغلفة بنوع خاص من الورق ، وقد كتبت عناوين الكتب وأسماء مؤلفيها بخط جميل ..

رأيت كتاب : « أيدا باتشينى » ، « تونينو فى سرواله الطويل » ، وكتاب : « اما بيرودى » ، « قصص الجدة » ، وكتاب : « كلودى الحفيد » ، « سوسى وبيريبسى » ، وكتاب : « اپا مينوندا بروڤاليو » ، « فرولينو والنحلة العجيبة » ..

كتب لم أقرأها أبدا ، ولكننى كنت أرغب دائما فى قراءتها .. فلقد كانت تعطى للمتفوقين فى الفصل دون غيرهم . ولم أستطع أبدا معرفة من كان « فرولينو » وماذا كان يفعل بنحلته العجيبة . ولكن كل هذه الأشياء كان يعرفها زميلى « مارينى » الذى كان يجلس بجانبى فى الفصل ، والذى كان يحصل على عشر درجات من عشرة فى السلوك ، وتسع من عشرة فى العلوم ، وكان يقرأ كل أسبوع ــ كجائزة له ــ كتابا من المكتبة الصغيرة

وكنت أسأله قائلا : « من هو فرولينو ؟.. وماذا كان يفعل بنحلته العجيبة ؟.. »

ولكن كان كل من يحصل على عشر درجات فى السلوك لا يتكلم أبدا مع زملائه ، فكان « مارينى » لا يجيبنى ، واذا ألححت عليه فى السؤال كان يرفع يده ويشكونى للمدرس !

و « مارينى » اليوم صاحب محل عطارة ، وفى بعض الاحيان أذهب لزيارته فيستقبلنى بلطف ، ويقدم لى كوبا من السترات أو قليلا من شراب التمر هندى ، ولا يقول لى شيئا فى أثناء هذه الزيارات عن « فرولينو » وعن نحلته العجيبة ، وليس ذلك لأنه يأبى أن يحدثنى عنها ، ولكن لأنه لم يعد يتذكر من ذلك شيئا !

رأيت القاعة مرة أخرى .. تلك القاعة الواسعة العظيمة حيث كنت أذهب أيام الخميس ، وأنا تلميذ مع زملائى ، لننشد أنشودة « يا اخوة ايطاليا » ، انتى أعلم كيف ينشد الأولاد .. ان الذين فى الصفوف الأولى فقط هم الذين ينشدون حقا ، أما الآخرون فيفتحون فمهم فقط ببساطة دون أن ينشدوا ، واذا شك المدرس فى أمرهم ونظر اليهم ، حدقوا فى وجهه دون اضطراب بعينين هادئتين تبدو فيهما البراءة ، كأنهما تقولان له : « كيف هذا ؟.. ألا تصدق أنى أنشد ، ألا ترانى أفتح فمى كالآخرين ؟ .. »

كم أصبحت هذه القاعة صغيرة عندما رأيتها ثانية .. وكم كانت قذرة وحقيرة تلك النقوش العجيبة المرسومة على الأسقف والجدران .. ولكن كيف حدث هذا ؟.. ربما كان يبدو لنا ونحن أطفال كل شىء أعظم وأجمل من الواقع ، وربما صاحبنى هذا الشعور وأنا مدرس الى بضع سنوات فقط !

كانت القاعة تلوح رائعة ونقوشها بالغة حد الاعجاب .. والمصباح المتدلى من السقف أكثر فخامة من أمثاله فى أى مسرح ..

ولكن كيف حدث هذا الآن ــ وأنا لست تلميذا ولا مدرسا ــ فان جميع الأشياء تبدو لى صغيرة قبيحة بائسة ينقبض لها قلبى .. ؟

آه .. ! ليتنى أستطيع أن أقول ذلك للمدرسين الذين قابلونى ، وأخذوا ينظرون الىّ فى حسد ويقولون :

« لقد تركتنا فلا شك أن مستقبلك رائع ، هل تكسب كثيرا من هذه الوظيفة ؟.. والذين كانت عيونهم تزداد اتساعا لفرط الدهشة عند التفكير في دخلى الخيالى ، وكانوا يقولون لى :

« نحن هنا دائما على مر السنين والأيام .. نفس الأطفال ، مهما تغيرت الوجوه والألقاب .. »

ليتنى أستطيع أن أتحدث بذلك الى المدرسين الذين كانوا يحسدوننى على مستقبلى الباهر فى مهنتى الحرة وأقول :

« لا تتركوا الأولاد ، فان الشخص ما دام يعيش بينهم فانه يحس كأنه منهم ، والحجرات الصغيرة تبدو له كأنها قاعات فسيحة .. كما أن بعض الرسوم البدائية التخطيطية على الحائط تتراءى له رسوما عجيبة ، وما دام يعيش الشخص فى هذا المجال فانه يعتقد فى أشياء كثيرة لا يعتقد فيها عندما يبتعد عنها »

ليتنى أستطيع أن أقول للأستاذ « باليانى » ذلك الشيخ المقوس الظهر ، القصيرالقامة ، ذى النظارات والشعر الأبيض، والذى كان دائم الشكوى ·

« ما أسعدك ، انك ما زلت طفلا دون أن تشعر ، ولكثرة قراءتك لتلاميذك « كتاب القلب » (١) . وما زلت تعتقد فى «ماركو» الذى ذهب منفردا الى أمريكا للبحث عن أمه وعمره اثنا عشر عاما . انك سعيد بكثرة ما تقرأ من القصص الخرافية فى وقت الفسحة ، وما تزال تعتقد قليلا فى السحر والسحرة ، وفى النسوة العجائز الطيبات اللائى يقابلنك فى الغابة ، ويعطينك جوزة ويقلن لك : « اكسرها عندما تشعر أنك فى خطر فلا شك أنها تنجيك ... انك لا تبوح بذلك لأحد ولكنك تحتفظ فى داخل جيبك بجوزة مثل تلاميذك الذين يحتفظون فى جيوبهم بهذه الأشياء ، كعادة التلاميذ منذ القدم ، فتجد فى جيوبهم الأزرار والمسامير والمفاتيح والخنافس الصغيرة الميتة ، وبالأخص خيوط المطاط ، يصنعون منها النبال

(١) من أشهر الكتب الايطالية للاطفال ، ترجمه الى العربية الاستاذ « طه فوزى »

ويقذفون بها قطع الورق المكور على سيقان زملائهم »

ولكننى لم أقل شيئا للأستاذ « باليانى » المسن الذى كان يبكى دائما سوء حظه ويحسدنى على مصيرى فى الحياة .. ياله من مسكين ذلك الأستاذ « باليانى » الذى قضى نحبه منذ بضعة أيام ، وقد علمت ذلك من أحد المدرسين الذين قابلتهم فى الطريق .. وقد وُجِدت فى أحد جيوبه جوزة ، كان يعتقد أن فيها نجاته من كل خطر .. ولكن لم يكن لديه الوقت الكافى لكسرها وانقاذ نفسه من الخطر !

« نحن هنا دائما على طول السنين ومر الأيام .. نفس الأطفال ، مهما تغيرت الوجوه والألقاب » .. انهم لا يعرفون ولا يفهمون أنى قد عدت خصيصا لرؤية الأطفال من جديد ، رجعت لرؤيتهم عند الدخول فى الصباح متجمعين منتظمين نظيفين ممشطى الشعر ، ولرؤيتهم عند الخروج ظهرا وأيديهم ووجوههم سوداء يلطخها الحبر ، وأربطة أعناقهم خلف ظهورهم ، يضرب بعضهم رءوس بعض بالحقائب ، وعدت لأرى الممر الطويل والفصول الجانبية المختلفة ، والذى كنت تسمع عند المرور به صوت مدرّسة السنة الأولى ، وهى تسأل الأطفال قائلة : « هل للحصان خمس عشرة رجلا ؟ » .. فكانوا يجيبون كلهم فى صوت واحد قائلين : « لا » .. وتعود لتسأل : « ربما كان له اثنتا عشرة رجلا ؟ » .. فيجيبون قائلين : « ولا هذا أيضا ! »

وكانت تقلل دائما من عدد السيقان حتى تصل الى العدد الحقيقى فتقول : « هل له أربع أرجل ؟.. » فكانوا يجيبون فى حماسة : « ولا ذلك .. »

ولو أنك وضعت حينئذ أذنك على الباب لسمعت تأوهات المدرسة .. تلك المدرّسة المسكينة التى كانت تثق فى طريقتها فى التعليم .. لقد لاحظت أخيرا أنها لم تنجح الا فى ايجاد اضطراب مخيف فى عقول تلاميذها ، فيما يختص بعدد أرجل الحصان . ولا يوجد معلم ليست له طريقته الخاصة فى التعليم ، واليكم على سبيل المثال الأستاذ باليانى ، فانه

عندما كان يجب عليه أن يشرح دوران الأرض حول الشمس ، كان يحضر الى المدرسة ومعه برتقالة وقطعة من الشمع ، فكان يبرز البرتقالة للتلاميذ قائلا لهم : « هذه هى الأرض » ، ويظهر الشمعة ويقول : « وتلك هى الشمس » ، وكان يغلق الباب والنوافذ ، ويبدأ فى الدوران حول ضوء الشمعة الضئيل الخافت الذى كان يخفف قليلا من ظلمة الفصل ، وهو ممسك بالبرتقالة فى يده .. كان يدور فى ثقة كما لو كانت تلك البرتقالة فى الواقع هى الأرض نفسها ، بينما كان التلاميذ لا يصدقون شيئا من ذلك ، ولا يرون فى الأستاذ باليانى الا أستاذا مسنا مسكينا ، وربما ظنوا أنه مجنون ، يدور حول الشمعة ، ممسكا بيده البرتقالة ، فكانوا يقذفونه بقطع من قذائف الصيد ، مستخدمين فى ذلك النبال . وكان أكثر الأطفال حماسة وجرأة يحبُون على أيديهم وأرجلهم على طريقة الهنود الحمر حتى يصلوا الى مقعد المدرس ، فيقلبون المحبرة فوق دفتره على أمل أن يحجب الحبر نهائيا درجاتهم السيئة (وكثيرا ما تقترن جرأة التلاميذ بقلة رغبتهم فى التعليم) ، وبعد أن تنتهى التجربة وتفتح الأبواب والنوافذ مرة أخرى ، يقف الأستاذ باليانى ويسأل التلاميذ قائلا : « هل فهمتم ؟.. من لم يفهم منكم فليرفع يده » . وكان يوجد دائما الخبيث الذى كان يرفعها ، وكان الغرض من ذلك مفهوما . وكان الأستاذ « باليانى » لايفهم من ذلك شيئا ، بل كان يبدو مقتنعا ، ويربت على رأس التلميذ ويقول له : « انها مسألة سهلة جدا ، الشمعة هى الشمس ، والبرتقالة هى الأرض التى تدور حول الشمس .. انظر »

وبعد اغلاق الباب والنوافذ مرة أخرى ، يستأنف الدوران من جديد .. وكان وجهه يبدو تارة من وراء الشمعة ، ويختفى تارة أخرى ، وذلك عندما يكون بين الشمعة والتلاميذ ، كما يحدث للأرض سواء بسواء ، وكان الأطفال ينتهزون فرصة ظهور وجه الأستاذ « باليانى » ، لا لغرض علمى .. ولكن ليقذفوه بنبالهم التى تحمل قطع الرصاص المستخدم فى الصيد . وانى لمتأكد أن روح المدرس « باليانى » فى السماء الآن بين أرواح

الأطفال ، ولا يزال يقوم بتلك التجربة ، وهناك ميزة واحدة على الأقل وهى ان الملائكة هناك طيبون .. وليس من عاداتهم الرمى بالرصاص المستخدم فى الصيد ..

أما عن تلاميذى ، فانى أذكرهم جميعا فردا فردا .. وهم « مارتينلى » الذى كان يهدينى قطع الحلوى بعد أن يلعقها بلسانه !.. و«ليوناردى» الذى كنت أعاقبه ، وكان يخرج لسانه لى ظنا منه أننى لا أراه ، و « أنطونيلى » الذى كان يقضى فى كل فصل سنتين ، وكان يبدو رجلا اذا قورن بزملائه ، وكانت هناك سحابة قد بدأت فى الظهور فى عينيه غير الواضحتين اللتين كانتا تبدوان على النقيض من عينى « مارتينلى » البريئتين .. فهما صغيرتان تبدوان كأنهما رءوس الدبابيس وكانتا تضحكان للجميع : للزملاء ، وللذباب ، ولى ، وللمدير !

ولم يكن يسمع شيئا مما أقوله ، كما إنه لم يكن يستذكر شيئا .. وكان يصبغ وجهه « بالربسوس » ، وذات مرة كتب فى موضوع انشاء انه رأى كلبا فى الشارع مقطوعا قطعتين يطلب الصدقة ، فلصقه بغراء الشيرفيونى (١)

وفى آخر أيام الدراسة ، بينما كنت أنحنى عليه لأربت على رأسه الحليق .. كنت أنصحه بألا يغضب والديه فى أثناء العطلة الصيفية ، فما لبث أن تعلق برقبتى وطبع قبلتين على صدغى فاصطبغا بالحبر . وفى آخر أيام الدراسة ، يعيد الأساتذة للتلاميذ كل الأشياء التى صادروها منهم فى أثناء العام : من مسدسات من ذوات الطلقات المائة ، وأزهار الطاولة ، والبلى البللورى ، ومجموعات من أوراق اللعب الصغيرة . أما أنا فما كنت أعيد شيئا ، لقد كنت أحمل الى منزلى كل الأشياء التى كنت أصادرها من الأطفال ، وانى لأعترف بأنى كنت ألعب بها . وقد كانت الأمهات ، رغم سرورهن من محبة أبنائهن لى ، قليلات الثقة بى .. وكن يقلن عنى : « انه ما زال صغير السن ! »

---

(١) أحد أنواع الغراء المشهورة فى ايطاليا

ان المدرس النموذجي فى نظر الأمهـات ، هو ذلك المدرس المسن ذو الشاربين واللحية ، والذى تكفى لمحة واحدة منه ـ كضربة منجل ـ كى يسيطر على الفصل ويخيفه بأجمعه ، وكن يقلن : « لايزال هذا المدرس صغيرا جدا ، فانه يصطحب كل يوم خميس التلاميذ لرؤية الآثار ، ويبدو معهم زميلا كبيرا لهم أكثر منه مدرسا ، وهو الى جانب هذا يلعب معهم كرة القدم ولا يدرس لهم الأشعار أبدا »

وتعتقد الأمهات كلهن ، أن المدرس لا يكون ممتازا الا اذا كان تلاميذه يحفظون عن ظهر قلب تلك الأشعار المشهورة مثل :

« كان ساكنا بلا حراك (١) » ، و « لقد أقسموا ، رأيتهم فى مدينة بونتيدا » (٢) ، و « الامبراطور فردريك يقيم فى مدينة كومو » (٣) ، و « كالصخرة الكبيرة التى من القمة ..» (٤) ، و « انى صغير أسمر ذو قرون » (٥)

ولكنى كنت لا أرغم تلاميذى على دراسة الشعر .. لقد كنت أعلمهم أشياء كثيرة نافعة دون أن يفطنوا الى ذلك .. ففى أحد الأيام ، أحضرت معى الى الفصل زهرة جميلة لتدريس علم النبات . وفى يوم آخر أمسكت بعوضة بمهارة ، مما ملأ نفوس التلاميـذ بالاعجاب والحماسة .. وبهذه الطريقة كنت أدرس لهم علم الحشرات . أما بمناسبة السباق المعروف باسم « جيرو دى ايطاليا » (٦) فقد كنت أقسّم الأطفال الى فريقين : « أنصار بندا ، وأنصار جويرا » (٧) واذا أرادوا أن يعرفوا لمن يُنتظر الفوز ، كان يجب عليهم أن يحصوا الأزمنـة التى كانت تنقضي فى مراحل السـباق المختلفة . وبهذه الطريقة ، وبفضل حبهم للرياضة ، كانوا يتعلمون طريقة جمع الساعات والدقائق والثوانى .. ذلك الأمر الذى هو فى العادة متعب

---

(١) أول بيت من قصيدة مانزونى المشهورة « خمسة مايو » التى كتبها فى رثاء نابليون
(٢) شعر مشهور للاديب الايطالى جيوفانى برشيه وعنوانه : « قسم بونتيدا »
(٣) قصيدة بعنوان « البرلمان » كتبها الشاعر « جوزويه كاردوتشى »
(٤) قصيدة أخرى لمانزونى بعنوان « عيد الميلاد »
(٥) منولوج صرصار الليل للشاعر الايطالى جوفانى براتى
(٦) سباق دراجات سنوى مشهور بايطاليا
(٧) بندا وجويرا ، بطلان من أبطال سباق الدراجات

وصعب ، وكنت أدرس كل شىء ما عدا « تلك الصخرة الكبيرة التى من القمة » !.. فكم كان يؤلمنى سماع طفل فى الثامنة من عمره ، يلقى تلك القصيدة البالغة الشهرة والأهمية .. فانهم ما زالوا مخلوقات صغيرة ، وما زالوا يفكرون فى الفراشات ، وينزعون لب اليوسفى ليضعوا داخل القشرة الفارغة شمعة موقدة صغيرة .. فكيف نسمح لأنفسنا بأن نحمّلهم صعوبة أشعار « مانزونى » مع أنهم ما زالوا صغارا ؟ !

وكان تلاميـذى يعترفون لى بهذا الجميل ، وقد قالوا لى مرة انهم سوف يهدون لى على سبيل التذكار قلما ذهبيا من أقلام الحبر الجاف فى آخر العام . وفى آخر أيام الدراسة ، أعطانىَ كل واحد منهم « صلديا » وقال لى مارتنيلى وهو يقدم لى هذا المبلغ : « ثلاثون « صلديا » ياسيدى المدرس ، مبلغ من المال تستطيع أن تشترى به لنفسك قلما ذهبيا كبيرا .. كبيرا جدا ! »

ثلاثون «صلديا» مبلغ كبير بالنسبة لهم .. أخذته دون أن أتكلم لأنى لم أستطع أن أتكلم .. وعندما يأتى آخر يوم فى الدراسة فانه من المستحيل ألا يتأثر الانسان . وهو احساس ليس من مبتكرات كتب المطالعة القديمة. وفى الحقيقة ان النظم كانت تمنع المدرس من قبول الهدايا ، ولكنى اذا رفضت تلك الثلاثين « صلديا » فانى بذلك أكون قد محوت البهجة والسرور من ثلاثين قلبا تتخيل مدرسها يحمل بين يديه قلما كبيرا ، وكبيرا جدا من الذهب !

كذلك لم أستطع أن أرفض هـدية عيد الميلاد ، عندما كانت الأيام تقترب من العيد .. وكانت الأمهات يأتين الى بيتى بصحبة أبنائهن ، وقد ارتدوا ملابس العيد ، ويحملن فى أيديهن لفافة صغيرة .. وكنت حينما أستقبلهن فى مكتبى أتصرف بثبات ، وكن يسألن : « ياسيدى المدرس !.. ماذا ترى فى تصرفات هـذا الشقى الصغير ؟.. » وفى أثناء ذلك يضعن اللفافة على المكتب بحصافة ، أما أنا فكنت أتظاهر بعدم الرؤية .. بينما أكون مشغولا فى قرارة نفسى بما تضمه هذه اللفافة ، وأنتظر بفارغ

الصبر وقت انصرافهن لفتحها ، ثم أستطرد فى الكلام مقلدا المدرسين العجائز بدقة ، وأستعيد الجمل التى سمعتها مرارا وأنا صغير .. تلك الجمل التى تؤثر فى نفوس الأمهات ، وتجعلهن يقلن : « ياله من مدرس ماهر ! » وكنت أجيبهن بقولى : « آه ... كان من الممكن أن يفعل ولدك أكثر من ذلك نظرا لذكائه » وعندئذ كانت الأم تهدد ولدها بقسوة ، وهى تشير اليه بسبابتها ، وتنتزع من فوق رأسه القبعة البحرية ، وتقول له بصوت منخفض وهى تضغط على أسنانها : « آه يا قليل الأدب » وكنت أستمر فى حديثى قائلا : « انه ثرثار ، انه يغضبنى أحيانا لشرود ذهنه » ، وأسألها عن تصرفاته فى المنزل فتجيب :

« مؤسف ياسيدى المدرس ، لقد جعلنى أيأس من اصلاحه .. كما أنه يضرب اخوته الصغار » ، وعندئذ كنت أهدده أنا أيضا بقسوة باصبعى السبابة .. مسكين ذلك الطفل الذى كان يطأطىء رأسه وتنسكب دموعه على سرواله الصغير .. ولكنى سرعان ما كنت أضيف قائلا : « سوف يكون أحسن من ذى قبل ، وانى على يقين من ذلك .. وهكذا سوف يصبح أنيس والديه ومعلمه الذين يحبونه كثيرا » .. وكانت هذه هى العبارة التقليدية التى كنت أريد أن أصل اليها للتأثير على والدته !

وعند هذه الكلمات ، كان الولد يرفع رأسه وينظر الى وهو يبتسم من خلال الدموع ، وتنهض الأم ـ يملؤها الرضى ـ للانصراف ، وأصحبها حتى الباب .. وتقول الأم لولدها وهى على منحنى السلم : « أد التحية مرة ثانية للسيد المدرس » . وكان الطفل يحيى منجديد ، بينما أظل أنا محتفظا بوقارى وكرامتى .. ثم أغلق الباب وأعود فأنقض على هذه اللفافة ، ثم أنادى على أخى وأختى اللذين كانا يسترقان ـ طوال وقت الزيارة ـ السمع خلال باب حجرة المكتب ، ثم نفتح اللفافة بكل حرارة وشغف ، فاذا كانت فطيرة أو زجاجة ، فاننا جميعا نقيم حفلا ونشرب فى نخب الأمهات

وفى معظم الأحيان ، كانت الهدايا «مقلمة» من الحديد الزهر ، على هيئة

« جندول » ، أو كرة من الزجاج بداخلها صورة القديس بطرس

كل هذه الأشياء لا تنم عن ذوق سليم ، ولكنها تبدو جميلة .. ولم تكن لدى الشجاعة لنزعها من مكانها ، ومع ذلك فقد عدت فى آخر العام الماضى بعد وقت طويل الى المدرسة ، وكنت أريد أن أقول للمدرسين الذين كانوا يحسدوننى على وظيفتى اللامعة ، وكانوا يحدقون بأعينهم عند ذكر دخلى الخيالى : « لا تتركوهم .. لا تتركوا الأطفال ، فان المرء ما دام يعيش بينهم يحس ولو قليلا بأنه مثلهم » وان الحجرات الصغيرة تبـدو كأنها أبهاء واسعة فسيحة ، والرسومات البدائية على الحائط كأنها نقوش عجيبة ، والكرة الزجاجية التى بداخلها صورة القديس بطرس تظهر كما لو كانت أجمل شىء فى الوجود !

الفصل الثانى

فتح السنة الخامسة (جـ)

كنت فى العشرين حينما وضعت فى جيب الصدر خطاب التعيين كمدرس احتياطى ، ووضعت يدى فوق الجيب بقوة ، وكنت خائفا جدا من ضياع ذلك الخطاب الذى كنت متلهفا للحصول عليه من زمن طويل .. وتقدمت الى المدرسة المبينة به ، وسألت عن المدير .. وكنت مضطربا حتى خلت أن قلبى سيقفز من بين جنبى ، وسألتنى السكرتيرة :

ـ من أنت ؟.. فى هذه الساعة يستقبل سيادة المدير المدرسين دون غيرهم ..!

فقلت لها : « انى ... انى بالضبط المدرس الجديد »

وأريتها الخطاب ..

فدخلت السكرتيرة متألمة الى المدير الذى خرج على التو .. وبمجرد أن رآنى ، أدخل يديه فى شعره ، وصاح قائلا : « ولكن ماذا يفعلون فى ادارة التعليم الابتدائى ؟.. يرسلون الى شابا صغيرا ، بينما أنا فى حاجة الى رجل مجعد الوجه له شارب ولحية مثل « مانجافوكو » (١) ، وله القدرة على السيطرة ووضع حد لهؤلاء الشياطين الأربعين المنطلقين ، ولكنه على العكس من ذلك .. بمجرد أن يروه سينقضون عليه ويلتهمونه !

ولما فهم المدير أن ذلك الكلام الذى قاله لا يتفق مع أحسن الطرق لتشجيعى ، خفض من صوته فى الكلام ، وابتسم لى .. وأخذ يربت بأحدى يديه على كتفى مداعبا لى ، وقال : « هل بلغت سن العشرين ؟.. اننى

---

(١) شخصية معروفة فى أحد كتب الاطفال « بينوكيو » للمؤلف « كوللودى »

أعتقد ذلك ، والا لما عينوك .. ولو أنه يبدو عليك أنك فى السادسة عشرة من عمرك ، كما تبدو كأنك تلميذ رسب عدة سنوات فى السنة الخامسة أكثر مما تبدو مدرسا ، وهذا ما لا أخفيه عليك .. وهو ما يشغلنى كثيرا . ألم تكن غلطة من ادارة التعليم الابتدائى ؟.. وهل كتب على الخطاب حقا مدرسة « دانتى اليجييرى ؟ »

فقلت له : « ها هو ذا » .. وأريته كتاب التعيين وعليه اسم مدرسة دانتى اليجييرى ..

وصاح المدير قائلا : « كان الله فى عوننا ، انهم صبية لم ينجح أحد حتى الآن فى اخضاعهم .. انهم أربعون شيطانا منظمون مسلحون ، ولهم رئيس اسمه « جوريسكى » .. وقد انصرف مدرسهم وهو رجل متقدم فى السن عرف بسيطرته ، وولى هاربا وهو يبكى بالأمس ، وطلب نقله ..

ونظر فى وجهى نظرة تنم عن عدم الثقة ، وقال :

« لو كان لديك على الأقل شارب ! .. »

فبدرت منى حركة كما لو كنت أريد أن أقول بأنه كان من المستحيل أن يكبر ..

ورفع عينيه الى السماء ، وقال : « تعال »

وعبرنا ممرا طويلا على جانبيه من الفصول : رابعة «د» ، خامسة «أ» ، خامسة «ب» ، خامسة «جـ» ... وقال المدير : « هنا يجب أن تدخل »

وعندما وقفنا أمام فصل السنة الخامسة «جـ» ، كانت تصدر منه أصوات أقل ما يعبر عنها أنها ضوضاء ، فكان يسمع صراخ وانفجارات وتساقط كرات من الرصاص على السبورة ، وطلقات من مسدسات من ذوات الطلقات المائة ، وأغان ، وأصوات المقاعد وسحبها من أماكنها !

وقال المدير : « انى أعتقد انهم يقيمون متاريس !

وضغط بقوة على ذراعى ، وذهب لكيلا يرى .. وتركنى وحيدا أمام باب السنة الخامسة «جـ» ..

ولو لم أكن راغبا من مدة عام فى الحصول على ذلك التعيين .. ولو لم

أكن فى حاجة ماسة من أجلى ومن أجل أسرتى لهذا المرتب ، ربما كنت انصرفت عنه فى صمت وسكون . وربما كان فصل السنة الخامسة «جـ» حتى اليوم فى انتظار من يخضعه .. ولكن أبى وأمى واخوتى كانوا ينتظروننى بفارغ الصبر ــ والشوك والسكاكين بأيديهم ــ لكى أملأ لهم أطباقهم الفارغة ، ومن أجل ذلك فتحت الباب ودخلت !

وفجأة ساد السكون فى الفصل ..

وانتهزت هذه الفرصة لاغلاق الباب والصعود الى كرسى الأستاذ .. أما هم فكانوا جالسين على مقاعدهم .. ولعلهم دهشوا من مظهرى الصبيانى ، ولم يعرفوا تماما اذا كنت تلميذا أو مدرسا .. أربعون تلميذا كانوا يحدقون النظر فى وجهى بتحد وتهديد .. وكان السكون الذى يسبق المعركة !

أما فى الخارج ، فكان الربيع .. وكانت قد نبتت فى أشجار الحديقة أوراقها الخضراء الأولى ، وكانت فروعها التى يحركها الريح تداعب زجاج النوافذ !

وضغطت على يدى ، وضبطت أعصابى ، لكيلا أقول شيئا .. ان كلمة واحدة لو نبست بها لكانت السبب فى انفجارهم بالضحك ، وكان على أن أنتظر ، وألا أسبق الحوادث !

وكان التلاميذ يحدقون فى وجهى .. وكنت بدورى أحدق النظر فيهم ، كما يحدق المروض النظر فى أسوده .. وسرعان ما فهمت أن رئيسهم هو ذلك الولد « جويريسكى » الذى حدثنى عنه المدير .. كان هذا التلميذ الجالس فى الصف الأول ، وهو ولد صغير الجسم ، حليق الرأس .. تنقص أسنانه سنتان ، وعيناه صغيرتان شريرتان ، وكان يلهو ببرتقالة يقذفها من يد الى أخرى ، وينظر الى وجهى .. وكان مفهوما أن وجود تلك الفاكهة اللذيذة فى يده ليس بقصد الأكل ..

وجاءت اللحظة الحاسمة ..

وأطلق « جويريسكى » صرخة ، وضغط على البرتقالة بيده اليمنى ،

وسحب ذراعه للخلف .. ثم قذف بالبرتقالة نحوى ، وانحرفت قليلا برأسى .. وتحطمت البرتقالة ورائى على الحائط !.. وكانت هذه أول لعبة .. وربما كان ذلك أول مرة يخطىء فيها « جويريسكى » الهدف بالبرتقال .. ولم أذعر ولم أنحن ، انما انحرفت الانحراف اللازم برأسى قليلا ..

ولكن الأمر لم يكن قد انتهى عند هذا الحد ..

ونهض جويريسكى ـ كالوحش ـ وصوب نحوى نبلته المرنة الحمراء المحملة بالورق الملفوف والمبلل باللعاب ، وكانت هذه هى الاشارة .. وفى الوقت ذاته تقريبا ، قام التسعة والثلاثون الآخرون على أقدامهم وصوبوا بذورهم النبال ، ذات المطاط العادى ، لا الاحمر .. لأن ذلك اللون كان اللون المخصص للرئيس .. لقد خيّل الىّ فى ذلك الوقت اننى من اخوة بانديرا (١) ، ثم شمل الفصل سكون .. متوتر .. وكانت فروع الأشجار لا تزال تداعب زجاج النوافذ بلطف ، وقطع هذا السكون طنين ذبابة كبيرة دخلت الفصل ، واختلط طنينها بالسكون المخيم عليه . وكانت تلك الذبابة هى النجدة والسبب فى نجاتى !

ورأيت « جويريسكى » ينظر الىّ بأحدى عينيه ، ولكنه كان يبحث بالأخرى عن الذبابة الكبرى .. وكان الآخرون يحذون حذوه حتى وجدوها ، وقد فهمت الصراع الذى كان يضطرب فى قلوبهم .. المدرس أو الحشرة ؟..

وان لرؤية ذبابة فى الفصل تأثيرا كبيرا على تلاميذ المدارس الابتدائية..

وكنت أعرف تماما جاذبية تلك الحشرة .. لقد كنت حديث العهد بالدراسة ، ولم أستطع حتى الآن أن أمكث بدون تأثر لرؤيتها !

وفجأة قلت : « جويريسكى » .. وانتفض الولد مندهشا لأنى عرفت اسمه ، ثم استأنفت الحديث قائلا : « هل تشعر بأن لك القدرة أن تسقط

---

(١) اخوة بانديرا شهداء من ايطاليا ، ماتوا رميا بالرصاص من جنود النمسا ، وهم من أهالى البندقية .. وكانوا قد ثاروا لتحرير ايطاليا الجنوبية من سيطرة آل بربونى .. فأسروا وضربوا بالرصاص ، وماتوا وهم يهتفون : « تحيا ايطاليا »

تلك الذبابة برمية من نبلتك ؟ »
فأجابنى « جويريسكى » بابتسامته قائلا : « انها مهنتى ! »
وسرى همس بين الرفاق ، وانخفضت النبال التى كانت موجهة الىّ ، واتجهت كل العيون الى « جويريسكى » الذى خرج من مقعده ، وأخذ يصوب نبلته متتبعا الذبابة .. فأطلقها وأحدثت الطلقـة الورقية صـوتا قويا ، اذ اصطدمت بالمصباح . أما الذبابة فاستمرت بكل هدوء فى طنينها الذى يشبه طنين الطائرة !

وعندئذ قلت لهم : « الىّ بالنبلة » ، ومضغت طويلا قطعة من الورق ، وعملت منها كرة صغيرة ، وأمسكت بنبلة « جويريسكى » .. وأخذت بدورى أصوبها الى الذبابة !
وكانت نجاتى ، وهيبتى فى المستقبل ، تتوقف تماما على هذه الضربة . وتريثت مليا ، وقبل أن أجذب النبلة قلت لنفسى : تذكر أنك عندما كنت طالبا لم يكن أحد يتفوق عليك فى صيد الذباب !

وبعد ذلك ، وبيد ثابتة أديت مهمتى .. وكفت الذبابة عن الطنين مرة واحـدة ، وسقطت ميتـة تحت قدمى ، وعدت فى الحال الى الكرسى ، وأريتهم النبلة الحمراء قائلا : « ها هى ذى نبلة جويريسكى .. والآن انى أنتظر الآخرين »
ودار تهامس ، ولـكنه تهامس اعجاب أكثر منه تهامس معاكسـة .. واصطف التلاميذ واحدا وراء الآخر ، وتقدم كل منهم برأس خفيضـة واضعا نبلته على مكتبى ، وليس لديه الشجاعة ليواجه نظرتى .. ووجدت أمامى فى وقت قصير أربعين نبلة مكومة !
ولم تبد على سمات الضعف واظهار تذوقى للذة النصر ..
وقلت وأنا فى غاية الهدوء ، كما لو لم يحدث شىء : « لنبدأ بالأفعال..
« جويريسكى » الى السبورة »
وأعطيته الطباشير مبتدئا فى املائه :
« أنا أكون ... أنت تكون ... هو يكون ... »

وهكذا حتى وصلنا الى اسم المفعول ، بينما كان الآخرون هادئين ، وينقلون فى كراساتهم بخط جميل ما كتبه على السبورة « جويريسكى » ، رئيسهم المقهور المغلوب على أمره !

أما المدير ، فلعله كان خائفا من ذلك السكون غير المعتاد ، ومن أن يكون الأربعون شيطانا قد حبسونى وكمموا أنفى . ودخل الى الفصل فى لحظة معينة ، ونجح فى كبت صيحة الاعجاب .. وبعد انصراف الأطفال سألنى المدير : « كيف استطعت أن تفعل هذا ؟ »

واضطررت أن أرضيه باجابة غامضة : « لقد دخلت فى مزاجهم ياسعادة المدير »

لم أستطع أن أقول له اننى قتلت ذبابة كبيرة بضربة نبلة ، لأن ذلك لايدخل فى طرق التدريس أو المناهج أو النظم .. اذ لم يلمح « لامبروسكينو » ، أو « آبورتى » ، أو « لومباردو راديشى » ، فى كتبهم الى أن قتل الذباب جزء من التعليم !

ومضت السنة الدراسية يسيرة ناعمة كالزيت ، وأصبح «جويريسكى» الرئيس السابق يعبدنى .. وانتقل بدرجات عالية الى المدارس الثانوية !

وقد رأيت « جويريسكى » مرة ثانية فى العام الماضى ، بينما كان يخرج من القسم التوجيهى وسط مجموعة الأصدقاء .. وصاح قائلا : « سيدى المدرس » وأقبل نحوى ..

ولكنه كان قد تغير ، فلم يعد يعبدنى كثيرا كما كان يعمل فى الماضى .. وكان فى القسم التوجيهى .. ولم يبق على الامتحان سوى بضعة شهور .. وقد أصبح شابا ، وأكثر منى طولا .. ولكننى أنا لم أكن الا ذلك المدرس الصغير الذى كان ماهرا فى صيد الذباب .. نعم ولا شىء غير ذلك !

ـ كيف حالك ياسيدى المدرس ؟

قال ذلك وهو واقف أمامى ، وبقى زملاؤه قليلا الى الخلف ينظرون الى بابتسام ..

ان طلاب القسم التوجيهى مملوءون بآمال المستقبل ، وفخورون بدراساتهم الأدبية .. ولذلك يضحكون عند رؤيتهم مدرسا ابتدائيا ليست له آمال ، وسيظل دائما مدرسا فى المدارس الابتدائية ..

ـ كيف حالك ياسيدى المدرس ؟

انه الآن هو الذى يسألنى ويستجوبنى ، وربما هم بأن يربت على كتفى بيديه ، حتى يبدو فى منظر جميل فى أعين أصدقائه ، وقال : « أما زلت بمدرسة دانتى اليجييرى ؟ ودائما مع الأطفال ؟.. أما زلت تدرس للسنة الخامسة « جـ » ؟.. هل يضايقك تلاميذها ؟.. »

وكدت أقول له اننى غيرت مهنتى الآن واننى أتولى ادارة احدى الجرائد .. وربما كان هو ممن اعتادوا قراءتها ، وربما كانت هذه الجريدة فى يده . ولكنى فكرت فى أننى لو صرحت له بذلك ، لجعلته كما كان ممن يعبدوننى .. لذلك لزمت الصمت ، وكان يسرنى أن أتمتع بتفوقه وكبريائه هو وزملاؤه الذين كانوا يبتسمون فى سخرية !

وقلت له : « انى هناك دائما ، وبعد السنة الخامسة «جـ» التى كنت أنت بها ، كثيرا ما قمت بالتدريس لفصول أخرى من فصول السنة الخامسة ، وكانت النتيجة تنتهى دائما بمحبة التلاميذ لى »

وكنت بالرغم من شبابى ، أبدو ذلك المدرس العجوز أمام هذا التلميذ القديم ..

وانه ليحدث كثيرا بين مدرسى المدارس الابتدائية فقط ، أن يشعر أحدهم فى لحظة أنه مسن ، وهو لم يتجاوز الثلاثين بعد !

ـ أتصيب بالنبلة الذباب دائما ؟

فأجبت : « دائما .. وما زالت يدى تصيب الهدف » واستطردت قائلا وأنا التفت حولى متظاهرا بالبحث فى جيبى عن نبلة : « لو كانت توجد هنا ذبابة ربما أصبتها ! »

وصاح وقد احمر وجهه قائلا : « هل تفعل ذلك ياسيدى المدرس فى وسط الشارع ؟ »

مسكين «جويريسكى» ، كان قد أصبح رجلا فى الثامنة عشرة .. وكان يخجل من هذه الأشياء ، أما أنا فاننى ، والحمد لله ــ لا أخجل ــ على العكس من ذلك . لا أخجل من أحد

انه ليوجد بين مدرسى المدارس الابتدائية فقط من يشعرون بأنهم ما زالوا أطفالا وهم لم يتجاوزوا بعد سن الثلاثين ..

وسألته : « هل تخجل حضرتك من ذلك ؟ »

وقد استعملت متعمدا صيغة الاحترام ، فبث ذلك فى نفسه شيئا من الفخر .. ومن ناحية أخرى شيئا من الحيرة ، ونظر الى عينى فوجد فيهما ابتسامة ، فاحمر وجهه وحيانى ، وبقيت أنظر وهو يبتعد مع أصدقائه الذين لم يضحكوا ، ولكنهم كانوا ينصرفون مسرعين دون أن يلتفتوا خلفهم ..

الفصل الثالث

معجـــزة الشـــجرة!

ان الصعود الى كرسى المدرس والجلوس ـ كما يفعل الكثيرون فى المدارس الابتدائية ـ لتعليم الأطفال قواعد الرسم وفن التلوين انما هو أشبه شىء بأخذ طفل فى الثانية من عمره وتفهيمه بهدوء ووقار أن الناقوس لا يسمى « دن دن » ولكنه جرس ، وأنه معدن غير بسيط .. يتكون من سبيكة من النحاس والقصدير .. وعلى كل حال فان هذا مما لا جدوى فيه ، ويعتبر اثما كبيرا .. اذ أن معرفة طفل يبلغ الثانية من عمره لكل هذه الأشياء عن الأجراس ، لابد أن يكون معجزة صغيرة ، وان مثل هـذا الطفل لجدير بأن يعرض فى حفلات السيرك ، ويدفع الناس النقود لمشاهدته

وكذلك الحال بالنسبة لطفل فى المدارس الابتدائية يعرف قوانين البعد والقرب فى الرسم ، وعلم التشريح الانسانى ، وفن التلوين ، وسر الفتحات والتظليل فى الرسم ، وانه ليساورنى الخوف من أن يكون بين تلاميذى من يشبه هذا التلميذ .. واذا حدث أن كان هناك تلميذ من هؤلاء التلاميذ فى الفصل ، وكنت مدرسا ، لطلبت نقلى فى الحال الى مدينة أخرى ، متعللا بأسباب عائلية أو صحية كاذبة !.. ولكن من حسن الحظ أنه لم يوجد مثل أولئك التلاميذ بين تلاميذى !

لقد كان لدى تلاميذ يرسمون الرجال دائما بالطريقة الآتية :

ساقان تبتعد أولاهما كثيرا عن الأخرى ، شعر قد وقف كأنه الشوك ، وقد وضعت القبعة بخفة بحيث تكاد تمس الشعر مسا .. وأذنان لا وجود لهما ، وصف طويل من الأزرار والأيدى كجذوع الأشجار العتيقة الجافة

التى تنتهى بخمسة فروع مستقيمة يابسة ، وأحيانا لا ينتبهون ويرسمونها ستة . وقد ترى صور هؤلاء الناس فى الأحيــاء الشعبية مرســومة على الجدران ومكتوب تحتها : « جيجى يحب مارينا »



ولعمرى ان تلاميذ المدارس الابتدائية هم بمثل هــذه البراءة .. فانهم لا يجهلون كيف يصــورون الحب فحسب ، بل لا يعرفون ماذا يكتبون للتعبير عن هذا الحب

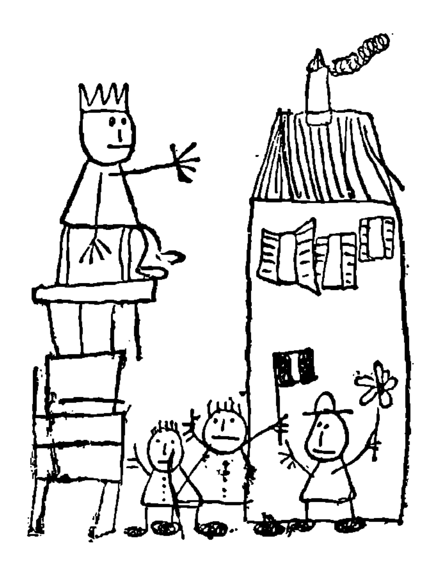
وفى ذات مرة ، قلت لتلاميذى فى السنة الثالثة : « ارسموا الملك » ، وكان « مارتينيللى » الذى اعتاد أن يهدينى الحلوى بعد أن يلعقها بلسانه ويسرق الزهور من أجلى من حدائق كوللى أوبيو (١) ، تلك الزهور التى تنبت فى حجرة الأبحاث الزراعية ومعها بطاقة مكتوب عليها الاسم باللغة اللاتينية ، ويقول لى كل صباح وهو يقدم لى تلك الزهور ليطمئننى : « سيدى المدرس .. انها مكتوب عليها هذا .. ولكنها ما زالت زهورا » كان مرتينيللى هذا قد رسم الملك بهذه الطريقة :

كان يتخيل الملك هكذا طويل القامة الى حد كبير .. ورعاياه فى منتهى الصغر يركعون له .. وربما كان أحد رعاياه الصغار الذى يمسك زهرة بيده ، هو بذاته مارتينيللى يحمل زهرة أيضا الى الملك

ولماذا لا نعلم مارتينيللى أن الملك لا يحمل التاج دائما ويجلس فوق

---

(١) توجد فيها حدائق لاجراء تجارب على الزهور



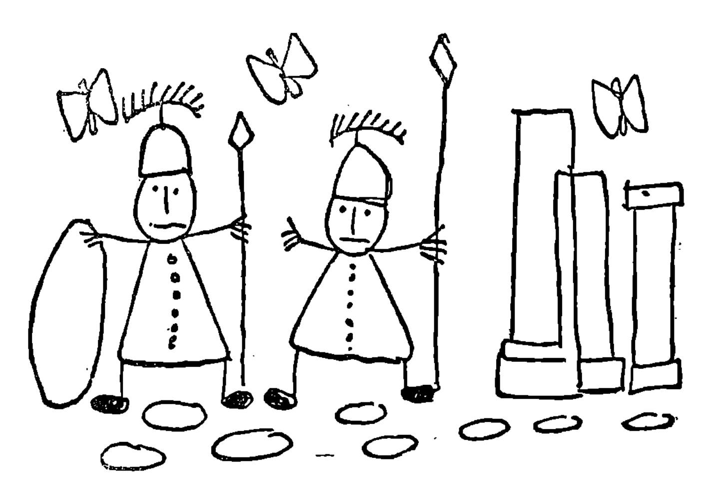
عرش ولو أنه ليس أكثر ثباتا فان الوصول اليه أسهل من ذلك البرج العجيب المكون من الكراسى والمقاعد ..

ان مارتينيللى لم ير أبدا ملكا من الملوك .. ولكنه منذ وقت قريب سمع جدته تتحدث عن الملك فى القصص الخرافية التى كانت تقصها عليه ، ولم يكن قد رأى العروش قط .. ولم يعرف ماذا تكون . لقد كان يعرف فقط حيث كان يعيش مع أمه واخوته الصغار فى بيت صغير من بيوت الفقراء ـ أنه توجد مقاعد وكراسى ودكك ـ ولم يخطر بباله أبدا وجود الأرائك والمقاعد الفخمة .. والا فأين يجلس الملك ؟ أفوق دكة ، أو فوق كرسى من القش ، مثله عندما كان يجلس هو ليتناول طعام الغداء بين أمه واخوته الصغار ، أو عندما كان يقوم بواجباته المدرسية ؟.. انه أقل بكثير، وغير جدير بعظمة الملك !

انه لابد من شىء ... ولكن ما هذا الشىء الذى لابد منه ؟

انه شىء ما كان يدركه مارتينيللى جيدا ، لأنه لم ير من قبل لا عروشا ولا أرائك .. وعلى ذلك فانه تمجيدا للملك ، أخذ مقاعد عديدة ودككا

كثيرة ، وجمعها فوق بعضها البعض ، وأجلسه فوق ذلك البرج القائم معجزة من المعجزات ، ووضع أسفله أفراد رعيته المتناهين فى الصغر ، وكنت أحرص كل الحرص على أن أقول لمارتينيللى انهم أصغر من اللازم ولا يتناسبون ، وانه بذلك التباين النسبى قد وجد الطريقة الأجدى والأكثر فعالية للتعبير عن عظمة الملك . ومرة أخرى بعد نزهة الى « الفوروم » الرومانى قلت للأطفال : « ارسموا ما لفت أنظاركم أكثر من سواه ، فمثل الىّ هذا الرسم «رونكونى» ــ وهو تلميذ كانت لديه أفكار أكبر من سنه ــ دون أن يعرف ما هى هذه الأفكار ، وكانت له عينان سوداوان واسعتان ، ووجه صغير شاحب مستطيل ، ورسغان رقيقان تظهر فوقهما عروقه ، وتفتر شفتاه عن ابتسامة .. وقد رأيته مرة ثانية بعد ذلك ببضعة أشهر على فراشه ، وهو واضع رأسه على وسادة بيضاء ، لم تتأثر أبدا بثقل ذلك الرأس الصغير



ولقد لاحظت فى رسمه أن الفراشات كانت تطير بين الأعمدة المتهدمة التى كان يمر من بينها قدماء الرومان ، فسألته مازحا :

« هل هذه الفراشات قديمة أو حديثة ؟ » فأجابنى « رونكونى » قائلا: « ان الفراشات تطير دائما » . وعدت أسأله :

« وهؤلاء الأطفال الذين يلعبون لماذا لا يرتدون الملابس الرومانية

القديمة ؟ فألقى على نظرة كما لو كان يريد أن يقول : « هل من الممكن أن تكون مدرسا ولا تفهم هذا ؟ »

وكان يسوءه ذلك لأنه كان يحبنى ، وكان يعتقد أننى مخلوق فى مستوى عال ، وكان يرى أننى أفهم كل شىء حتى أفكار الأطفال التى كثيرا ما تكون أفكارا عظيمة ، وكثيرا ما تكون عميقة حتى لا يمكن أن يفهمها أحد !

ولقد قال لى :

« الأطفال دائما يلعبون .. فأطفال الرومان القدماء كانوا يلعبون بالكرة وبالطوق مثلنا ، دون أن يعرفوا أنهم من عصر الرومان ! »

ولم أجبه بشىء ، فقد ذكرنى هذا بقصيدة « لدومينكو نيولى » التى قال فيها :

« لقد وجدت فى أثناء أعمال الحفر ، وعلى نقوش أحد المعابد بروما ، هياكل أطفال .. وسأل « دومينكو نيولى » فى قصيدته هذه الهياكل :

« ماذا كنتم تفعلون وأنتم أحياء ؟.. ماذا كانت أفكاركم ؟..كيف كانت روما ؟ » ..

فأجابته الهياكل :

« ماذا تظن أننا نعرف .. كنا أطفالا نلعب ونجرى وراء الفراشات مثل أطفال اليوم والغد ، ماذا تريد أن نقول لك ؟ ! »

وانبرى هيكل منها قائلا : « أتذكر دميتى ؟ ! » وقال الثانى : « وأنا ، هل تذكر كرتى ؟ » ورد آخر : « هل تذكر طوقى ؟ » ، و « رونكونى » تلميذ السنة الثالثة الابتدائية ، كانت لديه نفس فكرة الشاعر .. وقبل أن يعبر عنها بالكلام عبر عنها بالرسم دون أن يعرف ذلك !

ولكنه رسم لم يعجب حضرة المفتش الصارم العجوز ، ذى النظارات الذهبية ، الذى دخل فصلى ذات يوم وانتقد بقسوة طريقتى فى تعليم الرسم ، بل أفهمنى بأنى لا أدرس لهم الرسم . وتضايق عندما رأى أولاد الرومان القدماء الذين كانوا يلعبون بالطوق ، ويجرون وراء الفراشات ،

وقال : « هذه نعومة وحماقة ! »

وسألته بخجل : « بأى شىء تظن أن أطفال روما القديمة كانو يلعبون ؟ »

فأجاب باختصار : « لم يكونوا يلعبون » .. ثم قال مغيرا نغمة صوته : « ربما كانوا يلعبون برجولة ، دون أن يضحكوا ، وبخوذات صغيرة على رءوسهم ، وبخناجر يلوحون بها »

ثم قلت : « ولكن الفراشات .. » فأجابنى : « ان الفراشات فى تلك العصور لم يكن لها وجود ! »

وساد الفصل سكون شامل ، ورأيت على وجوه بعض تلاميذى رغبة شديدة فى أن يسألوه : « فى أى الأعوام ابتدعت الفراشات ؟ ! »

وقال لى المفتش : « ياسيدى المدرس ، حضرتك لا تدرس الرسم جيدا .. فرسوم تلاميذك تبدو رسوم أطفال ! »

وأخذ واحدا من الرسومات ، وسأل : « من هو مارتينيللى ؟ »

فنهض مارتينيللى مرتعشا ، وأفهم المفتش بعينيه أنه مارتينيللى ، لأنه لم تكن لديه القدرة على الكلام ..

وصاح المفتش ملوحا برسم عليه امضاء مارتينيللى : « أفى الشتاء .. ؟»

وكان الرسم يمثل منظرا ريفيا فى الشتاء .. الجبال والأسطح والحقول مغطاة بالثلوج ، ولكن فى وسط الريف كانت تنبثق بأعجوبة شجرة خضراء ذات أزهار كثيرة : صفراء ، وحمراء ، وزرقاء ، وبرتقالية .. ثم قال : « هل فى الشتاء وفى وسط الثلوج تنبت الأزهار ؟ .. فى أى فصل تنبت الأزهار ؟.. »

وأجاب الأطفال كلهم مرة واحدة : « فى فصل الربيع »

فقال : « مرحى .. وأنت بالعكس يامارتينيللى ، هل رأيت فى الشتاء ، وفى وسط الثلوج شجرة مزهرة ؟ » فأجابه مارتينيللى : « نعم ! »

واستطرد المفتش قائلا : « أين ؟.. »

وانخرط مارتينيللى فى البكاء لأنه لم يكن يعرف الاجابة ، ولكنه

رآها .. وكان متــأكدا من ذلك . وبايماءة معناها : لاتبك ، أفهمته انى أصدق أنه رآها .. !

وقال المفتش بجفاف ، وهو ينصرف : « ياحضرة الأستاذ خير لك أن تؤدى رسالتك بضمير .. درّس الرسم بجدية للأطفال ، واعمل بطريقة ما كى لا أرى فيما بعد أشجارا مزهرة فى المناظر الريفية شتاء ! »

وانصرف .. وبعــد انصرافه ، وفى السكون الذى لايزال مخيما على الفصل ، قلت : « مارتينللى .. أليس حقا أنك رأيت الشجرة المورقة ؟ »

فقال : « نعم ياسيدى المدرس .. كانت جميلة وكبيرة .. كلها زهر ملون ، ألا تصدقنى أنت أيضا ؟ »

فقلت : « أعتقد أنك صادق »

وابتسم مارتينيللى ، وابتسم كل أصحابه .. ونحن الرجال لكى نرى تلك الأشياء الجميلة يجب أن تقع تحت نظرنا ، أما الأولاد فبالعكس . انهم يرونها دائما لأن تخيلاتهم وأحلامهم ورغباتهم كبيرة وقوية الى حد يجعلها تصبح أشياء حقيقية !

كان مارتينيللى يعتقد أنه رأى الشجرة المورقة وسط الجليد الأبيض ، والسماء الرمادية فعلا

وقلت : « يا أولاد ، ان حضرة المفتش على حق .. ففى الشتاء لا تنبت الأوراق والزهور ، وان لم تكونوا قادرين على الاستغناء عن رسم تلك الأشياء ، فضعوها فى رسومكم تحت مسئوليتى ! »

وكانت معهم ـــ فوق أدراجهم ـــ الأقلام الملونة ، وورقة جميلة مقواة للرسم ، وقلت : « ارسموا »

وقال مارتينيللى : « سيدى .. هل أستطيع أن أرسم سطح بيت أحمر شديد الحمرة ؟ »

وسأل ساتينى : « سيدى .. هل أستطيع أن أرسم قالبا من الطوب الأخضر بجانب قالب الطوب الأصفر ؟ »

وسأل ليوناردى : « وأنا .. هل أستطيع أن أرسم وجه حضرة المفتش

ذى الشوارب واللحية وعينيه الحمراويين كعينى التنين ؟ ! »

ولاحظت أن المفتش لم تكن له شوارب ، أو لحية ، أو عينان حمراوان، وسألتهم : « هل له هذه الأشياء ؟.. هل أنتم متأكدون من ذلك ؟ »

وأجابوا كلهم فى صوت واحد : « نعم .. نحن واثقون كل الثقة ! »

قلت لهم : « اذن ارسموه هكذا »

وابتدءوا يرسمون فى غاية الاهتمام ، ورءوسهم على الأوراق ، ومكثت قليلا ثم ذهبت رويدا رويدا وراء السبورة حيث لا يتمكن أحد من رؤيتى ، ورسمت بالطباشير الملون مساحة كبيرة من الثلج وفى وسطها شجرة مورقة ، وفى أحد الأركان وجه المفتش ذى الشوارب واللحية ، والأعين الحمراء التى تشبه عينى التنين !

الفصل الرابع

اختبار فى الفصل

عندنا اليوم اختبار فى الفصل ..

يدخل الأطفال على أطراف أقدامهم ، ينظرون بخوف الى المدرس ، ويفتحون حقائبهم ، ويضعون على القمطر أمامهم ورقتين .. واحدة للتسويد وأخرى للتبييض .. ورقتين ناعمتين نظيفتين أحضروهما على التو من ذلك الدكان الصغير الذى يبيع الورق ــ وهو على قيد خطوتين من باب المدرسة ــ وكان هذا الدكان صغيرا لا يتيسر دخوله لأكثر من شخصين ، وكان صاحبه ماكرا .. اذ فتحه بجانب المدرسة بالضبط .. انه رجل مسن يغطى رأسه بقلنسوة ، ويبتسم للأطفال ، ويعرفهم واحدا واحدا ، ولا يبيع أوراقا فقط ، بل كراسات ومساطر صغيرة .. وجل ربحه كان من المسدسات التى ترش الماء و « عفريت النسوان » وطوابع البريد القديمة لهندوراس وجواتيمالا ، التى يبيعها وهو يبتسم ابتسامات معينة وبنوع من المهارة ، حتى ان الأطفال ينفقون من أجل أحد هذه الطوابع خمسة أو ستة مليمات ، وبعد ذلك يندمون فى الحال ، ويحاولون بيعها من جديد بمليمين أو المقايضة عليها بأربعة من أسنان الريش مع زملائهم

ولكن طوابع بريد جواتيمالا ، لم تكن ذات أهمية اذا قورنت بالجنود المصنوعة من الورق والتى كان يعرضها ذلك العجوز بطريقة شيطانية مغرية ، ويعلقها خارج دكانه .. وكان يعرف تماما أسعارها ويقدرها ، فجندى المدفعية بمدفعه يساوى أربعة من الجنود المشاة ، وجندى الفرسان

يساوى ثمانية ، أو ستة عشر ، اذا كان الحصان أبيض اللون . ويخفض الثمن ويرفعه حسب تغيير السوق ، وذلك عن طريق بعض الأولاد الذين كانوا يقدمون له تقريرا يوميا عن حالة السوق .. وكان فى مقابل ذلك يكافئهم بقطعة من الورق النشاف ، أو « بعفريت النسوان »

ان رجلا عجوزا ، أكل عليه الزمن وشرب ، ضرره بالمدرسة أكثر من نفعه .. كان أولياء الأمور دائما يشكون من أن أولادهم بدلا من أن يشتروا أوراقا ، يشترون طوابع بريد أو جنودا !

لكن ذلك الرجل ما زال هناك منذ زمن طويل ، ولا يزال المدرسون المسنون يذكرون أنهم رأوه فى دكانه .. أما المدرسون حديثو السن ، فانهم كانوا يشترون المسدسات المائية والعساكر منه عندما كانوا صغارا .. ولكنهم لا يقولون ذلك محافظة على وقارهم كمدرسين !

كان الجنود وقتئذ مختلفين ، ويرتدون ملابسهم بطريقة تختلف عن الطريقة المألوفة الآن ، ولهم قبعات عالية ، وياقات مغلقة ، ولكنهم ـ على كل حال ـ كانوا جنودا

ومن ثم ، فان أحدا لا يقول له شيئا .. فان الناظر فى كل صباح يرد على تحيته له مبتسما ، وهى تحية قد تغيرت منذ بضعة أعوام .. فانه كان فى أول الأمر ينحنى ويخلع قلنسوته ، والآن ما زالت عنده القلنسوة .. ولكنه يثبتها على رأسه ويؤدى التحية الرومانية (١)

كان لدينا فى هذا الصباح اختبار فى الفصل ، وقد انتهى الشتاء من مدة بسيطة .. لكن برده كان لايزال باقيا بين الجدران .. أما فى الخارج ، فكان الانسان يشعر بالربيع ، مع أن النوافذ كانت تطل على زقاق قذر لا تزوره الشمس . ومن النافذة المقابلة كانت تطل احدى الفتيات ، (وكان المدرس من حين لآخر ـ ودون أن يظهر نفسه لأحد ـ يحول طرف احدى عينيه اليها ، وطرف عينه الأخرى الى الأولاد) وكان الى جانبها أصيص به شجرة ورد ، لم تزدهر بعد .. لكن براعمها كانت على وشك التفتح ،

---

(١) التحية المتبعة فى ايطاليا أيام الفاشستية

وتتصور المروج المملوءة بأزهار الأقحوان والبنفسج الصغيرة التى تعرف من رائحتها ، والأشجار الملونة بالأحمر والأزرق والأبيض ..

وفكر المدرس فى أن مارتينيللى لن يأتى ..

وفى اللحظة نفسها ، كان يفكر فى موضوع الانشاء الذى سيعطيه للتلاميذ ..

أما التلاميذ ، فقد كتبوا على المسودة التاريخ ، وتحته كلمة « انشاء » وبقوا ينتظرون بأعين مفتوحة ، وبقلب يدق بشدة ، بدء المدرس فى الاملاء

ولكن المدرس تأخر لسببين : أولهما أنه كان يأمل دائما فى وصول مارتينيللى .. والآخر أنه كان — ككل المدرسين الآخرين — (ولحسن الحظ ان الأولاد لايعرفون هذه الأشياء) لايعرف أى موضوع يعطيه ، أيكون « ما هو أجمل يوم فى حياتى ؟ » لا .. لنتجنب هذا الموضوع الذى يرغمهم على الكذب ، لأنه لن تكون لديهم الشجاعة أبدا كى يكتبوا أن أجمل يوم فى حياتهم كان ذلك اليوم الذى رأوا فيه سيدة سمينة تقع على السلم ، ومعها المظلة وحقيبة الخضار .. ثم لماذا أعلمهم — على صغر سنهم — عمل مقارنة بين يوم وآخر ، وأن يميزوا بين يوم جميل ويوم ردىء ؟.. كل الأيام جميلة بالنسبة للأولاد — وهم فى العاشرة من العمر — سواء اليوم الذى رأوا فيه سيدة سمينة تقع على السلم ، أو اليوم الذى استطاعوا فيه أخذ صرصور الليل ، وقربوه لأذنهم ليسمعوا صوته ..

أم يعطيهم موضوع «الربيع ؟..» أوه .. لا ، انه سيجبرهم على كتابة : « انتهى الشتاء ، وجاءت ساعات نسيم الربيع الدافىء ، وشجيرة الحديقة مزهرة ، وأخيرا نستطيع الجرى والقفز .. » وكتابة تلك الأشياء دون أن يستطيعوا أن يفعلوها لأنهم محبوسون فى الفصل ، حيث يحسون ببرد الشتاء الذى انتهى منذ أيام قليلة ، وبالنوافذ التى تطل على الزقاق القذر، أمر مقبض ..

لن يأتى مارتينيللى ..

والآن لقد تأخر الوقت ، وأقفل باب المدرسة .. ومارتينيللى فى هذه

الساعة لايزال فى المروج ليرى الأزهار ، لا ليكتب عنها ، وقد وضع يده فى ماء الحفرة الذى تنعكس عليه زرقة السماء ، ويتعجب عندما يسحب يده لعدم رؤيتها ملونة باللون السماوى ، ويرى العصافير تطير فى السماء على شكل اكليل ، ويود أخذ واحدة منها ليرى اذا كانت تأكل « الشيكولاتة » أم لا ؟

أما فى المدرسة ، فانه على العكس من ذلك .. سيكون مضطرا لكتابة « لا يليق أخذ العصافير ، فانها من مخلوقات الله.. والأولاد الذين يأخذونها هم أشرار لا قلوب لهم ! »

لكن ما معنى لا قلوب لهم .. انهم يحسنون صنعا !

كان مارتينيللى هو الوحيد وسط المروج ، يجرب النبلة ويكررالتجربة بصبر .. ولكن أين الحقيبة ؟.. يبدو له أنه قد وضعها هناك خلف تلك الأحراش ، وسيجدها فيما بعد .. أما الآن فلا يهمه شىء !

وغدا فى الصباح ، حينما يعود الى المدرسة لن يجىء ليقول لى :

« حضرة المدرس ، ان والدتى كانت مريضة جدا بالأمس »

ولن يخلق اعتذارات أخرى ، بل سيقول لى : « حضرة المدرس ..كنت أريد أن أصيد عصفورا ، ولكنى لم أنجح فى ذلك »

وكان الأولاد ينظرون بأعين مفتوحة مترقبة للموضوع ، وبقلوب ذات ضربات قوية ..

وكان لابد من الاسراع ، فان الأولاد قد أنهكهم الانتظار ، وبدءوا فى تخطيط بعض الرسومات على ورقة التسويد

ولكن هل من الضرورى اعطاء هذا الموضوع ؟..

نعم .. لابد منه ، اذ يجب تدوين أعمال الطلبة خلال السنة ، لأن الناظر عند نهاية العام يرى بنفسه العشرين موضوعا المكتوبة فى الفصل ، فيربت على كتف المدرس ويوجه اليه عبارات الثناء .. وكذلك عندما يرى المفتش الأربعمائة الموضوع المكتوبة فى المدرسة سوف يهنىء الناظر بحرارة ويوجه اليه عبارات التفخيم والملاطفة ..

ومن ثم فلنعط هذا الموضوع ...
ـ اكتبوا يا أولاد ...
واذا بأربعين سن ريشة ، تلمس فى نفس الوقت قاع المحبرة ..
ـ موضوع الانشاء : « زميلى فى المقعد »
والرءوس المنحنية على الوريقات ، تبدو كمتسابقى الدراجات المنحنين على عجلة السباق ، وللأقلام صرير على الورق ، ثم تهامس الأطفال وتعليقاتهم وتعجباتهم التى تلى دائما السكون والانتظار ..
فمنهم من يفرك يديه ، وهو فى منتهى السعادة ، ويقول : « انه موضوع سهل »
ومن يبكى هناك فى آخر الفصل .. وتسيل دموعه على ورقته ، وهو يشكو قائلا :
ـ حضرة المدرس .. لايوجد بجانبى زميل !
ومن يرفع يده ، وهو ينظر الى زميله ذى الرأس الخالى تماما من الشعر ، ويقول :
ـ حضرة المدرس ، هل يمكننى أن أكتب أن زميلى له شعر أشقر طويل ، يتدلى على كتفيه على شكل خصل ذهبية ؟ !
وقلت : « نعم تستطيع ، لو كان زميلك يسمح لك بذلك »
قل لى يافرنشسكونى : « هل تسمح « لكريبا » أن يكتب أن لك شعرا طويلا كالذهب ، وأنه يتدلى على كتفيك ؟ »
ويكاد فرنشسكونى يجيب بالنفى ، ولكنه فكر من جديد .. وابتسم لفكرة وصفه بأنه أشقر الشعر ، وذو خصل ذهبية !
وأخيرا قال بصراحة : « لا .. ليكتب أن رأسى حليق ! »
كان الله فى عون « كريبا » .. لقد كاد يوفق الى موضوع جميل ، اذ استطاع أن يصف باتقان زميله فى المقعد .. ولقد ندمت على املائهم ذلك الموضوع .. انه شىء خطير ، فانى أرى مارشيلينى ينظر بوحشية الى مانيلى ، ويصدر اليه حركات تعنى بوضوح :

ــ عند الخروج سأورم عينيك !

قلت له : « مارشيلينى لماذا ستورم عينى مانيلى ؟ »

فأجاب : « لأنه كتب فى موضوع الانشاء أنى جاسوس وصمام ، وأننى حتى لو استذكرت كثيرا لا أتعلم لأنه ينقصنى الذكاء ! »

وآخر يرفع يده : « حضرة المدرس ، هل أستطيع أن أكتب أن زميلى يخرج لسانه عندما لا تراه ؟ ! »

وآخر يبكى فى صمت ، وأسأله : « ماذا بك ؟ »

فيجيب وهو يشير الى زميله : « انى فقير .. ولكن ما الداعى أن يكتب زميلى ذلك فى موضوع الانشاء ؟.. أليس فى استطاعة الجميع أن يكونوا أغنياء مثله ، ويمكنهم شراء محبرة الجيب ؟ ! »

ان محبرة الجيب هى حلم كل تلاميذ المدارس الابتدائية .. تلك المحابر التى تنفتح بسرعة عند الضغط على زر ، ولا يهمهم انها تفقد الحبر من جميع النواحى وتبقع الأيدى والملابس وتغمر الجيوب ، وان امتلاك محبرة جيب هو حلم كل الأطفال ، ولكن ثمنها غال .. وفى الفصل لايوجد الا اثنان أو ثلاثة تلاميذ ــ على أكثر تقدير ــ هم الذين يمتلكونها . ولكن ماذا أفعل ؟.. ان الذنب ذنبى لأنى أنا الذى أعطيتهم الموضوع

والآن تركت الفتاة النافذة ، ويبدو لى أن براعم الورد قد ازدادت أكثر بقليل فى التفتح .. انى أحسد مارتينيللى الذى لايزال بين المروج ، وقد تحاشى عذاب هذا الموضوع ، وسيأتى غدا مبتسما ويقول :

ــ سيدى المدرس كنت أريد أن أصيد عصفورا !

أما « كريبا » فانه يبتسم الآن ، لأنه أخذ منى اذنا بأن يكتب أن زميله أشقر ، وشعره متموج يتدلى على كتفيــه ، ويفهم من ذلك بسهولة أن زميله لاشك قد أهدى له ضابطا من الفرسان من ذلك النوع الذى يساوى منفردا ستة عشر ضابطا من المشاة ، وهذا بسبب بياض الفرس !

كذلك لم يعد مارشيلينى يشكو من الكلمات التى كتبها مانيلى فى موضوع الانشاء : « جاسوس ، وصمام ، وناقص الذكاء » فقد قبل منه

خمسة طوابع بريد من جواتيمالا ، والآن يستطيع مانيلى أن يكتب ما يريد على حسابه .. وربما لو أضاف طابعا يستطيع أن يتجنب تحوير الكلمات ، وأن يكتب فى طلاقة أنه عبيط ، وذلك مما يجعل صاحبه فى غاية الرضا

وأما الولد الفقير ، فانه لم يعد يبكى بل أخذ يبتسم ، وفى يده مسدس يرش الماء ..

وأقترب أنا ببطء ، وأضع يدى على التلميذ الغنى ، وأراه يكتب :

ـ اننى غنى ، ولذلك فان معى محبرة الجيب .. وزميلى فى المقعد ، ذلك الفقير الذى يدعى فيدريشى ليس معه مثل هـذه المحبرة ، ولكن معه مسدسا ، وهو مسرور به كل السرور .. ذلك المسدس الذى أهديته أنا اليه ، ولكن والدى غنى جدا ، وسيشترى لى مسدسا آخر ..

ويبتسم الجميع ، فكلهم مسرورون الآن !

ولكن لمن يرجع الفضل فى ذلك اذا لم يكن لهذا الوراق العجوز ، ذى القلنسوة التى يضعها على رأسه ، ولا يزال يعد الملاليم ، وانها لملاليم مباركة لأنها منعت مشاجرة عند الخروج من المدرسة ، ولأنها جعلت كريبا تلميذا سعيدا يستطيع أن يكتب موضوع الانشاء ، وسمحت للطفل الفقير بألا يشعر بفقره ما دام يملك فى حوزته مسدسا من القصدير يرش الماء ؟

وأقول : « أسرعوا يا أولاد .. فقد حان موعد التبييض »

ان التبييض عملية شاقة ، ولكنها مسلية على الرغم من أنها تجلب بعض المسئوليات ، وتجعل الأولاد يرتجفون من أجلها : الكتابة بخط جميل دون مسح ودون بقع ..

« سيدى المدرس .. أحدثت بقعة ، هل أكتب من جديد ؟.. أم أستطيع مسحها بالممحاة ؟ »

وكتابة التاريخ ، فالاسم واللقب والقسم والتجميلات الخطية بالحبر الأحمر لو وجد ، وباستعارته اذا لم يوجد ، لأن ذلك لاشك من العمل المرضى ..

جورجو كريبا ـ السنة الرابعة ، « الفسل » الثالث ، بالحبر الأحمر ، فنبدو الانشاء أكثر جمالا ، ويبدو كأن المدرس سيغتفر تلك الغلطة ، ولا يعتبر حرف السين بدل الصاد غلطة فى كلمة فصل اذا ما وجدها مكتوبة بالحبر الأحمر ! »

كم من الأخطاء لا يحسبها المدرس ، ولا ينسبها الى الجهل ، بل الى عدم الانتباه ؟ !

« بالأمس .. ما ان دخلت الفصل ، حتى أخذ المدرس فى تأنيـ .. قائلا : ما معنى تأنيـ .. هذه ؟.. معناها تأنيبى .. معناها أيضا أن الولد عند كتابة تلك الكلمة مرت ذبابة أمامه . انها ذبابة من ذباب الربيع المقبل ، وعندئذ منعته بسبب ما تثيره تلك الحشرات فى الأولاد من جاذبية قوية من كتابة بقية أحرف الكلمة .. ! »

أما المدرسون المسنون ، فانهم يعتبرون ذلك خطأ ، لأنهم نسوا ذبابات طفولتهم .. وعلى العكس من ذلك الشباب من المدرسين الذين كان لهم ذباب فى الماضى القريب !

« بالأمس ماما قالت لى » :

« لماذا ماما بالحروف الكبيرة ؟ ! »

« هى هكذا جميلة ياحضرة المدرس فانها تحبنى كثيرا ... »

هل هى حقيقة غلطة أن تكتب ماما بالحروف الكبيرة .. أو لسنا نحن المخطئين عند كتابتها بالحروف العادية ؟ !

ويضع المدرس علامة حمراء فى منتهى الصغر تحت الكلمة ، علامة صغيرة جدا لأن المدرس نفسه يتمتع بصفة البنوة ويحب أمه ، ولكنه لايزال مدرسا .. وطبقا لقواعد الكتابة (١) « ماما » اسم مؤنث مفرد ليس جديرا بكتابته بالحروف الكبيرة .. ويدق الجرس « دن ــ دن » لقد انتهى اليوم الدراسى ، وعلى من انتهى من كتابة موضوعه أن يسلمه ، ومن لم ينته فليسرع .. واذا وقعت بقع فأهلا وسهلا !

---

(١) الكتابة الايطالية

توجد الأم بالأسفل تنتظر ..

ويوجد الوراق العجوز بجنوده وطوابعه ..

ويوجد الربيع الذى تحاشى مارتينيللى وصفه اليوم فى موضوع الانشاء ، فانصرف لكى يتمتع به على حقيقتــه وطبيعتــه ، ولديه أمل فى اصطيــاد عصفور ، وهو لاشك مخلوق من مخلوقات الله .. نعم هو ذلك الذى يسر بتغريده العجائز والمرضى ، ولهذا يجب ألا يصطاده أحد ، ولكنها أشياء يكتبونها فقط فى موضوعات الانشاء !

بانيستون لورنزو

الجو حار ، وقد أسدلت ستائر النوافذ حتى تحجب جدران البيت المقابل الناصعة البياض ، والتى تتسلط عليه الآن أشعة شمس شهر يونيو، والتلاميذ يتصببون عرقا وهم يحلون مسائل الحساب . والمراقب المنتدب المسن يغالبه النوم وهو على كرسيه ، وعلى الخريطة الجغرافية يتنزه الذباب ببطء ، فقد كانت ذبابة منذ دقيقة مضت فى « فرنسا » .. أما الآن فقد عبرت « المحيط » وأخذت توسخ أمريكا !

« حجرة عرضها خمسة أمتار ، وطولها أربعة أمتار ونصف متر ، مبلطة ببلاط صغير مساحة كل بلاطة منها ديسيمتر مربع ، والذى اشترى الحجرة يريد أن يعرف كم بلاطة توجد فيها .. »

ويسألنى مارتينيللى : « ياحضرة المدرس .. لماذا يريد أن يعرف ؟ »

وأحدث حركة مبهمة ، كأنى أقول له لا أعرف ، وأن أذواق حضرات الذين يضعون المسائل الحسابية غريبة ، ولا تقبل المناقشة .. فأنت تجد فى المسائل الحسابية التى تعطى لتلاميذ المدارس الابتدائية ، أشخاصا أغرب بكثير يودون معرفة عدد بلاط حجرتهم على وجه الدقة ، وآخرين يستفهمون عن النفقات الاجمالية التى يجب أن يدفعوها لطلاء قبة كنيسة « سانتا ماريا دلفيورى » باللون الأبيض ، مع العلم بأن كل متر مربع يتطلب ٢٫٧٥ ليرة قيمة طلاء !

ويكبر الأولاد على أفكار خاطئة ، وهم فى اقتناع ساذج بأن أى انسان ما دام يمتلك نقودا كافية للحصول على الطلاء ، يستطيع أن يعطى اللون

الذى يحلو له لقباب الكنائس الكبرى الرئيسية فى ايطاليا وفى الخارج !

وفى غمرة السكون ، يفزع صوت مارتينيللى المراقب المنتدب المسن الذى استيقظ من توه ويجعله يقف على قدميه ويقول فى صوت متثاقل رتيب تلك الكلمات التى اعتاد أن يكررها فى شهر يونيو ، منذ أربعين عاما ، لتلاميذ السنة الخامسة : « فكروا وتأملوا جيدا قبل أن تكتبوا ، امتحان السنة الخامسة ليس هزلا .. اذ قد تضيع السنة على تلميذ لمجرد سهره وعدم انتباهه . وبعد أن انتهى من كلامه استأنف النوم فجأة ، أما أنا فقد قلت فى نفسى : « ان بلاطة واحدة ، تزيد أو تنقص تكفى لاعادة السنة الخامسة أو للرسوب فى امتحان اثبات المعلومات العامة »

كنت على وشك أن أقول للتلاميذ ذلك ، بيد أنه كان هناك فى آخر الفصل أربعة رجال يجلسون فى مقعد منفصل ، صغير جدا بالنسبة لأجسامهم ، وكان أحدهم تبدو عليه علامات الشيخوخة ، وكانوا قد توقعوا تلك الجملة فنظروا الى مرتاعين . ونهض الشيخ ورفع يده بحركة لم يقم بها منذ خمسين عاما مضت ، وقال :

« حضرة المدرس .. انكم اذا أسقطتمونا فسنفقد وظائفنا ! » ..

ترى كيف امتزج هؤلاء الرجال الأربعة بالتلاميذ ، وكيف جلسوا فى مقاعدهم منكبين على حل المسألة الحسابية الخاصة بذلك السيد العجيب الذى يود احصاء عدد بلاط حجرته ؟

وقد سألنى عن ذلك مارتينيللى فى دهشة وهو يدخل :

« حضرة المدرس .. هل هم أيضا من تلاميذ السنة الخامسة ؟ وهل ذلك الذى شاب شعره ما زال يتحتم عليه أن يحصل على الشهادة الابتدائية ؟ »

وأجبته : « نعم .. يجب أن يأخذوها .. انهم رجال يشتغلون ، أحدهم سائق ترام ، وآخر ساعى بريد ، ولكى يعملوا بهذه الوظائف تطلب منهم الشهادة الابتدائية ، وان لم يحصلوا عليها فسيطردون من وظائفهم »

والتفت مارتينيللى لينظر اليهم مرة أخرى ، ثم قال لى بصوت خافت حتى لايسمعه الآخرون : « ساعدهم ياحضرة المدرس .. ان ذلك الذى

شاب شعره يبدو لى كأنه والدى ! » . ويغط المدرس المراقب المسن فى نومه ، وتصطدم جبهته كل لحظة بالمقعد .. أما الأولاد فما زالوا يتصببون عرقا ، ويعكفون على احصاء البلاط ، بينما يبكى السائق العجوز هناك ، واقتربت منه وقلت له : « لا تنزعج » وأخذت أمليه بصوت خافت حل المسألة !

لم يكن من أجل هؤلاء الرجال امتحان الشهادة الابتـدائية ، ولكنه بالنسبة لهم يسمى امتحان « اثبات معلومات عامة » : مسألة حسابية ، امتحان تحريرى بسيط فى اللغة الايطاليـة ، وبعض الأسئلة البسيطة فى التاريخ والجغرافيا والعلوم الطبيعية .. ولعدم اضاعة الوقت وُضِعوا فى فصل واحد مع الأطفال ، وفى يوم واحد ينتهى الامتحان !

وقلت للسائق : « الآن اترك أصدقاءك ينقلون منك ، ثم يأتى دور الامتحان الشفوى »

وفى هذا الامتحان الشفوى جلست على الكرسى بجانب المراقب المسن الذى يستيقظ ، ويرى أن الرجال الأربعة فى الجانب الآخر قد انتهوا من حل المسألة ، وينظر الى فى ريبة لأن المدرسين الشبان هم كالأولاد دائما شفقاء ورحماء ، وعندما يرون رجلا أشيب الشعر يفكرون فى والدهم !

ويقول : « من يمتحنهم ؟ »

وأرغب فى أن أقول له : « أنا » لأنى أخشى أن يكون قاسيا معهم ، ولكنى ما زلت شابا لا يجوز لى القيام بتدبير الأمور .. سيسألهم هو !

ها هو ذا السائق العجوز يقترب من الكرسى ، ويسلم ورقته التى حل فيها المسألة الحسابية ، ويسأله الأستاذ المراقب :

ـ ما اسمك ؟

ـ باتيستون لورنزو

ـ ماذا تعمل ؟

ـ سائق ترام .. وانى اذا لم أنل الشـهادة الابتدائية فسأفصـل من الوظيفة

ــ متى توفى كافور ؟ (١)

وانه لمن الصعب على سائقى الترام أن يعرفوا متى مات كافور ، انهم غالبا ما يجهلونه .. ولكن رغم ذلك فهم يقودون عرباتهم على أحسن وجه دون أن يصيبوا أحدا !

أما بالنسبة للأستاذ المراقب ، فانه يبدو له العكس .. لايستطيعون أن يكونوا سائقين مهرة دون معرفة هذا التاريخ المهم !

ــ انه توفى .. توفى ..؟ !

وأرى بفزع أن ذلك المسكين لا يعرف تاريخ وفاته فحسب ، بل انه أبدى دهشة بالغة عندما علم من المدرس نبأ وفاة ذلك الوزير العظيم !

وبذلت مجهودا مضنيا لتلقينه ، ولكن اذا كان من المستطاع تلقينه رقما أو رقمين أو ثلاثة .. فكيف يمكن تلقينه باختصار احدى وستين وثمانمائة وألف ؟ !

آه !.. لو كان كافور قد مات بعد ميلاد المسيح بقليل ، ربما كان رقما صغيرا مختصرا ..

« أراك لا تعرف شيئا عن كافور ، انه توفى سنة ١٨٦١ .. ما الذى قاله عند وفاته ؟ »

لو كان التوظف الخاص بموظفى الترام يتوقف على الأستاذ المراقب ، فانى أعتقد أن الناس سيجرون فى مجموعات هائلة لا لنقلهم من مكان لآخر فحسب .. ولكن بوجه خاص للتمتع والاستفادة من المناقشات « المثقفة » البارعة التى تدور بين السائق و « الكمسارى »

ــ سيدى الأستاذ .. أنا لا أعرف ماذا قال عند وفاته ، فربما كان يقول : « وداعا يا أولادى .. »

ــ انه قال : « كنيسة حرة فى دولة حرة .. » والآن لننتقل الى الجغرافيا ويتلفت الأستاذ حوله وهو راض بتلك الجملة الجميلة ، وبثقافته الخاصة !

(١) أحد وزراء ايطاليا السابقين ، وكان رئيسا للوزارة سنة ١٨٥٢م ، وهو الذى عمل على تحقيق وحدة ايطاليا مع فكتور ايمانويل وغاريبالدى

لكن الأولاد لا يكترثون لهذه المباهاة بالتواريخ والجمل ، وقد تركوا نصف حل المسألة ، وأخذوا ينظرون بأعين محملقة متأملين من ذلك المدرس السيىء القاسى الذى يود معرفة أشياء صعبة وغامضة من سائق ترام مسن، يعرف ولا شك أن هناك وزيرا كبيرا يسمى كاميللو كافور ، ويحترمه من صميم قلبه ، وربما يذكر ـ لأنه رأى بعض صوره ـ أنه كانت له لحية عجيبة على شكل طوق يمتد تحت زوره ولا شىء غير ذلك .. وفى مقابل هذا فانه يعرف أشياء أخرى كثيرة قد لايعرفها الأستاذ .. فانه يعرف كيف يقود الترام ، وكيف يوقفه عند نزوله فى منحدر ، وهو الذى يعلق فى الأعياد الوطنية الأعلام فوق قمة العربة ، وجميع هذه الأشياء هى التى يُقدِّرها الأولاد أكثر من أن يقدروا تلك الجمل المختصرة التى نطقها كافور عند وفاته !..

آه .. لو كان من المستطاع لمس الراية الموجودة فوق الترام فى أيام الأعياد الوطنية .. ذلك هو حلم الأولاد . وكثيرون منهم أولئك الذين ليس آباؤهم من الأغنياء ، يعرفون أنهم عند الكبر سيعملون سائقى ترام .. وعندما يعبرون الطريق ويرون العربات وهى تسير يفكرون « اننى أنا أيضا سأصبح هناك يوما ما ، وسأرتدى البيريه ذا الرقم ، وسأضع رقما ذهبيا فوق الياقة .. »

ان النحاس الأحمر فى نظر الأولاد هو الذهب ، وسائق الترام ذى الأعلام هو أشبه ما يكون بقبطان سفينة كبيرة فى وسط البحر مزينة بأعلام العيد . ومن ثم ، فانهم لذلك يتشيعون للسائق الذين يقدرونه حق التقدير ، وينظرون شزرا الى ذلك المدرس الذى يتلهف الآن الى امتحان السائق فى الجغرافيا !

وكانت الأمور ـ بالنسبة للسائق ـ تسير من سيىء الى أسوأ .. وينظر الى ـ لأنه يعرف أننى أرغب فى مساعدته ـ وأفهم أنه يسألنى : « هل سأرسب ؟ »

وأسأله : « هل عندك أولاد ؟ »

فيجيب : « اربعة »

ويقول المراقب : « انى أفهم ذلك .. ولكن الامتحان هو الامتحان ، واذا أجبتنى فى الجغرافيا كما أجبتنى فى التاريخ ... »

مسكين ذلك السائق .. جلس أمام كرسى الأستاذ كأنه تلميذ صغير ، وتصورته فى هذه اللحظة شيخا مسنا على حقيقته ، ذا مريلة زرقاء طويلة مثل الأطفال ، وقد كتب عليها فوق الصدر بخيط أبيض «باتيستون لورنزو» ووددت لو جذبته بيد واحدة وقلت له : « تشجع .. تشجع ياباتيستون لا تبك ، لا تخف ، فليس المدرس قاسيا كما تعتقد ، تشجع ، تشجع يا باتيستون ، ارفع شعرك ، ألا ترى أنه قد نزل فوق عينيك ، وأن منظرك قد أصبح قبيحا ، وان زملاءك يسخرون منك ؟ »

ولكن تلك اليد كانت مجعدة ، وذلك الشعر أبيض .. مسكين هذا الرجل .. انه يرتعد ، وهو فى سن والدى ..

وأقول : « فلنسأله سؤالا سهلا فى الجغرافيا .. »

لكن يا للخسارة ، ان الأستاذ المراقب يريد أن يرى اذا كان يعرف ما هى عاصمة ليختينشتاين ..

وسأله ذلك السؤال ، وأردت أن ألقنه الجواب .. لكن حتى فى هذه المرة لا أستطيع ، ومهما أقدح زناد فكرى فانى لا أتذكر عاصمة ليختينشتاين ..!

ويفكر باتيستون لورنزو لا فى عاصمة تلك البلدة ـ فانه لايعرفها ـ وانما يفكر فى وظيفته التى سيفقدها ، ولا يجيب بشىء ، ويظل صامتا مطأطئا رأسه ، وقد نزل شعره على عينيه حيث كانت تترقرق منهما دمعة مثل الطلبة الصغار الذين لم يستذكروا دروسهم ، ويخجل من نفسه ومن أن يقف هذا الموقف أمام الأولاد ، وهو لا يعرف أن أولئك التلاميذ يحبونه ، وأنهم قد فتحوا جميعا كتب الجغرافيا ـ دون استثناء ـ يحاولون تلقينه :

« فا ... فا ... »

ولكنهم يجهلون نطق هذه الكلمة الغريبة ، وأعاد الأستاذ المراقب سائق الترام الى مكانه ، بعد أن لفظ بنطق صحيح وبصوت عال : « انها فادوتز » قائلا :

ـ والآن لكى نبت فى أمرك ستتكون لجنة !

وستتكون اللجنة منه ومنى ..

ثم قال : « ماذا نفعل يا زميلى العزيز ؟.. ان الحالة خطرة .. لنكن متسامحين ، لكن للتسامح حدودا .. »

وأجبته : « فلنسأل أولا الآخرين ، ثم نرى اذا كانت الحالة تستدعى أن نوجه له أسئلة أخرى .. »

كنت أحاول أن أكسب بعض الوقت لأن لدى أملا ، أملا كبيرا .. وأنظر الى السائق الذى عاد الى مكانه والذى حشر نفسه بجهد فى ذلك المقعد المخصص للأولاد ..

« ربما أنجح فى انقاذك يا باتيستون .. »

الجو حار ، والأولاد يعرقون من المسألة الحسابية المخيفة ، وقد نسوا الآن السائق العجوز ، ورتبوا احصاء فوق الآخر لكى يرضوا ذلك المدرس الغريب الذى يطلب عدد بلاط حجرته بالضبط ، والذباب ما زال يقوم ببطء برحلاته ، التى تفوق التصور، عبر المحيطات ، وستائر النوافذ تحجب تماما حائط المنزل المواجه الشديد البياض ، ومع ذلك ينفذ شعاع من الضوء الذى يعشى العين ، وتغمض عينا المراقب رويدا رويدا .. واذا ما تكلم ولد ، أو سمع صرير ريشة أو وقعت محبرة استيقظ هذا الرجل ، بينما يجب ألا يستيقظ .. يجب ألا يستيقظ يا أولاد اذا أردتم أن ينقذ السائق العجوز !.. والأولاد لايتكلمون أبدا ، ولا توجد قط ريشة أكثر صمتا من ريشتهم ، وأقرأ الوعد فى أعينهم عندما قالوا : « حضرة المدرس لن تقع المحابر .. » وأترك مقعدى ماشيا على أطراف قدمى ، وأقترب من « درج » الرجال الأربعة الفزعين من كلمة كافور الأخيرة ، ومن اسم تلك العاصمة الغريبة التى لا يمكن نطق اسمها .. سأسألكم أنا .. أجيبوا

بصـوت منخفض .. « انت ما اسمك ؟ »
ـ مارينى أدلبرتو ، ساع بالبلدية
ـ حسنا ..
واستطردت بصوت منخفض : « أين توجد كنيسة القديس بطرس ؟ »
ـ فى روما ..
ـ أين يوجد المولى أنتونيليانا ؟.. أليس لك أصدقاء فى تورينو ؟
ـ نعم توجد أختى
ـ ألم ترسـل لك بطاقة مصورة بها منظر المدينة ، ويرى فوق كل القصور شيء مرتفع .. ؟
ـ نعم .. نعم أرسلتها لى
ـ حسن .. تلك هى كنيسة المولى أنتونيليانا « برافو » انك قوى فى الجغرافيا .. لننتقل الى التاريخ .. ماذا قال كافور قبل وفاته ؟..
قال : « كنيسة حرة فى دولة حرة »
ـ حسن .. لكن تكلم بصوت منخفض
وأسأل بسرعة الاثنين الآخرين ، وأسأل الثالث ، وهو رجل أصـلع الرأس يلبس النظارات : « من كان غاريبالدى ؟ »
ـ رجل محارب ، ذو رداء فضفاض وسيف ، وهو الذى احتل صقلية على فرسه ..
ـ هل تحب غاريبالدى ؟
ـ نعم أحبه لأن جدى كان معه ، وكان من أنصـاره ، وكان يرتدى القميص الأحمر ويعلق الأوسمة

المهم أن الناس يحبون غاريبالدى ، وهناك من لايعرفون على وجـه الدقة تاريخ مولده ، وتاريخ وفاته ، وتواريخ معاركه . وبعد كل ذلك يقولون فى سخرية :

« انها فى الواقع لم تكن حروبا ، لم تكن الا مناوشات بسيطة ، بضع طلقات نارية ، وبعض القتلى .. »

ان هذا الرجل القصير ذا النظارات أحسن من سابقيه ، وأحسن بكثير، فأنه يقول ببساطة انه يحبه ، وانه كان يرتدى معطفا فضفاضا ، ويمسك سيفا ..

والآن لم يبق الا باتيستون ..

وسألت : « ماذا تعرف يا باتيستون ؟.. »

وتجهم وجه باتيستون العجوز كالأطفال ، ولم يرد الاجابة ، وأدار رأسه الى الناحية الأخرى ، فقلت له :

ـ باتيستون ، لا تركب رأسك وأجبنى قبل أن يستيقظ الأستاذ : « ماذا تعرف عن الوطن ؟.. ما هو الوطن ؟.. »

وأجاب باتيستون : « انه الأرض التى ولدنا بها ».

كان دائما متجها برأسه الى الناحية الأخرى ، ثم استطرد قائلا : «حيث ولد والداى ، وحيث ولد أبنائى الأربعة ... »

ـ برافو باتيستون !

ثم قال : «وأنا مستعد لأن أهب حياتى فداء للوطن.. ياحضرة المدرس ورغم أنى رجل مسن ، فما زالت هذه الأيدى فى حالة جيدة .. »

تلك اليد التى كنت أريد أن أقوده بها ، كما نفعل مع الأطفال

ـ هذا امتحان التاريخ يا باتيستون ، لقد أجبت عن أسئلته جيدا .. والآن فلننتقل الى الجغرافيا .. ما هى المدن التى زرتها غير روما ؟

ـ ترتتو .. كانت مدينة جميلة ومملوءة بالأعلام ، وكان الناس يقذفوننا بالزهور ، دخلتها فى سنة ١٩١٨ وكنت متطوعا ، هذا التاريخ أعرفه ياحضرة المدرس دون أن أستذكره ، ولقد أعطونى وظيفة سائق ترام لأننى اشتركت فى الحرب . والآن لأننى أجهل تاريخ وفاة كافور هل أطرد من الوظيفة ؟..

ـ لا .. لا يا باتيستون ، أنت ناجح وأصدقاؤك أيضا ناجحون ، والآن انصرفوا وعودوا فى الصباح الباكر لاستلام الشهادة

ـ « ولكن الأستاذ المراقب » ...

قلت : « انصرفوا قبل أن يستيقظ وسأتحدث معه أنا ، أما أنتم فقد نجحتم »

ويخرجون على أطراف أقدامهم ، ويمرون أمام كرسى المراقب دون أن يتنفسوا .. !

ـ مع السلامة يا باتيستون

فيقول : « حضرة المدرس .. »

ويأخذ يدى يريد أن يقبلها ، ولكننى أنا الذى أريد أن أقبل يده ، وينتهي الأمر بأن أطرده خارج الممر ، وأدفعه الى السلم

وقال : « حضرة المدرس .. »

قلت : « انصرف والا أيقظت المراقب .. »

ويهربون على السلم شاحبى الوجوه مثل الأطفال الصغار المفزوعين من اسم ذلك الغول ، وفى آخر السلم يقف باتيستون مرة أخرى ، ويحييني مرة ثانية بيده قائلا :

ـ حضرة المدرس أتعشم أن تركب مرة معى فى ترامى ..

ثم لا أراه بعد ذلك ..

وأرجع الى الفصل ، فأجد المراقب قد استيقظ ، وأقول له :

ـ زميلى العزيز .. لم أرد أن أزعجك ، وقد سألتهم أنا وكلهم ناجحون !

ـ حتى هذا الباتيستون ؟ !

ـ حتى هو .. فانه لم يجب على أسئلته لأنه كان مضطربا ، ثم استعاد نشاطه ، ووجدته مثقفا جدا .. انه رأى أشياء لا أنا ولا أنت رأيناها ..

وينظر الأستاذ المراقب الى وجهى متفرسا ، ولكنى لا أخفض عينى ..

والآن وقد أوشك الأطفال على الانتهاء من هذه المسألة وتسليمها ، وهم سعداء لمعرفتهم أخيرا العدد المضبوط لبلاط تلك الحجرة ، ويتكلمون ، ويضحكون ، ويسقطون المحابر بعد هذا السكون !

ـ زميلى العزيز .. هل تسمح بتوقيع الشهادات ؟

ويوقعها كلها ، وآخرها شهادة باتيستون .. ولكنه يوقع عليها على مضض !

وفكر : « آه لو لم أنم .. »

وأنا أيضا كنت أفكر نفس التفكير ، ولكن بروح أخرى .. وأشكر الله لذلك الحر وتلك الشمس التى تسطع على جدران البيت المقابل الناصعة البياض ، ولهذا الشعاع الذى أغمض عينى ذلك المراقب المسن ، مما أنقذ باتيستون لورنزو !

الفصل السادس

الحديقة المسحورة!

اليوم السبت .. وقد آن وقت انصراف التلاميذ ـ بعد ستة أيام قضوها فى المدرسة يترقبون يوم الأحد ـ ولو أنهم قيدوا بالسلاسل ما استطاع المرء أن يجعلهم مستقرين فى مقاعدهم .. هم متعبون ، ويظهرون تعبهم على طريقتهم الخاصة : يقفون ثم يجلسون ، ثم يعودون ثانية للقيام ، كالماء عندما يغلى ـ ترتفع فقاعات الهواء عاليا ، ثم تعود الى أسفل لترتفع من جديد ـ ويسدد أحد التلاميذ لكزة بكوعه الى جنب جاره ، فيرد عليه الآخر بركلة ، ويبدأ تلميذ فى الغناء .. وبنظرة قاسية من المدرس يحمر وجهه خجلا ، ويتبدل غناؤه خوارا مبهما يضحك منه رفاقه . ويستأنف آخر تلك الأغنية نفسها دون أن يراه أحد ، ويتكلم الجميع وتسمع الأصوات الحادة الصادرة من الصغار الجالسين فى المقاعد الأولى ، والأصوات الغليظة التى تقرب من أصوات الرجال ، من التلاميذ الراسبين الذين يجلسون فى المقاعد الأخيرة . وفجأة يصدر صوت باك يقول :

ـ ياسيدى المدرس ، لقد لكمنى فيدريتشى .. !

ويقول المدرس : « سكون .. سكون ! » .. وقد أنهكه التعب بعد ستة أيام قضاها فى التدريس .. ولو أن هذا حدث فى يوم الاثنين بدلا من يوم السبت ، فانه كان بلا شك يوجه كلمات اللوم القاسية الى فيدريتشى ، وربما عرك أذنه بأصابعه ، أو وضعه فى زاوية الفصل خلف السبورة عقابا له .. ولكن ما حدث كان العكس من ذلك ، فقد كان يوم السبت ـ وهو آخر أيام الأسبوع ـ ولذلك اكتفى المدرس بأن صاح :

« فيدريتشى ..يافيدريتشى » .. دون اقتناع ، وبصوت أراد المدرس أن يضمنه معانى اللوم ، ولكنه لم يكن كذلك .. ويشير اليه بابهامه ، ولكن الاشارة بالابهام فى مثل هذا اليوم لا تخيف ..

وأخيرا .. آن وقت الخروج .. وانه ليعتبر هروبا أكثر منه خروجا من المدرسة ، ويمر الأطفال راكضين أمام المديرة ، ويلقون اليها بآخر تحية فى الأسبوع منطلقين الى خارج المدخل ، كأنهم قذفوا من الباب ، وانتثر عقدهم على شكل مروحة . ويخرجون مسرعين يقذفون بحقائبهم فى الهواء ليلقفوها ثانية فى مرح ونشوة ، باستقبال أيام العطلة .. حيث الشمس والمراعى ، والزهور ، والألعاب التى كانوا يحلمون بها طوال الأيام الستة الماضية ، وزيارة احدى الأسر الصديقة التى تقطن بعيدا ، فى منزل به حديقة ، وحيث يذهبون بصاحبة آبائهم وأمهاتهم مرتدين ملابس البحرية وسراويل ليست بالطويلة ولا بالقصيرة ، على صدرها « كردون » ، وفى جيبها العلوى الأيسر صفارة !

وقد كنا نحن أيضا أطفالا .. أفلا تذكرون يوم الأحد ، عندما كان يصطحبنا كل من والدنا ووالدتنا لزيارة احدى الأسر الصديقة ، حيث يوجد أطفال آخرون فى نفس أعمارنا .. وبينما يتحدث الوالدان عن الأجور ، وتكاليف الحياة ، والخدم الذين يرتكبون الأخطاء ، كنا نقضى فى الحديقة أوقات العصر — من تلك الأيام — وكأنها من الربيع وهى فى الحقيقة غير ذلك .. كنا نشعر أن الزهور على وشك التفتح ، ولكنها لم تتفتح بعد ، ونبحث عن الفراشات ، ولكن لم يحن بعد أوان ظهورها .. وكنا نلعب .. على أننا لا نذكر الألعاب التى كنا نقوم بها ، كما لا نذكر أيضا أصدقاءنا فى اللعب

لقد كانت حديقة ، لو رجعنا اليها اليوم لبدت صغيرة . ولكنها كانت على أية حال حديقة .. كان هناك أربعة أصص بها نباتات تبدو لنا وكأنها أشجار ضخمة ، وممشى صغير به قليل من الحصى الذى يتناقص عدده كل يوم من أيام الآحاد ومقعد من الحجر ، ونافورة صغيرة كنا نضغط على

« زرها » فينسكب منها الماء ويتناثر حتى يبلل جميع أحذيتنا . والويل لنا لو رأونا ونحن نضغط على « الزر » لقد كان هذا شيئا ممنوعا ، وكنا نحن الأطفال ندور حول النافورة والبنات يرقبننا خائفات ومعجبات .. كنا نضغط على « زر » النافورة لحظة ثم نتركه ثانية ونجرى وقلوبنا تدق دقا عنيفا !

ـ هل تكون والدتى قد رأتنى ؟

كانت الشمس ساطعة ، ولكنها شمس فبراير أو مارس التى كانت تسبب المرض .. وكنا نجلس على المقاعد الحجرية ونحن مصطفون : طفل وطفلة ، وبعضنا ممسك بيد الآخر ، ونمكث على هذه الحال مدة طويلة دون أن نتحدث ، ونحن ننظر عبر السور الحديدى الى حديقة منزل آخر ، وأطفال آخرين يجلسون على مقاعد حجرية أخرى وهم بدورهم يرقبوننا فى صمت

وكانوا يبدون لنا ـ على بعد كبير ـ كما لو كانوا فى عالم آخر ، فلم يخطر لنا ببال أن نوجه اليهم أى كلام ، أو أن نلمس بأصابعنا السور الحديدى الذى كان يفصل بيننا وبينهم

وكان الآباء ، من وقت لآخر ، يأتون لرؤيتنا ويقولون :

ـ ألا تلعبون ؟.. لا تجلسوا ساكنين فى الشمس .. ان هذا يؤذيكم

وكانت أمى تأتى الـىّ ، وتمسك بشعرى تتحسسه لترى اذا ماكان ساخنا

ـ هل نلعب ؟

نعم لنلعب .. ولكن الربيع لم يكن قد آن اذ ذاك ، وفى الوقت نفسه كان يحلو لنا أن نظل منفردين نحن الأطفال دون والدينا .. كان ضـوء النهار لايزال فى الحديقة ساطعا . أما فى الحجرة حيث كان الآباء يتحدثون ، فان الظلام كان قد بدأ فى الانتشار .. وكانوا لايضيئون النور رغبة فى الاقتصاد

ـ ما اسمك ؟..

هكذا كنت أسائل طفلة فى سنى لها شعر أشــقر ، وجـدائله مربوطة بشريط ..

فتجيب : « اســمى ماريا ــ بالسنة الرابعة ــ وقد حصلت على تسع درجات فى الانشاء أمس ! »

فأجبتها قائلا : « وأنا أيضا بالسنة الرابعة ، ومعلمى رجل طيب .. »

وكان كل منا ينظر الى عينى الآخر مدة طويلة دون خجل ، لأنه لم يكن هناك أى ظل فى قلوبنا

ــ ألا تريدين أن تكونى حصانى ؟

فوافقت ماريا ، وتركت لى ربط اللجام بكل رزانة ، وأخذنا نجرى حول تلك الأصص الأربعة .. وكانت هى أطول منى قامة لأن البنات فى مثل تلك السن يكن فى الغالب أطول من الذكور ، يرتدين أردية قصيرة ولهن سيقان طويلة نحيلة ، ويركضن بكل رزانة ولكنهن سرعان ما يتعبن . وكانت ماريا تتوقف لتجلس ثانية على المقعد الحجرى ، وما يزال اللجام ملقى على ظهرها ..

وكنت أسألها : « ألا تجرين ثانية ؟ »

فلم تجب .. وبدأت تحدثنى عن نفسها ، وعن المدرسة التى كانت طيبة جدا مثل معلمى ، ولكنها كانت فى بعض الأحيان تغضب .. وعندئذ تضرب بعض التلاميذ

ــ هل يجعلكم المدرس تنشدون صلاة الصباح ؟

وأجبتها : « لا .. نحن معشر الصبية لا نصلى ! »

وكانت هذه هى الكذبة الأولى .. !

ورمقتنى الطفلة بخوف واضطراب ، بينما الآخرون يجرون ويلعبون لعبة الحرب ..

وكان هناك طفل أصغر منا ــ بالسنة الثالثة ــ قد وقع أسيرا ، ولكنه كان يقول : « لا .. لا أريد ذلك » وكان قائد الأعداء يحاول اقناعه دون جدوى ..

ـ لقد أسرناك !

ـ لا .. لا يصح .. لقد كان يجب أن تجردونى من سيفى ، ولكننى ـ على العكس من ذلك ـ لا أزال متقلدا سيفى !

وكان سيفا من الخشب ، ربط مقبضه بقطعة من « الدوبار » . وكان أطفال الحديقة الأخرى يرقبوننا فى صمت وحقد .. فصحت :

ـ الحرب .. الحرب

وهرولت تاركا الطفلة جالسة على المقعد .. وحصلت بسهولة على رتبة المقدم وانها لترقية سريعة ..

وخلال بضع دقائق ، كان قائدى قد اضطرته أمه الى الجلوس ليستريح فى الشمس لأن العرق كان قد تصبب منه ، فأخذت مكانه وسرنى أن الطفلة قد رأتنى قائدا !

والعدو مختبىء فى الغابة ـ التى تتكون من الأصص المزروعة ـ وكان ينتظر .. فصحت قائلا : « سافويا .. سافويا .. سافويا » (١) وقذفنا بأنفسنا مهاجمين .. هكذا صاح أحد جنود الأعداء :

« السلم .. السلم .. ان الدم ينزف من أنفى » . وكان الدم يسيل من أنف أحد الأعداء حقا وجرى نحونا الآباء .. وانتهت المعركة التى أكسبتنى مجدا عظيما !

وعدت الى المقعد الحجرى ، ومظهرى يدل كما لو كنت جنديا عائدا من الميدان ..

ـ هل يتصبب العرق منك ؟

فأجبت : « وما أهمية ذلك ؟ »

ـ هل آذوك ؟

وكان بيدى جرح صغير عليه نقطة من الدم كانت قد جفت ..

ـ هل أضمدك ؟..

وربطت منديلا حول يدى ..

---

(١) سافويا هو اسم الأسرة المالكة السابقة فى ايطاليا

وسألتها : « عندما تكبرين .. هل ستكونين ممرضة ؟ »
فأجابت : « ربما .. لا أعرف .. انى لا أود أن أصير كبيرة »
وكانت الشمس على وشك الغروب .. وكانت تبدو ظلالنا طويلة جدا .. كما كانت الحجرة التى يتحدث فيها آباؤنا لا تزال مظلمة ..
واستطردت : « اننى اذا أصبحت كبيرة ، أصبحت أمى عجوزا .. وحين يصير المرء عجوزا .. يموت ! »
ـ هل رأيت الموتى ؟
فلم تجب .. ولم أوجه اليها سؤالا آخر ، وكان الآخرون ساكنين يلعبون فى هدوء .. بالتراب ، وكان ترابا باردا ، رطبا ، لم تدفئه حرارة الشمس بعد ..
وكان المقعد أيضا باردا .. وعطست ، ولكنى كتمت تلك العطسة بيدى حتى لا تسمعها أمى ، وتأخذنى الى المنزل !
أما طفل السنة الثالثة الذى لم يرض أن يكون سجينا ، فانه اقترب وأرانا حشرة الـ « كوتشينللا » (١) ، وكان يتركها تسير على ظهر يده .. وكانت حمراء بها سبع نقط سوداء .. وبدأ المساء يقترب والظلام يخيم ..
وعندئذ قالت ماريا : « انها مادونيللا » (٢)
فاستطرد ولد السنة الثالثة مصححا كلام ماريا : « لا .. بل انها كوتشينللا »
وقلت بدورى : « انها مادونيللا .. ألاتهديها الى ؟ »
فقال : « ابحث لك عن واحدة أخرى .. أما هذه فانى سأقدمها للمدرس حتى يشرحها لنا ، ثم يضعها فى المتحف .. لقد عثر جوليو على الزناد (٣) »
ـ أحقا ما تقول ؟..
فقال جوليو : « انه كان فى وسط الحصى »

---

(١) كوتشينللا : هو الاسم العلمى الذى يطلق على الحشرة المعروفة باسم « أبو العيد »
(٢) مادونيللا : هو الاسم العامى الذى يطلق على الحشرة المعروفة باسم أبو العيد
(٣) الزناد : هو الحجر النارى الذى يستخدم لاحداث الشرارة النارية بالاحتكاك

وكان جوليو هذا طفلا فى السنة الرابعة مثلنا ، واستطرد قائلا : « اننى أقدح منه شررا فى المنزل »

وبعد أن أراه لنا لحظة ــ دون أن يسمح لنا بلمسه ــ رجع مع طفل السنة الثالثة الى اللعب بالتراب !

كانا يشيدان قصورا ، وبراكين .. بل « فيزوفات » (١) .. على حد تعبير الأطفال

وظللنا منفردين ، أنا وماريا ، وكل منا يمسك بيد الآخر ..

وأضيء نور الحجرة حيث كان الآباء والأمهات ..

ــ ان المادونيللا تسير على اليد دون أن يحس بها أحد

ــ ألا تعودين الى هنا يوم الأحد ؟

ــ لا أعرف .. ربما تصحبنى أمى الى هنا .. وأنت ؟

ــ وأنا أيضا لا أعرف

وكنت أشعر بشيء لا أعرف ماهيتــه .. وكان كل منا ينظر الى الآخر نظرة جدية ، بينما كان الأطفال يسيرون فى صمت بجانبنا ، فقد أظلمت الدنيا ولا يرون الا بصعوبة .. وكانوا يقومون بلعبة لا أعرف أية لعبة هى ..

ــ هل أنت خائف لبقائك هنــا ليلا ؟.. ها هو ذا نجم قد ظهر .. ألا تراه ؟

ــ ومن الذى يضيئه ؟

ــ انه الله .. لقد أخبرتنى زميلة أنها فى ذات مرة صعدت فوق جبــل عال .. عال جدا ، حيث يمكن ملامسة النجوم منه

ــ ألا تحرق هذه النجوم ؟

ــ لا .. لأن نورها ليس كنور الشمعة .. واذا نظرت الى النجوم .. ونظرت الى عينى فانك سوف تراها أيضا .. »

ورفعت رأسها ونظرت الى النجوم ..

---

(١) فيزوف : هو البركان الايطالى المشهور بمدينة نابولى

ـ أنظر الى عينى

وكان يرى بريقا بداخلهما ..

ـ حتى فى عينىّ .. ترى أيضا ؟

ونظرت الى عينى ، ثم قالت : « نجوم عديدة جدا .. ولكنها تختفى عندما تغمضهما .. فلنبق هكذا فترة من الزمن ، وعيوننا مفتوحة لنملأها بالنجوم .. »

وبدأنا النظر الى النجوم .. وكل منا ممسك بيد الآخر ، وقلبانا ممتلئان بالنور .. ذلك النور الذى نبحث عنه عبثا عندما نكبر .. لقد انتهى السحر !

ـ ياماريا .. يانانى .. أين أنتما ؟.. لقد تأخر الوقت

وحضرت الأمهات ..

ـ ان أيديكما قد بردت .. هيا الى المنزل .. الى المنزل

ولم تتمكن ـ حتى ـ من تبادل التحية أنا وماريا ، فقد جذبتنى أمى الى ناحية ، وجذبتها أمها الى ناحية أخرى .. فلم ينتبه فرد ، ولم يدرك أحد ان لدينا نجوما عديدة فى عيوننا ونورا عظيما فى قلبينا ..

ففى هذه الحديقة ، خلق عالم كان يبدو لنا أننا عشنا فيه من قبل مدة طويلة .. وكنا نعتقد أنه يجب ألا ينتهى أبدا .. ولكنه للأسف كان صوت واحد ، ونداء واحد ، كافيين لأن يضعا له نهاية !.. شأنه فى ذلك شأن حياة الرجال : يخلقون عالما خاصا بهم ، يملئون أعينهم بأشياء جميلة عديدة ، وتنعم قلوبهم بالآمال ، والأهداف ، دون أن يفكروا فى النهاية .. ولكن يكفى صوت .. ونداء .. ثم وداعا للجميع ، اذ لابد من الذهاب .. والى الأبد ..!

***

اليوم يوم الاثنين .. يوم العودة الى المدرسة ، والمدرس نشيط ؛ مستريح ، ملىء بالحيوية ، والأولاد ساكنون ، هادئون ، ثابتون فى

مقاعدهم .. لا يتكلم منهم أحد .. ففى يوم الاثنين يكون التدريس ممتعا لا تعب فيه ..

ـ هل استذكرتم ؟

ـ ليس كثيرا فى الحقيقة ..

ـ أنت ياجوردانى ، أين قضيت يوم أمس ؟

لقد كان المدرس مدفوعا بحب الاطلاع لمعرفة أين قضى تلاميذه العطلة .. وفكر فى تلك الحديقة التى رآها منذ سنوات عديدة عندما كان تلميذا .. وتخيل ماريا وذلك التلميذ السخيف الذى كان بالسنة الثالثة .. ثم سأل : « انت ياجوردانى ، أين كنت بالأمس ؟ »

وتقدم جوردانى الى الأمام ـ دون أن يجيب ـ وأرانى بعض أشياء كانت فى يده

بعض أشياء تتحرك .. حمراء لها سبع نقط صغيرة سوداء ..

وقلت : « انها كوتشينللا »

فصحح جوردانى : « لا .. بل انها (مادونيللا) »

هذا يدل على التقدم فى العمر .. فتلك الحشرة التى كنا نسميها « مادونيللا » نسميها الآن باسمها الحقيقى .. ومهما كان هذا الاسم الأخير ، فانه أقل جمالا بكثير ..

ـ لقد أمسكت بها فى حديقة ما حيث كنت مع والدى ووالدتى .. وكان هناك أطفال عديدون .. وكان هناك أيضا « مارتينيللى » الذى عثر على زند

ـ أين الزناد ؟..

ـ ها هو ذا ..

قالها مارتينيللى الذى كان قد كسر عشرا من أسنان الأقلام لاحداث شرارة واحدة ، ثم استطرد : « لقد عثرت عليه بين الحصى فى طريق صغير حيث كنا نبنى القصور و « الفيزوفات »

يجب علىّ أن أصحح كلمته الأخيرة وأقول له : « انها تسمى براكين

ولكنى سأقول له ذلك مرة أخرى .. فيما بعد .. ان أمامنا أربعة أشهر باقية على نهاية العام الدراسى .. »

ــ ولقد لعبنا لعبة الحرب فى داخل الغابة حيث كان يختبىء الأعداء ما زالت تلك الحشرات .. والزناد .. والأطفال دائما هم الأطفال .. كما كان الحال من سنوات بعيدة ..

وودت لو أعرف اذا كانت هناك الآن طفلة نحيلة تقوم بعمل الممرضة !

فقال مارتينيللى : « نعم توجد .. لقد ضمدت قائدا مجروحا .. انها طفلة فى السنة الرابعة .. تقول ان شرارات الزناد تطير عالية فى السماء .. وتمكث هناك ثم تصبح نجوما ! »

ــ وأين القائد الجريح ؟

ــ اننا لا نعرفه .. ليس صديقنا ، ولكنه طفل فى مدرسة أخرى .. وانى لأراهن ان هذا الطفل الآن لايزال المنديل مربوطا حول يده ــ كما حدث لى ــ اذ تركت المنديل خمسة أيام أو ستة ، وكان الجرح قد شفى من مدة طويلة .. كان هذا المنديل ذكرى تلك الليلة ، وتلك الحديقة التى لايمكننى أن أعرف اذا كانت والدتى ستقودنى مرة أخرى اليها أم لا .. وفى الحقيقة انها لم تأخذنى اليها مرة ثانية ..

وصمت برهة ، ثم قال :

ــ هل حقا ياسيدى المدرس ما تقوله الطفــلة من أن شرارات الزناد تطير عالية فى السماء وتصبح نجوما ؟

كم كنت أود ألا أجيب وأن أتظاهر بعدم الفهم .. ولكن مارتينيللى ألح فى السؤال ، فقلت : « لا .. ليس حقا ، هذه الشرارات قطع صغيرة جدا من النار التى انفصلت من الزناد .. وسرعان ما تأكلها النيران

اننى مدرس ، ومن واجبى أن أجيب بهذه الاجابة ..

وقد فعلت أنا أيضا ، كما فعلت الأم مساء أمس عندما أخذتهم من تلك الحديقة وحطمت سحرا ..

أو ربما لايكون الأمر كذلك ..

لماذا ؟.. اذا كان حقاً ما يقال من أن الأطفال دائما أطفال .. واذا كان يوجد حقا فى هذه اللحظة ، وفى المدرسة الأخرى ، وفى السنة الرابعة ، قائد مجروح يربط يده بمنديله على جرح بسيط لا يظهر أبدا .. فان ذلك المنديل هو منديل مساء الأمس

واذا كان حقا أن مارتينيللى مثلى عندما كنت فى مثل عمره .. آه .. اننى متأكد من أن أحدا لم يقتنع بشرحى ..

قد يتظاهرون بتصديقى لأنهم تلاميذ ، ومن واجبهم الاعتقاد فى المدرس ولكنهم فى قلوبهم مقتنعون بشىء آخر .. أكثر جمالا .. وأكثر حقيقة من الأشياء الحقيقية .. ان شرارات الزناد تطير فى السماء ، وتظل هناك ، ثم تصبح نجوما .. تلك النجوم التى تظهر بعد الغروب .. والتى تبدو وكأنها ترتعش .. ونكاد نحبس أنفاسنا خوفا من أن نطفئها !

الفصل السابع

معطف رونكوني

لم يكن « رونكوني » طفلا ، بل كان روحا .. فان تلك العينين السوداوين الكبيرتين اللتين كانتا تبدوان أكبر من ذلك الوجه الصغير الشاحب النحيل ، كانتا تسألان دائما .. تسألان عن أشياء .. كثيرا ما كنت لا أعرف كيف أجيب عنها :

ـ حضرة المدرس .. أين السماء ؟.. انها ليست تلك التى نراها زرقاء انها هى ذلك الهواء وأنا أعرفها ، ولكن أين تلك السماء التى فيها الملائكة والتى يذهب اليها الصالحون ؟

انها أشياء لايعرفها أحد ، ولا يعرفها حتى المدرسون الذين كان يجب أن يعرفوا كل شيء !.. لقد سألت هذا السؤال لجدتى ، ولكنها لم تعرف كيف تجيب ..

كانت الجدة عجوزا فى جسم الأطفال ، تلتف فى شال أسود ، وكانت تحضر كل يوم لتأخذ حفيدها ـ لأنها كانت تحبه كثيرا ـ ولتأخذ وجهه بين يديها ، وتقبّله على جبينه . وليس ذلك لتصحبه الى الشارع لأنه بالأحرى كان هو الذى يصحبها ، ويقدم لها كتفه لتسند عليها يدها .. وكنت عند رؤيتهما سائرين ـ وكان هو لايزال صغيرا ، وقد أصبحت هى أيضا صغيرة مثله ـ كنت أفكر بقلب منقبض فى تلك السماء التى يبدو كل منهما قريبا منها !

لقد كانت عجوزا صالحة حزينة ، وكانت تغطى رأسها بقبعة سوداء تربطها الى أسفل ذقنها بشريط من المخمل . وعندما كانت تتحدث معى ،

كانت تأخذ باحدى يدى ، وتربت عليها كأننى أحد أبنائها : « حضرة المدرس .. ان صغيرى يستذكر كثيرا ويقرأ دائما ، وهذا يتعبه .. قل له ان من الواجب عليه أن يلعب ويلهو مثل كل الأطفال الذين فى سنه .. »

وكنت أجيبها : « اننى أقول له هذا دائما ياسيدتى ، لقد وضعته بجانب مارتينيللى الأكثر مرحا فى الفصل .. »

ثم اتجهت لرونكونى قائلا : « سوف نقوم فى الربيع برحلات ، ونذهب الى الحقول ، ونؤلف فرقة للعب كرة القدم ، وسأكون أنا حارس المرمى ، وستكون أنت قلب الهجوم .. واذا لعبت أنا ــ باعتبارى مدرسا ــ فستلعب أنت أيضا ، أليس كذلك ؟ »

سأتذكر دائما ذلك الوجه الصغير المبتسم ، والمائل قليلا على الكتف اليمنى ، تلك الكتف التى كانت الجدة تسند يدها عليها بخفة .. فانها ليست بالثقيلة !

وكان ينظر الىّ دائما ، وينصت فى الفصل بشغف الى كلماتى ، على أمل أن يتعلم بعض الأشياء التى لايعرفها .. وكنت أراه فى كل لحظة وهو على وشك أن يسألنى ، ولكنه كان يهز رأسه ويخفض يده من جديد ــ تلك اليد التى كان قد رفعها قليلا ــ وهو يفهم أننى لو أجبت عن الأسئلة التى كان يريد معرفة اجابتها ، فان الآخرين لن يتعلموا شيئا .. وانه لايمكننى أن ألقى الدرس من أجله فقط .. وكان لابد أن أهتم بأن أقول أشياء عادية وفى غاية البساطة ، حتى يفهمها الجميع .. ومن بينهم «كريبا» لقد كان « كريبا » هذا طفلا طويل القامة ، سمين البدن ، له شعر طويل يغطى ساقيه .. وهو راسب منذ سنين عديدة بالسنة الرابعة ، وكنت أريد أن أفهم جيدا اذا كان نائما أم متيقظا ، لأن جفونه كانت مسبلة ومنخفضة يطبقها كأبواب الحوانيت الحديدية التى يخفضونها بعد الساعة الثامنة والنصف مساء ، ليفهموا الجمهور أن المحل مقفول ، ولكنها ليست منخفضة جدا الى النهاية ، حتى تسمح للعمال الباقين فى الداخل الذين

يقيدون الحسابات بأن يخرجوا منها على أرجلهم وأيديهم ، وهم يمسكون بحلقة المفاتيح الرنانة

ولقد نقلته فى آخر العام .. وذلك ، اما لأننى كنت أرى أنه من الواجب تخليص المدرسة من مثل ذلك الطفل ، واما لكى أتجنب أن تدركه الشيخوخة وهو لايزال بعد فى المدرسة الابتدائية . وفى يوم ما ، جاء الى « رونكونى » فى الفصل .. وكانت هناك تدريبات على السير والجرى بالفناء ، وكان مرتديا معطفا بدا فيه عجوزا ، وقد صحبته الجدة حتى الباب ، ورجتنى فى ألا أجعله يخلع معطفه : « ان ذلك يضر به يا حضرة المدرس .. فما زال الجو باردا » ، وقال مارتينللى الذى كان يبدو كالجندى وكان ينتظر بفارغ الصبر أن يمر أمام المديرة ماشيا مشية العرض العسكرى : « يتدرب وهو يلبس المعطف .. هذا مستحيل .. انظر الىّ ، اننى لا أرتدى شيئا تحت ملابسى هذه .. » وكشف عن جلده العارى تحت قميصه .. أما « كريبا » فقد ألهبته أصوات الطبول المنبعثة من فناء المدرسة وأيقظته ، ولكنه بمجرد أن سكتت تلك الطبول بدأ يتمايل ليستأنف النوم من جديد !

ولكن صوت البوق جعله ينتفض : « الصفوف .. الصفوف .. » وعندما وصلنا الى الفناء ، وجدنا الصفوف قد انتظمت (وكانت المجموعة عبارة عن فصل يتألف من ثلاثين طالبا ، أو ما يزيد قليلا على ذلك) وقد اصطف الجميع واستعدوا للسير أمام المديرة .. لقد كانت سمينة ، حمراء الوجه ، تقف معتدلة فوق شىء أشبه ما يكون بالمنضدة ، ومحاطة بهيئة أركان حرب مكونة من المدرسات اللاتى كن يعملن جهدهن ليظهرن بمظهر الشجاعة والروح الحربية ، ولكنهن لم يستطعن على الأقل الاستغناء عن التهامس فيما بينهن كما فعلن ، ويفعلن ، وكما ستفعل جميع مدرسات العالم ! ورتّبت مجموعتى مع المجموعات الأخرى ، وكنت الى جانب مارتينيللى الذى وقف بشجاعة معتدلا ، وبأعين منتقدة ، وبقلب كان يدق مع دقات الطبول ، ومع الآخرين الذين فقدوا الصبر ، وبدءوا حركة

(محلك سِر) وهم يحلمون بالأعلام والهجوم ، وبغبار المعارك اللامع .. وكان « رونكونى » يقف بمعطفه وقلنسوته الكبيرة ـ بالنسبة لرأسه الصغير ـ والتى كانت تنزل حتى عينيه ، حتى كان لايرى منه سوى فمه وذقنه المسحوبة . وقلت له : « ليس كذلك .. ليس كذلك يا «رونكونى».. لا ينبغى أن يكون الرأس مائلا على الكتف» . وكان ينظر الىّ وهو يرفع رأسه الى أعلى لأن القلنسوة كانت فوق عينيه ، وبدا وكأنه يقول لى : « انك تعرف تماما أننى لا أستطيع أن أفعل ما تطلب منى .. ويسرنى جدا أن أكون مثل «مارتينيللى» ، وأن أستطيع الذهاب بالقميص المفتوح من رقبته وبدون أى شىء تحته ، ولكنى لا أستطيع .. وسوف ترجعنى المديرة الآن الى منزلى لأنه من العيب أن ترى تلميذا يتدرب بمعطفه »

وقد صدر الأمر للتلاميذ بالاتجاه الى اليمين ، وابتدأت المجموعات تسير صفوفا أمام المديرة .. وكان يسمع وقع أقدام ثمانمائة طالب فى أثناء سيرهم فوق حصى الفناء ، وكانوا يبدون وكأنهم ثمانمائة من الجنود .. وكان بينهم واحد فقط بمعطفه وبذراعيه النحيلتين اللتين تبدو منهما عروق زرقاء صغيرة !

وكنت أفكر : الآن ستراه المديرة وستعيده الى البيت ..

« جرية سريعة » صاحت المديرة بصوت كالرعد وكان فى استطاعتها فقط أن تأمر بالجرى ، ولكن الويل لها اذا تلقت هى ذلك الأمر فى يوم من الأيام !.. وقالت : « لأية مجموعة ينتسب ذلك الولد الذى يرتدى المعطف ؟ » فأجبت : « انه ينتسب الى مجموعتى ياحضرة المديرة »

وأخذت رونكونى من يده ، ووضعته فى ركن من الأركان ، وقلت له : « ابق هنا .. وبعد مرور الصفوف سأجىء اليك لآخذك ، لا .. ليس فى الظل هنا .. اجلس فى الشمس .. هل تعرق ..؟ ! »

وقال لى : « حضرة المدرس .. انى أحبك حبى لجدتى »

وقلت له : « وأنا أيضا أحبك يا « رونكونى » .. وسأصحبك للتنزه

معى ، ثم ستصبح رويدا رويدا كغيرك.. مثل مارتينيللى، وستقوم برحلات طويلة وستحمل أنت المخلاة » ..

وفى يوم ستأتى الجدة لترى المجموعات ، وسنقول لها : « انظرى الى حفيدك الذى يسير مع الآخرين . هل هو متعب .. متعب ؟.. ان المخلاة ستكون بالنسبة اليه كريشة .. »

وابتسم « رونكونى » ، وأجاب بابتسامة حزينة وهو يمسك باحدى يدى بين يديه ، وكان لابد لى أن أقول له : « دعنى ..» ورجعت مسرعا الى مجموعتى التى كانت تسير فى تلك اللحظة أمام المديرة ، ومر مارتينيللى أمامها ، وهو ينظر اليها بعينين مفتوحتين تومضان بالشرر ، كأنه يريد أن يلتهمها ، وكذلك نجح « كريبا » فى أن يرفع جفونه التى انخفضت فى الحال ، بعد أن مر أمام المديرة .. والدليل على أنه بدأ ثانية فى النوم أنه عندما صدر الأمر بالوقوف ، استمر فى المشى فى زهو وهو يتجه بخطى ثابتة نحو الجدار . وبادلتنى المديرة التهنئة ، كما لو كنت قائدا عظيما ، وقالت لى : « اذن .. من المستحسن ألا يشترك هذا الولد بعد ذلك فى الطابور » .. وحييتها ورجعت الى « رونكونى » ، ولم أقل له شيئا ، فقال : « ماذا قالت المديرة ؟.. فقلت له : « لنرجع الى الفصـــــل يا « رونكونى » ... »

ولم ألق درسا فى الفصل فى ذلك اليوم ، فمن ذا الذى كان يستطيع أن يهدىء خمســـة وثلاثين تلميـــذا قد تكهربوا من أصـــوات الأبواق والطبول ؟.. من ذا الذى يمكنه أن يهدىء مارتينيللى الذى سمع مديحا خاصا من حضرة المديرة ، بأنه أحسن تلميـــذ يمشى مشية عسكرية فى المدرسة كلها ؟.. وبينما كان الآخرون يحدثون ضوضاء كنت أتحدث مع «رونكونى» وأقول له : «يجب عليك ألا تقرأ ، أو تستذكر كثيرا .. ولا تفكر فى بعض الأشياء التى هى أكبر منك ، تلك الأشياء التى لا يفكر فيها حتى الرجال .. ولا مدرسك ، فانه يبدو من مواضيعك الانشائية التى تثبتها انك وحيـــد ومنفرد .. ينقصـــك وجود صـــاحب تلعب معه مثل

مارتينيللى .. لماذا لا تلعب مع مارتينيللى ؟ »

ــ ان مارتينيللى لا يفكر فى شىء ياحضرة المدرس ، والى جانب ذلك لا يحب أن يبقى معى ويقول اننى مجنون !

ــ « مارتينيللى » .. تعال هنا ؟.. لماذا لا تلعب مع « رونكونى » ولا تصاحبه ؟..

ــ انه مجنون ياحضرة المدرس .. انه يستذكر أيضا فى المنزل !

ونظر الىّ غاضبا ، وقال : « لا أريد أن أصبح مثله ، انه يقول لى أشياء لا أفهمها .. فأول أمس بينما كنا فى الحدائق نقطف الأزهار لكى نجعل منها باقات كثيرة نقدمها لحضرتك ، قطف زهرة صغيرة ، وقال : انه يستوى أن تقدم باقة أو تقدم زهرة ! »

ونظر الى « رونكونى » خائفا بعض الشىء ، ورجع الى مكانه الخاص به ، ليتكلم مع أصحابه عن المعارك . وكثيرا ما كان يقوم بحركات يفهم منها أنه يريد أن يصوب بندقية . وقلت لرونكونى : « والآن وقد جاء الربيع .. لابد من الحركة .. »

ــ حضرة المدرس ، ان حالتى تزداد سوءا فى فصل الربيع !

وسمعت دقات على الباب ، ودخل الفراش قائلا : « فى الصباح الباكر فى الساعة العاشرة زيارة حضرة المفتش »

وفجأة انطفأت حرارة المحاربين ، وقال « ليوناردو » : « يا الهى » ــ وهو ولد صغير يلبس النظارات ــ وقد قام على قدميه رافعا يديه ، كما لو كان فى كنيسة ، واستطرد فى الكلام : « يا الهى .. لا تجعله يسألنى ، وأعدك أننى لن آكل الكريز لمدة أسبوع » . وصاح مارتينيللى قائلا : « ليحضر المفتش » ولكنى نظرت اليه وجعلته يخفض عينيه .. لقد كانت نظرتى تعنى : « أنت لن تحضر غدا يا مارتينيللى .. أنت ستكون غدا فى العاشرة تماما ــ عندما يدخل المفتش ــ فى الحدائق لتعمل باقات كثيرة من الزهور »

ما أسعدك لأن فى استطاعتك عمل ذلك .. ولكن أنا ــ على العكس من

ذلك ــ يجب علىّ أن أبقى هنا ، لأقدم له الدفاتر ، ولأبين له المنهج الذى أقوم بتدريسه ، وسيقول لى : « ياحضرة المدرس .. هل تسير طبقا للبرنامج ؟ هل شرحت الأفعال الشاذة ؟ » .. وسأجيبه كذبا ــ كبقية التلاميذ ــ قائلا : « طبعا ياحضرة المفتش .. نعم شرحت الأفعال الشاذة ، واذا أردت فاسأل تلاميذى .. »

آه .. ليست هناك لحظة أشد وقعا على المدرس من هذه اللحظة ، وربما لايسأل المفتش لأنه قد رضى بهذه الاجابة .. وحينئذ سوف يستأنف هذا القلب ــ الذى كان قد وقف ــ دقاته من جديد ، مثل طبول الأمس عندما كانت تدق فى الفناء . ولكن من المحتمل أيضا أن يقول المفتش :

ــ حسنا .. لنسمع ذلك الولد الصغير الذى يجلس بنظاراته فى الصف الأول .. ما اسمك يابنى ؟

ــ ليوناردى ألبرتو

ــ شاطر .. هل تستطيع أن تقول لى شيئا عن الأفعال الشاذة ؟

ــ حضرة المفتش .. ان الأفعال الشاذة حتى الآن لم يشرحها لنا حضرة المدرس !

وتكون النهاية .. ويخرج المفتش عابسا دون أن ينطق بكلمة ، ثم يدق الفراش الباب بعد قليل ، ويطل برأسه داخل الفصل ، ويقول بسرور خفى : « حضرة المدرس .. انك مطلوب فى الادارة ، وأجد نفسى حقيقة أننى لم أشرح أى شىء من الأفعال الشاذة ، فلم أكن مدرسا منظما أسير يوما بيوم طبقا للبرنامج .. بل كنت أعطى درسا فى القواعد يوما ، وأتحدث فى يوم عن الأزهار ، وأتكلم فى آخر عن « فوريوكاميللو » الذى أنقذ روما من الغاليين (١) عندما وصل بسرعة البرق راكبا على ظهر حصان أبيض . لقد وصل فى اللحظة التى وضع فيها «برنو» المكروه سيفه الثقيل على الميزان ، وصاح : « الويل للمغلوب » وكان الأطفال يهللون ويطلبون منى أخبارا عن ذلك الحصان الأبيض : « حضرة المدرس .. هل كان حصانا

(١) سكان فرنسا « جاليا » أو « غالية »

ثمينا ؟.. وهل كان يجرى سريعا ؟ » وكنت أجيبهم : « مثل الريح بالضبط » وكنت أنا بدورى متحمسا لذلك الحصان ، وكنت أعتقد — مثل الأطفال — ان الحصان الذى حرر « كاميللو » به روما ،كان أبيض ناصع البياض كالجليد .. ثم كنت أنظر الى « رونكونى » .. لقد كان « رونكونى » يبتسم ، وكان يخجلنى قليلا احساسى العاطفى .. وكان يبدو لى أنى طفل صغير أمام رجل عاقل ، فكنت أخفض عينى ..

ثم استطردت بوقار وأنا أحاول أن أجعلهم يروننى ثابتا وهادئا : « أولادى .. فى الصباح الباكر سيأتى حضرة المفتش ، ومن المحتمل أن يسأل فى الأفعال الشاذة .. انى أعرف تماما أنكم لستم مضطرين أن تعرفوها لأننى لم أشرحها لكم .. ولكن لننظر قليلا .. هل أنتم لا تعرفون شيئا عنها ؟.. أنت يا « ليوناردى » لوسألك حضرة المفتش غدا صباحا : قل لى يا ليوناردى المضارع الاخبارى لفعل ذهب .. لنسمع كيف تجيب ؟.. وأجاب ليوناردى بجدية « أنا يذهب .. أنت أذهب .. هو تذهب » (١)

وفى اليوم التالى ، كانوا كلهم منتظرين حضرة المفتش ماعدا مارتينيللى الذى كان غائبا بالطبع .. كان السكون شاملا ، ولم تكن لدىّ الشجاعة لأن أقول شيئا . وكان « رونكونى » أكثر شحوبا وأكثر تعبا من المعتاد.. كانت له عينان محاطتان بهالتين سوداوين ، كما كان رأسه أكثر ميلا على كتفه اليمنى

كان يفهم جيدا شعورى بالخوف .. وكان ينظر الى كأنه يقول : « تشجع ياحضرة المدرس ، وسترى أن كل شىء سيسير على ما يرام .. »

وكان « كريبا » مستغرقا فى النوم ، ولكى يظل مستيقظا كان من اللازم دق الطبول ونفخ الأبواق بجانبه ، ولم يكفه حتى حضور المفتش لايقاظه ، وفى العاشرة تماما دخل المفتش ، وأظهرت له الدفاتر ، وأعطيته علما بالمقرر المشروح ، وقد وجه بعض الأسئلة هنا وهناك الى الأولاد ، وهى أسئلة فى كل المقرر ، وأجابوا بطريقة مرضية .. وانتهى كل شىء على ما يرام !..

---

(١) الفعل ذهب فى اللغة الايطالية شاذ التصريف

وقد بدأ ظهور بعض الابتسامات ، وكانت بعض الأوجه لاتزال شاحبة وقد أجلست ليوناردى صاحب « أنا يذهب » مختبئا تحت آخر مقعد ، وقد بدأ فى الظهور برأسه ، وكان يبدو بريق نظـارته . ولكن فى لحظة معينة ، عندما كنت أنتظر تهنئة السيد المفتش وانصرافه ، قال : « لنسمع شيئا عن الأفعال الشاذة .. حضرتك بكل تأكيد شرحتها لهم .. »

ــ طبعا ياحضرة المفتش فهى ضمن المنهج !

ــ حسنا .. حسنا .. هل تريد أن تسألهم أنت أم أسألهم أنا ؟

ــ كما تحب ياحضرة المفتش ، فالأمران عندى سواء

ــ اسألهم حضرتك ..

وحينئذ أدرت عينى حولى بين الأوجه الكثيرة المفزعة ، فرأيت ذلك الوجه الصغير الهادىء المبتسم .. وجه « رونكونى » .. فقد كانت تلك الهالات السوداء التى تحيط بعينيه تعنى : اننى استذكرت طوال الليل ياحضرة المدرس ، والأفعال الشاذة أعرفها تماما كلها ، واسألنى واطلب منى تصريف أصعب فعل لها ! .. وقد أجاب عن كل الأسئلة ، وسر المفتش ، وأراد أن يوجه اليه بعض الأسئلة : « أنت شاطر يا « رونكونى » وماهر . وأنت ياحضرة المدرس .. يا أولاد يجب عليكم أن تحبوا مدرسـكم ، وأن تكونوا فخورين به ، فهو شاب له مقدرة مدرس متقدم فى السن ، أتصور ياحضرة المدرس أنك قد بذلت جهدا كبيرا لتدخل فى رءوسهم الأفعال الشاذة بطريقة حسنة وبوضوح بالغ » .. وقال « رونكونى » بصوت خافت : « انه منذ ثلاثة أشهر يشرحها لنا ياحضرة المفتش »

ــ وهل الآخرون يعرفونها أيضا مثل « رونكونى » ؟

ــ طبعا ياحضرة المفتش ، واذا أردت فاسألهم ..

ــ لا .. لا .. كفى .. ذلك حسن ياحضرة المدرس ، وتقبل تهانىّ ، وأحييكم يا أولادى ، وأريد منكم أن تحبوا مدرسكم الذى يتعب كثيرا من أجل تثقيفكم وتهذيبكم

وانصرف متحمسـا .. وعندما خرج كان الصمت مخيمـا ، ثم نظرت

الى « رونكونى » وكنت أود أن أقول له أشياء كثيرة ولكننى لم أستطع..
ــ آه ، لو حضر « مارتينيللى » لفهم أن « رونكونى » لم يكن مجنونا
وقلت : « رونكونى هل أنت متعب ؟ » وأجاب : « مثل كل الأيام الأخرى ياحضرة المدرس »

وجاءت جدته وقت الانصراف ، وقالت : « لقد استذكر طوال الليل ياحضرة المدرس ، قل له أن يقلل من الاستذكار ، وهل كان فى حاجة لأن يستذكر ــ كما فعل ــ طوال الليل ؟

ــ رونكونى .. ابق غدا فى البيت ، وسأجىء اليك أنا بعد الظهر

ــ حضرة المدرس سأحضر غدا .. ما دمت أستطيع الحضور .. وقالت جدته وهى تشهق : « لا تقل ذلك .. لا تقل ذلك » وابتعد الاثنان معا ، ويدها على كتفه خفيفة جدا لا ثقل فيها ، ولكنها كانت ثقيلة بالنسبة لهذه الكتف ، وجاء رونكونى الى المدرسة عدة أيام تالية ، وذات صباح كنت أحصى الحاضرين ، وعندما وصلت الى اسم « رونكونى » لم أسمع ذلك الصوت الخفيض يجيب قائلا : « موجود ياحضرة المدرس » . وفهمت أنه لن يحضر بعد ذلك الى المدرسة ، وفهم ذلك أيضا كل الأطفال ، وقال مارتينيللى : « سأحمل الزهور التى أحضرتها ياحضرة المدرس الى « رونكونى » ، وسأذهب الى بيته بعد الظهر »

وكان « رونكونى » قد رقد فى سرير صغير ، واستقبلتنى الجدة قائلة : « انه طلب منى ثانية أخبارا عن السماء ياحضرة المدرس .. » فقلت له : « اسمع يا رونكونى » وكانت يداه فوق الغطاء خفيفة دون أثر ..
ــ حضرة المدرس ، اننى لن أحمل المخلاة بعد اليوم .. قل لمارتينيللى..
ــ ان هذه الزهور يقدمها لك مارتينيللى ..

فاستطرد رونكونى : « قل له انى أحبه ، ولو أنه يعتقد أنى مجنون .. اطلب منه أن يجرى ، وأن يقطف زهورا كثيرة ، وأن يمشى أمام المديرة ، وألا يستذكر كثيرا ويتذكرنى .. اننى أعرف كل الأفعال الشاذة ياحضرة المدرس : أنا أذهب .. أنت تذهب .. هو يذهب »

وكانت الجدة تبكى بهدوء حتى لا يحس بها أحد .. وأما « رونكونى » فلم يكن خائفا

ــ الى اللقاء يا « رونكونى » وسأحضر غدا ..

وفى الصباح التالى ، ذهبت اليه مبكرا قبل بدء الدراسة ، ودخلت فى الفصل متأخرا بعض الشىء حيث كان الأولاد كلهم ، وقد فهموا دون أن أقول لهم شيئا ، وقد وضع مارتينيللى ــ الذى كان دائما محملا بالزهورــ واحدة منها فى المكان الخالى بجانبه ، وقال لى : « لم يكن مجنونا ياحضرة المدرس .. فان باقة من الزهور أو زهرة واحدة يستويان .. »

ثم مرت الشهور ، ووصلنا الى نهاية العام الدراسى ، وجاء يوم توزيع الشهادات و « الميداليات » وكان « مارتينيللى » ناجحا ولم يعرف أنه قد نجح ، لثقافته فحسب ، بل لوضعه تلك الزهرة فى ذلك اليوم فى المكان الخالى . وكان «كريبا» ناجحا ، ولكنه كان نائما .. ولذلك لم يعلم ، وأما « ليوناردى » ، فقد كان عنده دور ثان فى اللغة الايطالية فى شهر أكتوبر.. هل تذكر ؟

« أنا يذهب »

ــ والآن يجىء دور الميداليات .. فالميدالية الفضية لأشطر تلميذ ، ولأطيب تلميذ ، لأنه يستحقها أكثر من غيره وقد أمرت باحضار شخص أيها الأولاد ..

وفتحت الباب ، ودخلت جدة « رونكونى » ..

ــ هل يؤسفكم يا أطفال لو أعطيت الميدالية الفضية الى جدة رونكونى ؟.. خذيها ياسيدتى لقد كنا جميعا نحبه ..

ــ والآن لنخرج يا أولادى .. فالى اللقاء .. الى اللقاء فى أكتوبر ، وفى السنة الخامسة ، وسوف تكون أنت رئيس الفرقة يا مارتينيللى

وخرجنا كلنا ، وبقى فى الفصل « كريبا » منفردا ، فانه كان لا يزال يغط فى نومه

الربيع فى فناء المدرسة

لم ينته الشتاء بعد .. فما زالت المعاطف ، وما زالت الأيدى الباردة فى الصباح يجب فركها بقوة ، والنفخ فيها لتدفئتها ، لكى يمكن تناول القلم وكتابة : « روما ٢٨ فبراير سنة ١٩٣٣ ــ املاء »

ولكن هناك شيئا جديدا ، أمام أعين التلاميذ ، لم يكن بالأمس كذلك.. فان « جوردانى » منتبه دائما ويضم ذراعيه الى بعضهما البعض ، وعيناه ثابتتان ، وأذناه قائمتان ، حتى لايفقد كلمة يقولها المدرس .. وقد رد على زميله بضربة من كوعه لأنه أراد أن يحادثه ــ وهو اليوم يضحك وينظر نحو النافذة كما لو كان يترقب وصول شخص ما لابد من مجيئه ــ وأناديه فلا يسمعنى ، كما أن « مارتينيللى » لايثبت لحظة واحدة .. فهو يقوم ويأتى ليلقى ورقة مكورة صغيرة فى سلة المهملات ، ويعود الى مكانه ، ثم يقوم من جديد ليلقى أشياء أخرى فى السلة . والذهاب الى سلة المهملات شىء « معْد » .. فسرعان ما بدأ كل واحد يذهب ، ثم يأتى ويقوم ، ثم يجلس من جديد .. من ذا الذى يضرب الخريطة الجغرافية بنبلته فيفتح ثقبا فى اليونان ؟.. من ذا الذى يقلد أصوات الحيوان هناك فى آخر الفصل عند مقاعد المعيدين ؟ !

وينظر الكل من النافذة المطلة على الفناء ..

« روما ٢٨ فبراير سنة ١٩٣٣ .. هل كتبتم ؟ »

لاشىء .. ولا توجد طريقة تجعلهم يكتبون هذا الصباح ، ففى هــذا الصباح تنكسر أسنان الأقلام ، وتتبقع الأوراق ، ولا يستطيع «ليوناردى»

الكتابة لأن « مانيلى » يضربه ضربة فى ذراعه ويأخذ « ماريانتشى » فى البكاء لسبب غير معروف ، اذ لم يؤذه أحد ..

« ماذا بك يا « ماريانتشى » ؟ ولا يعرف — حتى ولا هو — السبب فى ذلك .. شأنه فى ذلك شأن « جوردانى » فانه دائما هكذا جاد ، لايعرف ما الذى يجعله يضحك أحيانا ، ويحزن أحيانا أخرى ، لأنه ولد محترم ومنظم ، ويقطب حاجبيه ويجهد فى أن يبدو قاسيا ، ولكن عينيه تستمران فى الضحك !..

— ايه يا أولادى .. ماذا حدث هذا الصباح ؟

وبالرغم من أن كل الأيام مثل هذا اليوم ، فان رقعة السماء الرمادية المعتادة ، والشجرة ذات الفروع العارية السوداء تبدوان من النافذة .. ولكن الجميع ينظرون اليهما ، ويفتح المدرس النافذة على مصراعيها ، وينظر الى أسفل .. ولكن لاشىء ، ولا « أحد » سوى حصى الفناء والحفر ، وجدران عالية رمادية ، بها نوافذ عديدة متشابهة ، وكل نافذة لفصل من الفصول ، ومدرسون كثيرون ، ومدرسات كثيرات ، وتلاميذ عديدون يلبسون نفس « المريلة » ثم نفس الكلمات ، ونفس التأنيبات ، ونفس المسائل الحسابية منذ سنين عديدة ، فلا يوجد شىء جديد أبدا !

ماذا ينتظر التلاميذ ؟.. ان أحدا ما سيحضر من الفناء وسيدق على زجاج النافذة ، وهذا ما تستطيع أن تقرأه فى عيونهم .. ونظرة الى الممر ، ولكنه كما كان دائما .. مشجب طويل جدا ، ومعاطف كثيرة ، وحمالات كثيرة ، وكوفيات حمراء ، ومعطفان أو ثلاثة من الفراء (للأولاد الأغنياء) ولكن ماذا يوجد داخل الجيوب ؟.. صفارات ، أزرار ، « صواميل » ، غطاء علبة « ورنيش » وكسر حلوى قد أكلت ، لايعرف أحد كم من الزمن مضى عليها . انها تتناقص باستمرار لأن التلميذ يتذكر طعمها من حين لآخر!

الجو بارد فى الممر ، وأرى الأستاذ « باليانى » يمر .. انه عجوز مسن ، وتتدلى كوفيته حتى عينيه ، ويقول بصوته المرتعد : « ان هذا الشتاء ، لاينتهى أبدا !.. »

وينفخ فى يديه ، محاولا تدفئة أطراف أصابعه التى برزت من قفاز نصفى أسود قديم .. وهناك فى نهاية الممر ، ينام الفراش فوق أحد المقاعد .. ومع ذلك فليس هناك شيء جديد ، فالفراش ينام ، والأستاذ «باليانى» يتألم من الشتاء الذى لم ينته بعد كالمعتاد . والنور مضاء فىحجرة المديرة .. والمديرة تجلس بجانب المدفئة . وأحلم فى كل لحظة بأن أكون مديرا ، وأمامى ذلك المكتب الأنيق ذو القلم والمحبرة الفضية الجميلة ، وهى هدايا المدرسين (الأستاذ «باليانى» دفع من ثمنها خمس ليرات فقط .. يقولون انه بخيل ولديه ثروة فى البنك .. مسكين ذلك الأستاذ «باليانى» فربما كان لديه ألف ليرة قد ادخرها فى ثلاثين عاما قضاها فى التدريس . ويقول فى نفسه : سأتمتع بها عندما أحال الى المعاش ، ولكن من يعلم اذا كان سيصل الى المعاش أم لا ، فهو دائما يشعر بالبرد ، أما الشتاء فلا ينتهى أبدا). وبجانب القلم والمحبرة الفضية ، توجد ساعة كبيرة ــ مستندة الى تمثالين لسيدتين من البرونز ــ صوتها يفزع الأولاد عند استدعائهم الى حجرة المديرة فى لحظة الصمت العابس التى تسبق تأنيب المديرة . وفى وسط المكتب ختم الادارة ، ذلك الختم السحرى الذى يثبت « قانونيـة » الشـهادات ، والاثباتات ، والتقارير الخاصة بأحوال التلاميذ والدبلومات .. ذلك الختم السحرى الذى تستطيع المديرة استعماله دون غيرها ، ولعلنى من أجل ذلك الختم وحده أود أن أكون مديرا ، وأختم به بقوة فى نهاية العام على تسعمائة تقرير عن أحوال التلاميذ .. واحدا بعد الآخر !

وتبدو حجرة المديرة آخر العام ــ بسبب الضوضاء الصادرة منها ــ كأنهـا مكتب من مكاتب البريد . وحيث أجلس الآن ، أرى نور حجرة المديرة فقـط ، الذى يضىء أيضا حجرة السـكرتير الذى يعـد أوراق الحضور والغياب بخط جميل لليوم التالى .. ان خطوط سكرتيرى المدارس متشـابهة كلها ، اذ يكتبون لقب المدرسـين بالخط القوطى وأسماءهم بالخط العادى فى أسطر طويلة مستقيمة ، ومن حين لآخر تجد بعض

الحروف الأولى من الأسماء مكتوبة بخط أحمر . ولابد أن تكونوا قد منحتم فى بعض الأحيان «ميدالية» وأنتم صغار.. وتلك «الميدالية» قد أثرت فيكم .. ولكنها اليوم ـ وبعد سنوات طويلة ـ توجد فى درج من الأدراج ، واذا بحثتم عنها فستجدونها من جديد ، ولا تؤثر فى نفوسكم تأثير حرف الـ «ج» المكتوب بالقلم الأحمر ، والذى يزين الدبلوم الذى يصحب «الميدالية» ، والذى يكتب على «جائزة التفوق» ، ولقد كتب تلك الـ «ج» من أجلكم سكرتير مدرستكم السابق ، والذى لم يعد الآن سكرتيرا للمدرسة .. على انه لايزال يوجد فى كل مدرسة سكرتير يكتب حرف الـ «ج» مثل سكرتير مدرستكم السابق ، وبنفس الخط ، وبنفس الزخارف ، وبنفس الحبر الأحمر ..

أدخل الفصل من جديد ، وقد زاد اضطرابا ، وحينئذ أجد شيئا ما .. لم أدركه لا أنا ، ولا الأستاذ «باليانى» ، ولا سكرتير المدرسة .. ولكن الأولاد هم الذين يدركونه .. يجب رفع الصوت والنظر بقسوة الى «جوردانى» ومنع مجىء التلاميذ لالقاء الأوراق فى سلة المهملات ، وتكرار « روما ٢٨ فبراير سنة ١٩٣٣ .. املاء ، اكتبوا ».. وآخذ كتابا وأتصفحه : ولا أجد شيئا يستحق أن أمليه ، ولا أجد فقرة مفيدة لها مغزى الا وكانت طويلة ، ثم ولابد أن يتضمن الموضوع بعض الصعوبات النحوية لكى أمرّن الأولاد .. وماذا أفعل ؟ الاملاء المعتادة : « وداعا أيتها الجبال » أو أملى عليهم هذه الفقرة : « لم يكن يهب النسيم ، والبحيرة تبدو مصقولة وهادئة .. أو .. بسكارينكو » لا .. فتلامذة المدارس الابتدائية لايفهمون شيئا منها . ومن ثم أملى ـ كما أفعل كثيرا ـ ما يخطر ببالى !

اكتبوا : « نافذة فصلى » .. هأنذا قد أمليت العنوان ، والآن أمر بين المقاعد ..

وا حسرتاه !.. كنت أبحث عن جمل فيها قواعد صعبة ، وقد كتب مانيلى : « نافذة الفصلى » وبالرغم من أن مانيلى يكتب جيدا .. فان

ذلك كان سهوا منه . وينظر مارتينيللى الىّ ويبتسم .. انها ابتسامة لاأبادله اياها لأننى أشعر أن هناك شيئا ما فى الجو .. شيئا ما يدركه الأولاد ، ولا أدركه أنا ..!

وأحس بأننى عجوز مثل الأستاذ «باليانى» الذى تجمدت أصابعه من البرد .. تلك الأصابع التى برزت من القفاز الأسود ، وأتصور نفسى بعد عشرين عاما ، وأنا أمر خلال الممر البارد المظلم ، والكوفية تغطينى حتى أذنىّ ، وأجد نفسى أقول : « ان هذا الشتاء لاينتهى أبدا » . وأملى ما يمر بذاكرتى : « من نافذة فصلى ، ترى قطعة من السماء الرمادية دون غيرها ، وقمة شجرة سوداء ذات فروع جافة .. « مارتينيللى ما الذى أمليته ؟ » . ويقوم « مارتينيللى » مضطربا ، محمر الوجه ، ويقول : « من نافذة فصلى ترى قطعة من السماء الرمادية ..» وأقول : « ثم ماذا ؟ » فيجيب : «كفى.. لقد وصلت الى هنا فقط .. » فأقول له : « وقمة شجرة سوداء ذات فروع جافة» ويكتب «مارتينيللى» ، رغم أنفه ، وأكمل الاملاء : « وما زال الشتاء .. ففى العام الماضى ، فى مثل هذه الأيام ، كانت قد ظهرت براعم الأزهار على فروع الشجرة .. أما فى هذا العام فالربيع ما زال بعيدا .. وأقول : « مارتينيللى : هل كتبت ؟ » لقد كتب : « لقد زهرت براعيم «الظهور» .. فالربيع ما زال بعيد » والمهم أنه كتب : «فلنكمل الكتابة .. فالربيع ما زال بعيدا » واستطردت قائلا : « نقطتين .. هل وضعتم نقطتين؟ فالربيع ما زال بعيدا ، فلا شجرة مورقة ، ولا نبات قد ظهرت وريقاته الأولى .. »

وقال « مارتينيللى » الذى رفع يده مستأذنا فى الخروج : « حضرة المدرس » .. فسألته : « هل انتهيت من الكتابة ؟ » فأجاب : « لا » .. فقلت له : « ستخرج عندما تكمل الكتابة » وحدجنى بنظرة لم ينظرها الىّ من قبل . وندمت لأننى وجدت نفسى ــ فى لحظة واحدة ــ قد غدوت قاسيا مثل مدرس عجوز لا أمل له .. وأردت أن أستمر فى الاملاء ، ولكنى كنت سأستمر فى املاء أشياء سخيفة ، فقلت : « كفى هكذا ، ولنر

الأخطاء » ووجدت نفسى مسرورا ــ لأنهم أخطئوا كثيرا ــ فسأعطيهم درجات سيئة . وأترك فى « الدرج » القلم الأحمر الذى يستخدم فى تصحيح الأخطاء الخفيفة ، واستعمل القلم الأزرق وحده .. والأطفال ينظرون مندهشين بعيون واسعة ... مدرس طيب هكذا ..!

ويبكى الآن مانيلى ، لقد أعطيته أربع درجات..كذلك يبكى جوردانى ، لقد أخذ أيضا أربعا ، وأخذت الدموع ، من تلك الأعين التى كانت تضحك، تتساقط فى صمت ، وتنتشر على غلاف الكراس الأحمر ، وتأخذ لونه .. وألاحظ أن مارتينيللى لم يعد ، وأعطى أربعات وخمسات أخرى ، وأبكى عيونا كثيرة أخرى .. كانت تضحك من قبل ، وأرسل فى البحث عن مارتينيللى فلا يجدونه !

ــ والآن عندما يرجع سأريه .. أعطونى كراسته ..

وأعطيته على تلك الاملاء الناقصة ثلاث درجات .. أكتبها بخط كبير يملأ الصفحة ..

ومن المستحسن فى بعض الأحيان وضع المدرسين خلف السبورة عقابا لهم !.. وأخرج لكى أبحث عن مارتينيللى ، وأسأل الفراش ، فيقول انه لم يره . ولكن الفراش ــ كما هو معروف ــ ينام دائما ، ولأول مرة أقول له ــ أنا الذى لم يسبق له أن أنب فراشا من قبل ــ كلمات تجعله يقفز من مكانه .. وأنزل على السلم ، وأسأل البواب ..

ان الباب يظل مغلقا فى أثناء الدروس ، واذن فلم يستطع مارتينيللى الخروج .. وأعود الى أعلى ، وأبحث من جديد ، وأقابل المديرة وأقول لها ان تلميذا قد اختفى . والمديرات كثيرا ما يقاسين مرض البحث والتحقيق ، فتدخل الفصل « لمعاينة » الحادث ، وتنادى الفراش والبواب ، وتستنتج أن مارتينيللى لا يمكن أن يكون قد خرج .. أما الأستاذ باليانى ذو الكوفية التى تصل الى عينيه ، فانه يشير للتلاميذ بأن يتظاهروا أنهم لم يروه ، ولكنه يضم أطراف أصابعه ويهز رأسه ، ويسأل :

« ماذا حدث ؟ »

وتتعقد المسألة .. وبعد قليل ستعرف كل المدرسة ذلك الخبر ، وسيطل المعلمون من الأبواب ، وسيخطون بعض الخطوات فى الممر .. بعض الخطوات البسيطة فى الممر ، ولكنهم لايذهبون بعيدا خوفا من المديرة ، وسينتهز الأطفال تلك الفرصة لتصويب سهامهم والقيام بحرب بمساطر الرسم . والذنب ذنبى بطبيعة الحال ، لأنى سمحت لمارتينيللى بالخروج ، والمديرة .. مديرة .. نعم ، ولكنها فى أعماقها سيدة ، وتضطرب كما لو كانت فى البيت وفقدت أحد أحفادها الذى لايمكن العثور عليه .. انالأولاد وحدهم هم الهادئون ، وعاد «جورداني» ــ بعد أن اختفت دموعه ــ الى الضحك . وأقول له : « هل تعرف أين ذهب مارتينيللى ؟ » ويجيب : « انه بالفناء ياحضرة المدرس » . وأنزل على السلم أنا والمديرة ، وبطبيعة الحال ستتأخر هى عنى كثيرا .. فقد وصلت الى الفناء ، وأنظر حولى ، فأرى مارتينيللى وهو ثابت ينظر الى شىء ما ، وأقترب منه وهو ما زال ينظر الى ذلك الشىء ، وقد أخذ يداعب برقة وحنان نباتا فى أصيص زرع ، وقد نبتت به وريقاته الخضراء . وقال لى : « انك كنت تقول ان الربيع لم يأت بعد ياحضرة المدرس » .. وتصل الآن المديرة ، وسوف يكون من الصعب كثيرا شرح الأمر لها ..!

ــ الذنب ذنبى ياسيدتى ..

وأحدثها عن الاملاء ، وعن النوافذ الرمادية ، والشجرة الجافة ، وآخذ مارتينيللى وأضعه بنفسى فى الفصل .. وأعود قرير العين الى الفصل ، وقلبى مملوء بالندم على تلك الثلاثات والأربعات ، وأقول :

ــ «مارتينيللى».. هل كنت تعرف من قبل وجود تلك النباتات فى الفناء ؟

ــ نعرفها كلنا ياحضرة المدرس ، وقد لاحظناها هذا الصباح ، قبل الدخول فى الفصل ، وكنا ننتظر الآن أيضا ظهور الأوراق على الشجرة . ونحن نراهن على عشرة من أسنان الريش لمن يرى ظهور أول ورقة .. اذن فانهم كانوا من أجل ذلك ينظرون من النافذة ، وكانوا ينتظرون الربيع الذى سيجىء الى فناء المدرسة وسيصل الى الأشجار .. ذلك الربيع الذى

قد وصل ، فلم ألاحظه لا أنا ولا الأستاذ « باليانى » ، ولا المديرة التى أغلقت عليها غرفتها وجلست بجانب المدفأة ، ولا كذلك الفراش النائم ، ولا حضرة السكرتير المنهمك فى كتابة الـ « ج » للدبلومات بالخط الأحمر!

ويسأل الأستاذ « باليانى » ، وقد رجع ليطل من الباب : «حسنا ..كيف انتهى الأمر ؟ »

ــ لقد جاء .. !

ــ من هو ؟ ..

ــ الربيع طبعا ..

مسكين ذلك الأستاذ « باليانى » ، لقد فر وهو يرتعد ويقول : « آه من هؤلاء المدرسين الشبان » ..

وأخذنا كلنا ــ لأننى قد عدت تلميذا وأخجل من أن أكون ذلك المدرس الذى كان قاسيا منذ نصف ساعة ــ نطل جميعا من النافذة لننظر الى الشجرة .. ولنعرف من الذى سيفوز بأسنان الريش العشر ؟

أما فى الفناء ، فتقف المديرة أمام الشجرة .. « آه ، لقد لاحظت هى أيضا هذه الوريقات ، وأخذت تداعبها ــ كما فعل مارتينيللى ــ برفق وحنان ، وهى تخشى من أن تذبلها .. وحضرتها مديرة كبيرة وسمينة ، ولا بد لها من تلميذ من السنة الرابعة ليفهمها معنى الربيع !..

آه لقد رأيت أول ورقة من أوراق الشجرة ، تختفى بين جذعها وأحد فروعها .. وكان من الصعب رؤيتها ، ان مارتينيللى لم يرها بعد . واذا قلت اننى رأيتها فان الأسنان العشرة ستكون لى ، ولكننى ألتزم الصمت ، فانى لا أستحقها وستكون هذه سرقة !

الفصل التاسع

رائحـــة العجـــة

جاء التلاميذ اليوم بدون حقائب .. انه يوم الرحلة المدرسية للتنزه .
وتوصي والدة « ليوناردى » المدرس قائلة :
ــ سيدى المدرس ، لا تجعل « ليوناردى » يجرى .. انه نحيل جدا ..
قل له ألا يخلع المعطف ، وألا يقف فى الشمس ، وألا يشرب من النافورة ، وألا يمكث أيضا فى الظل ..
مسكين « ليوناردى » ، أين يمكث اذن ؟..
قلت لها :
ــ اهدئى ياسيدتى ، فانى أفكر فى أمره ..
ان أم « ليوناردى » سيدة نحيفة شاحبة اللون وصغيرة ، وهى تميل الى ناحية تحت ثقل حقيبـــة كبيرة ــ من التيـــل ــ قد انتفخت بالكرنب ، والخرشوف ، والبطاطس ، وقد تدلت منها أطراف بعض الخضروات التى تعد منها « السلاطة » ، ولها سبعة أولاد ، و « ليوناردى » هو الأخير ..
وتقول : « انه رقيق جدا .. وليس مثل غيره من الأطفال ، وقد ألبسته معطفا من الصوف السميك .. »
فقلت لها : « اهدئى ياسيدتى ، فانى أفكر فيه »
وفى أثناء ذلك ، أشرت بعينىّ للولد الصغير ، كأنى أريد أن أقول له : « لا تخف .. سوف تجرى مع الآخرين ، وسوف تخلع المعطف ، وسوف تمكث فى الشمس والظل حيثما تشاء ! »
الويل لمن يولى اهتماما الى الأمهات .. فان جميع الأطفال رقاق ، حتى

هؤلاء الأولاد الطوال والكبار الذين يقرب صوتهم من صوت الرجال ، وانه لمن المخجل أن نجعلهم يذهبون بالسراويل القصيرة الى المدرسة .. ويوجد فى كل فصل أربعة أو خمسة منهم .. قد نبت لبعضهم شعر ، مقدمة لظهور شواربهم .. ويخجل المدرس قليلا من هؤلاء التلاميذ الكبار الذين يزيدون عليه طولا ، ويجمعهم فى الفصل فى المقاعد الأخيرة ، وفى الرحلة يضعهم فى المؤخرة ..

انهم يمشون منخفضى الرءوس ، خجلين ، لأنهم ما زالوا يتعلمون بالمدارس الابتدائية .. كما يخجلون من جلوسهم مع أطفال عديدين أصغر منهم بكثير ..

انهم لا يتعلمون شيئا .. وكما أعادوا السنة الثانية ، والثالثة ، والرابعة ، كذلك سيعيدون السنة الخامسة ، حتى انه عندما يقرب الشعر النابت من أن يكون شاربا حقيقيا ، سيجدون مدرسا ينقلهم الى فرقة أعلى ، لا لأنهم يستحقون ذلك ولكن لأن الشوارب لا تقبل فى المدارس الابتدائية !

وفى الرحلة ، نجد الكبار فى المؤخرة ، والصغار فى المقدمة .. انهم منظمون مثل درجات السلم . الأصوات الرفيعة للمتقدمين ، والأصوات الغليظة للمتأخرين . ويتجول المدرس من المقدمة الى المؤخرة كأنه « مكتّوك » !

وقد قلت للأولاد فى بدء الرحلة :

ـ الى الأمام ، تقدموا وضموا الصفوف .. ممنوع التكلم فى الطريق. وأنت يا مارتينيللى لا تهرج .. انتباه ، الآن يلزم عبور الشارع ..

ان الرحلة مع هؤلاء تعب شديد للمدرس .. ان أولئك الذين فى المقدمة يسيرون دون أن ينظروا الى أين يذهبون ، ودون أن يهتموا بالترام أو بالعربات أو بالجدران مادام يوجد الى جانبهم المدرس الذى يفكر فى كل شىء .. هو يأمر بالوقوف ، ويأخذ بذراع الدليل ويوجهه يمنة ويسرة ، أو يوقفه ، ويشير باليد الثانية للمتأخرين بالوقوف .. ولكن المتأخرين لايلمحون شيئا منهذه الاشارات ، فيصطدمون بالمتقدمين الذين يحتجون

ويركلونهم بأرجلهم ، لأنهم يشعرون أن الآخرين يضغطون عليهم .. عندئذ يقول المدرس :

ـ هيا ، تستطيعون العبور الآن

وعندئذ يسيرون كخطاطيف كثيرة ، وفى لحظة يصلون الى الرصيف المقابل .. ولكى يعيدهم المدرس الى صفوفهم بترتيب الطول ، يتألم من شدة الصراخ ويعرق .. ويؤثر الجمهور ـ الذى ينظر ويضحك ـ فى أعصابه ، كما أن النساء المتوسطات الحال العائدات من السوق ومعهن الحقائب المنتفخة يقفن ، وتقول واحدة منهن : « انهم تلاميذ مدرسة دانتى اليجيرى »

وتقول أخرى : « انظرى الى المدرس .. ما أصغر سنه ، انه يبدو هو الآخر صبيا . كيف يمكن أن يحترمه الأطفال ؟ ! »

ويخرج التجار من الحوانيت ، ويربتون على رءوس من يمرون بجانبهم ويحيينى الخباز قائلا : « أسعدت صباحا .. ياسيدى المدرس »

وتفوح من الدكان رائحة (البتسا) (١) الساخنة .. هكذا يسمونها فى روما ، وهى مسحوق من الخبز ، والملح ، والزيت .. وقد اجتذبت الرائحة الأطفال ، فدخل الجميع حانوت ذلك الخباز الماكر الذى لم يخرج من دكانه لشىء الا ليقول :

ـ أسعدت صباحا ياسيدى المدرس

ويدخل الجميع ، ما عدا مارتينيللى ..

وقلت لمارتينيللى : « ألا تأكل البتسا ؟ »

فقال لى : « انها لا تعجبنى .. »

مسكين مارتينيللى .. انها تعجبه ولكن ليس لديه الأربعة المليمات !

فقلت لمارتينيللى : « اشتر لى منها بثمانية مليمات »

ان المدرس هو الآخر يأكل البتسا .. ولكنه لا يأكلها عبر الطريق .. بل

---

(١) فطيرة مقلية أو مشوية فى الفرن مصنوعة من الدقيق والزيت والطماطم والثوم والملح وتعتبر أكلة شعبية فى ايطاليا

عندما يصل الجميع الى الفوروم الرومانى (١) .. وهو مقصد الرحلة
وظلت « البتسا » ملفوفة فى ورقة ، يمسكها مارتينيللى متحفظا عليها ، وهو يفخر بسبب حمله « بتسا » المدرس .. وانه لمن الفخر أن يمسكها بعيدا عن الزملاء ، حتى لايهرسوها له أو يسقطوها من يده على الأرض !..

ـ الى الأمام يا أطفال .. كدنا نصل

علينا أن نركض بسرعة ، لنتحاشى الترام الذى يقرع الجرس .. وها نحن أولاء أمام الكولوسيوم (٢) ، الذى يرى منه قوس الامبراطور تيتوس (٣)

هنا يبدأ الطريق المقدس .. وتلك هى الحجارة التى رصف بها ذلك الطريق .. وقد تآكلت بمرور الزمن وأقدام أناس كثيرين لا عدد لهم ولا حصر ..

ان الأطفال يعرفون كل شىء من قبل عن هذا الشارع .. وهم يسيرون فيه على أطراف أصابعهم ، وينحنون حتى يمسوا الحجارة ..

ـ سيدى المدرس .. هل هذه العلامة تركها لنا رومانى قديم ؟ !

انها شرخ فى حجر .. مستحيل أن يكون الرومانيون القدماء الصارمون المنظمون ، قد تسلوا باحداث هذه الأشياء . ولكن ربما يكون خداعا للأولاد ، اذا قيل لهم ان تلك العلامة لم يتركها لنا رومانى قديم ..

فأجيب : « بكل تأكيد »

ويقف الجميع ، ويلمسون ذلك الشرخ واحدا واحدا ، وهم دهشون مفتونون ، وقد تملكهم الاعجاب ..

ويلتقطون كل ما يجدونه من الحصى ، ويتجمعون وهم يحدقون بعيونهم فى ذلك الولد الذى التقط حصاة ، كبيرة وبيضاء لامعة ..

وأرى فى تلك الأعين أسئلة عديدة حول تلك الحصاة ، ومنها :

ـ هل كنت عمودا ؟ أم معبدا ؟ وهل كان قصر الامبراطور كله ناصع

---

(١) من آثار روما القديمة

(٢) من آثار روما القديمة وهو بناء قام بتشييده الامبراطور فيسباسيانوس

(٣) الامبراطور تيتوس : أمبراطور رومانى مشهور توفى سنة ٨١ بعد الميلاد ، وهو ابن الامبراطور فيسباسيانوس

البياض ؟ ثم يضـيقون عيونهم ليروا بريق تلك الحصاة بطريقـة أكثر وضوحا ..

ـ سيدى المدرس .. هل يوجد ذهب فى داخلها ؟

نحن وحدنا فى « الفوروم الرومانى » اذ لايزال السائحون نائمين ، وسيأتون عند الظهيرة وهم خليط بين آنسات يلبسن النظارات ، وشباب ذوى وجوه حمراء وشعر أشقر ، ورجال ضخام الأجسام صلع الرءوس يتسلقون فوق الأطلال ، مثل متسلقى جبال الألب ، وسيقول لهم الدليل ما يشاء ..

السكون شـامل ، ولا يقطعه المدرس بشرحه غير المفيد ، ولا هؤلاء الأطفال الذين يحترمون كل شىء فى ذلك المكان ابتداء من الزهرة الصغيرة الى أعمدة الكنيسة الرئيسية الرومانية القديمة ، والى قوس الامبراطور سيتيميوس سيفيروس (١) الذى اسـودّ بفعل الزمن ، بينما بقى قوس الامبراطور تيتوس أبيض لسبب من الأسباب ..

والآن لنصعد فوق تل البلاتينو (٢) عبر ذلك الممر القديم الهائل التابع لقصور الامبراطور .. فهو ممر منحدر ذو سقف عظيم الارتفاع ، ينعكس فيه صدى الخطوات والأصوات هائلا .. ثلاثون تلميذا من تلاميذ السنة الخامسة الابتدائية ، يبدون كأنهم مائة من الجنود ، لا نقابل أحدا .. ولكن الأطفـال عند كل منعطف يتوقفون هم ومدرسهم ، لرؤية صور جنود اللجيوناريوس (٣) العمالقة

ويتساقط الماء من المنعطف قليلا قليلا ، على هيئة قطرات كبيرة تبلل الجدران ، وتفوح منه رائحة ملح البارود العفنة ، كأنها خارجة من باطن الأرض ..

ولكن ها هى ذى الشمس تظهر ، ويتوقف الصدى عن التردد ، وتعود فوق سطح تلال البلاتينو خطوات الثلاثين ولدا ، التى كانت بمثابة خطوات

---

(١) أمبراطور رومانى : ١٩٣ ـ ٢١١ م
(٢) تل من تلال روما السبعة
(٣) اسم الشهرة لعساكر الامبراطورية الرومانية القديمة

مائة من الجنود لتكون خطوات ثلاثين تلميذا لا أكثر ، وهى خطوات ذات وقع خفيف !

ويشرف الناظر من السطح على الفوروم ومدينة روما ..

ولكن الأطفال ليسوا مثلنا .. لايقفون ليتطلعوا من أعلى الى تلك الأماكن التى مروا بها من لحظة مضت ، ولا يتعمقون فى التفكير لدرجة تجعلهم يتمتعون بها أو برؤية الأشياء الصغيرة .. تلك الأشياء التى كانت منذ لحظة مضت تبدو لهم كبيرة ، عندما رأوها عن قرب ..

ان هذا التفكير العميق ، وهذه الحاجة للتذكر ، للرؤية مرة ثانية ، هى من خصائص الرجال دون سواهم ، ولهذا كان المدرس وحده هو الذى يطل من السطح لمدة لحظة وجيزة ، ثم يعود تلميذا ضمن التلاميذ ، يجرى معهم على السطح ، وفى طرقات يحف بها من الجانبين شجيرات الريحان المزدهرة ، فان تل البلاتينو قديم على غرار الفوروم ، ولكنه ليس الا حديقة لايؤثر فيها الزمان .. بها أعواد الورد وزهورالكريزانتيم، وأشجار البرتقال المزهرة تليها أشجار السرو الخضراء ..

أما الفراشات التى تطير بها ، فهى فراشات حديثة .. يستطيع الانسان أن يلاحقها ، وأن يأخذها بين أصبعين .. لقد دهش الأطفال ، بعد أن طارت الفراشة من أيديهم وتركت على أطراف أصابعهم اللون الذهبى ، والبنفسجى ، والفضى ، والسماوى .. لقد هربت الفراشة ، ولكنها تركت ألوانها .. والآن من ذا الذى يعرف أين تختفى خجلا .. ؟ !

حانت ساعة الافطار ..

« لنجلس هنا على الحشائش .. »

والكل حول المدرس .. يتنافسون فى الجلوس على مقربة منه ، وانتصر كل من مارتينيللى ، وليوناردى .. اذ جلس أولهما عن يمينه ، وثانيهما عن يساره ..

ويعرق ليوناردى ويتضجر .. وليس الذنب ذنبه ، بل ذنب أمه التى ألبسته فى شهر مايو ذلك الصديرى السميك ، مع أن الجميع قد خلعوه ..

ــ سيدى المدرس ، هل أستطيع أن أخلع المعطف ؟

ــ اخلعه .. والآن يا أطفال تستطيعون أن تبدءوا الأكل

ويُسمع همس مفرح ، وتنبسط أوراق الجرائد ، وورق أصفر من ذلك الذى يستعمله الخبازون على حشيش المرج .. وسرعان ما تفوح فجأة رائحة العجة !

ولست أعتقد انه يوجد تلميـذ فى العالم ، لا تعد له أمه خبزا وعجة للافطار ..!

فلدى كل ولد من الأولاد الأغنياء برتقالة ، أو يوسفية ، أو تفاحـة لامعة ، مسحت بعناية بطرف المريلة .. ولكن الأصناف الرئيسية للافطار هى دائما خبز وعجة .. وتفوح رائحة فى الهواء ، انها رائحة السلة .. ولو أن الأطفال لم يعودوا يستعملونها فى الرحلات المدرسية الآن ..

هل تتـذكرون ؟.. كنا نحن نستعملها فيما مضى ، عندما كنا أطفـالا وكانت الدراسة تنتهى ظهرا .. لقد كانت سلة صفراء مصنوعة من القش ، وعليها بطاقة بها اسم التلميذ ولقبه .. ولكن ماذا كان يوجد بداخلها ؟.. لقد كانت تملؤها لنا أمنا فى الصباح ونحن لا نزال نائمين .. وقد كان ذلك على الدوام ، مفاجأة لنا ، وكنا نفتحها على مهل بقلب منقبض ، ونحن نحاول شم رائحتها .. ولكنها كانت تحتوى دائما على نفس الأشياء ، نفس الأشياء التى كانت تستعمل فى ذلك الحين ، وفى وقتنا هذا ، خبز وعجة ، برتقالة أو يوسفية ، أو تفاحة حمراء لامعة شديدة اللمعان .. والى جانب هذا ، شوكة صغيرة ، وفوطة صغيرة ، كنا نستعملها فى كل شىء ما عدا مسح الفم ..

يغلق المدرس عينيه كأنه نائم ، ويبدو له أنه ما زال طفلا بين الأطفال .. يرى مدرسه مرة ثانية .. شابا كما هو الآن والآن لاشك قد أصبح شعره رمادى اللون .. وبعد عشرين سنة سيكون لى فى ذلك الوقت شعر رمادى اللون ، وسوف توجد رائحة العجة بذاتها ..

ان مارتينيللى لا يأكل .. ولكن المدرس ، كما تذكرون قد اشـترى

« بتسا » بثمانية مليمات ليأكلها !

ـ مارتينيللى ، ألا ترغب فى قطعة صغيرة منها ؟

وما دخله فى « عجة » الزملاء ، أو التفاحة الحمراء ، أو البرتقالة التى ما زالت ملفوفة فى تلك الورقة الشفافة الخفيفة ، وقد رسمت فوقها صورة عربة صقلية ؟

انه يأكل « البتسا » التى أهداها له المدرس ، وانه لشرف كبير أن يأخذ هو وحده قطعة من المدرس .. ومن ثم فان التلاميذ الباقين يودون لو أعطوه ما لديهم ، كى يحصلوا هم أيضا على قطعة مثلها !

ولكن « كريبا » و « ليوناردى » و « باتيستونى » و « مانيلى » لم يبدءوا الأكل بعد . يجب عليهم أولا ، أن يأخذوا زيت كبد الحوت ؛ والمدرس يعمل كأنه أم لهم .. يجب عليه أيضا أن يعطى تلاميذه زيت كبد الحوت . لقد أحضره المدرس فى حقيبة صغيرة ، انه لايستطيع اعطاءه لجميع التلاميذ ، لأنه يعطى للأطفال الفقراء المحتاجين للعناية دون غيرهم انتهى الافطار ..

ثم يقول المدرس : « هيا ننزل على السلالم .. رويدا ، رويدا ، يا أولاد ! » لننزل حيث المرج المنحدر الذى يقودنا الى قوس تيتوس .. وتقوم منافسة فى السباق لمن يصل أولا ليلمس القوس بيده !

كان « مارتينيللى » فى المقدمة و « سبادونى » على بعد خطوتين منه وربما يسبقه .. هذان هما صاحبا زيت كبد الحوت ..

ويخاطب المدرس نفسه قائلا : انى أشعر بحرب تدور رحاها داخل قلبى ، وأجد نفسى فى غاية التردد والاضطراب .. اننى مضطر لأن أنزل فى وقار مثل المدرس المسن ، أو ... لا ... فانه لايزال أمامى وقت طويل لكى أصبح مدرسا مسنا : انه لسباق جميل ، فان « مارتينيللى » و « سبادونى » قد انهزما ، وكنت أول من لمس قوس تيتوس .. !

انه لايجب على المدرس أن يعرف جميع الأفعال الشاذة ، وأن يحفظ

التواريخ فحسب ، ولكن يجب عليه أيضا أن يكون أسرع فى الجرى من تلاميذه !

ما زلنا فى الطريق المقدس ، وشرخ الحجر لم يره أحد بعد .. وها نحن أولاء من جديد عبر الطريق بين الترام والسيارات ..

ـ والآن سكوت .. اصطفوا فى نظام حسب الطول ..

وليس هذا بالشىء اليسير فى هذه الدنيا ، فان قصار القامة يقفون على أطراف أصابعهم لكى يظهروا أنهم أكثر طولا .. وأما طوال القامة المعيدون فانهم يثنون باستمرار ركبهم ، لأنهم يخجلون من أن يقفوا دائما فى المؤخرة .. ومن ثم فلا بد من أخذهم من أذرعهم واحدا تلو الآخر ، ووضعهم حيث يجب أن يكونوا .. !

ينال « سبادونى » هذه المرة شرف حمل الحقيبة الصغيرة التى بها زجاجات كبد الحوت ، ففى كل مرة ينال هذا الشرف أحد التلاميذ .. وكانت المرة الأولى من نصيب مارينى الذى يشعر بالضيق الآن ، وينظر الىّ بوحشية ، لأننى انتزعت منه هذا الشرف !

ان العودة دائما أقل تعبا من الذهاب ـ بالنسبة للمدرس ـ الأطفال متعبون ، ويتكلمون قليلا ، ومحلات الخبازين لا تفوح منها رائحة بعد ، وهم يسيرون ببطء ..

ـ بسرعة يا أطفال .. الساعة الآن الثانية عشر تقريبا ..

ولا بد من الوصول خلال تلك الساعة ، وقد بقيت عشرون دقيقة . وقفت بعض الجدات أمام باب المدرسة ، ينتظرن ويتحدثن فيما بينهن .. ان الجدات دائما يصلن قبل غيرهن . وقد نفد صبرهن ، فيتلهفن على رؤية الأطفال .. ربما كان ذلك لأنهن يدركن أنه خلال قليل من الوقت قد لايرينهم أبدا .. ومن أجل هذا فهن لايرغبن فى أن يضيّعن دقيقة واحدة ، ثم تصل الأمهات اللاتى لايزال لديهن متسع من الوقت .. وأخيرا تأتى الأخوات والاخوة الكبار ..

وهانحن أولاء قد كدنا نصل .. ويوجد أمام باب المدرسة الكبير جمع

غفير ، وتصل معنا بقية الفصول من جميع الجهات .. وهى عائدة ــ هى الأخرى ــ من النزهة ..

ويأمر المدرس ــ قبل الوصــول بمائة متر ــ بالوقوف ، ويضع بعض أربطة العنق فى مكانها ..

ويقول : « ارفع هذا الشعر عن جبينك ! وأنت يا « ليوناردى » جفف العرق والبس المعطف من جديد !.. وأمام الجمع سيروا رافعين رءوسكم وأيضا لو شعرتم بالتعب ، لا تجعلوهم يلاحظون ذلك ! »

كلمات ساحرة .. وتعود الأعين لتشع بريقا ، وتهتز الأذرع ، وتسرع السيقان فى مشية عسكرية !

الى الأمام .. سر

ها هم أولاء يسيرون .. ليسوا فصلا ، وانما فرقة بأكملها ..

قف !

واذا بثلاثين قدما تضرب الطريق الممهد بقوة .. لحظة واحدة ، وعندئذ ترتفع عبر الطريق سحابة من تراب «الفوروم الرومانى» وتل «البلاتينو»

لم يبق الا عشرون مترا ، وتسرع الأمهات ، والجدات ، والأخوات ، الى الأطفال ليروا ما اذا كانوا يشعرون بالحر ، أو يتصبب منهم العرق ، أو يسعلون اذا كانوا شربوا من النافورة !

ها هى ذى أم « ليوناردى » لا تحمل حقيبة حاجيات المنزل ، ولا تميل الى أحد الجانبين ..

ــ الى اللقاء ياسيدى المدرس ..

ــ سيدى المدرس .. طاب يومك ..

ــ سيدى المدرس .. غذاء طيب ..

ــ شكرا .. ياسيدى المدرس

والآن الجميع الى المنزل .. وأنا أيضا متعب ..

ما هذا .. ..

ان أم ليوناردى توقفنى ، وتسألنى :

ـ سيدى المدرس .. هل خلع ابنى المعطف ؟ هل شرب من النافورة ؟ هل جرى ؟

فأجيب : « أبدا ياسيدتى ، كان ساكنا دائما لم يجلس لا فى الشمس ، ولا فى الظل .. كان يهرب من النافورات .. ولم يخلع المعطف قط ، أو بالأحرى قد استعرت له معطفا آخر من أحد رفاقه .. وبقى بمعطفين فى أثناء فترة النزهة ..

ثم أهرب لأنى متعب وجائع .. ثم فى النهـاية ، لأن لى أما أنا أيضا تنتظرنى فى المنزل ..



الفصل العاشر

الآنســة تشـينتشى

أطرق باب فصل أولى ثان ..

ـ هل تسمحين ؟..

يجب أن أسلم للآنسة تشينتشى نقود البطاقة الشخصية لجمعية دانتى اليجيرى ..

ان الآنسة تشينتشى تعمل كل شيء بنفسها .. وهى تجمع نقود البطاقات الشخصية ، وتجمع نقود صنـدوق المدرسة ، وتوزع أسنـان الريش الجديدة ، والـكراريس ، وورق الرسـم ، وأقلام الرصـاص الحمراء والزرقاء .. ولو أردت أن تستخدم الصمغ، وقطعة من الدوبارة ، ومبراة ، وقطاع الورق ، أو شريطا مثلث [1] الألوان ، فعليك أن تذهب الى الآنسة تشينتشى ..

الجميع يطرقون ذلك الباب ، لأن المدرسين يشبهون الأطفال الى حد ما ولما كان الأستاذ «باليانى» قد حصل على قلم أحمر وأزرق ، فقد انتشر الخبر .. وكل واحد يرغب فى قلم أحمر وأزرق ، ليتمتع ببريه ، ووضع الدرجات بقلم جديد ..

والمدرسون مثل الأطفال ، يفرحون هـكذا من الأشياء الصغيرة .. وتـكفى ثلاث أسنان ريش مطلاة باللون الذهبى لـكى يسعد « ستورونى » مدرس

(١) الثلاثة الالوان الموجودة فى العلم آلايطالى وهى الاخضر والابيض والاحمر

السنة الخامسة المسن ، الطويل الضخم ، ذو الشعر الأبيض !

كما يكفى شريط صغير مثلث الألوان ، لكى تشع البهجة والسرور فى عينى الأستاذ « باليانى » ، ذلك الشريط الذى يطلبه من الآنسة تشينتشى معتذرا بأنه سيعطيه لتلميذ ، لكنه يستحوذ عليه !

وقد أدركت أنه كان يحمل الشريط الى المنزل ..

ومن يدرى كم من الأشرطة المثلثة الألوان قد جمعها ، بعد سنين عديدة قضاها فى التعليم !

ـ هل تسمحين ؟..

ها هو ذا باب الفصل أولى ثان قد انفتح ، ولا يُعرف من فتحه .. يحدث كل ذلك بغموض وصمت فى هـذا الفصل ، وأسير على أطراف الأصابع ، ويبدو لى أن أدخل كنيسة صغيرة أرضيتها لامعة لدرجة أنى أخاف أن أوسخها ، وأقترب من كرسى الآنسة تشينتشى ..

انها آنسة بدون عمر ، صغيرة ، نحيلة ، وتلبس ملابس سوداء ..

والآن فقط ، وبعد سنين عديدة لم أرها خـلالها ، أتذكر أنها كانت تحمل النظارات ..

ولعل هذه النظارات لم تسترع انتبـاه أى انسان .. فالنظـارات حالة طبيعية بالنسبة لها ، وربما ولدت بالنظارات !.. ومن الأكمام الضيقة التى ربطت حول معصمها بشريط صغير من الحرير ، تخرج يدان صغيرتان كيدى طفـلة .. ولكنهما كثيرتا العظم والتجاعيـد .. هما يدان خفيفتان حيثما وضعتا ، لا تتركان أثرا .. يدان دائما فى حركة صامتة ، وهى تارة تنزع ذرة من التراب من المفرش الذى يغطى مكتب المدرس، وتارة تبحث بهدوء فى درج مملوء بكل تلك الأشياء الصغيرة التى تفرح الأسـتاذ باليانى ، وأحيانا بايماءة تقضى على همس كان قد انبعث هناك فى المؤخرة من المقاعد الأخيرة

هاتان اليدان تسكتان أربعين طفلا من السنة الأولى ، كلهم بدون أسنان . الجزء الأكبر منهم حليق الشعر ، ولكن بعضهم شعره مرسل حتى الأكتاف

مثل البنات ، وفى وسط الشعر « فيونكة » كبيرة صنعتها لهم أمهاتهم ، تبدو كأنها كانولو (١) فارغ ، ولكن بدون قشدة بداخله .. فتنبعث من الفصل ، كما فى جميع فصول السنة الأولى رائحة خفيفة كرائحة حظيرة الدواجن ..!

لا أحد يتكلم .. الجميع بالأذرع مربعة على الصدور ، وبالأعين مصوبة تجاه المدرسة .. ولا تتجه أبدا نحو اليمين ولا نحو اليسار،كأنهم يتنافسون فى أن يبقوا صامتين .. والجميع فى ثبات وانتباه ، وذلك أقرب الى المبالغة منه الى الحقيقة . أمام كل واحد كراسة مكتوب بها نفس الجملة : « انى أحب الوطن حبا كثيرا ، والوالدين ، والسيدة المديرة ، و .. »

كان يجب عليهم أن يكتبوا : « والمدرسة » ولكننى قد دخلت ، والأقلام الآن بقيت جميعها فى المجرى المعد لها بالمقعد ، وعلى المحبرة توضع قطعة صغيرة من الصوف لكيلا يتسرب تراب الى الحبر ، وبقرب المحبرة منشفة الحبر ، وهى مكونة من قطع صغيرة عديدة من القماش ذات ألوان مختلفة ولا توجد بقعة واحدة على الكراسات ..

آه .. نعم ، توجد واحدة صغيرة جدا على كراسة « ماركولينى » ، وهو طفل تنقصه كل الأسنان الا واحدة .. وهى مع ذلك ، تهتز وكأنها مربوطة ربطة بسيطة بخيط فى اللثة ، والآنسة تشينتشى قد أدركت ذلك

ــ كيف حدث ذلك ؟..

ــ لا أعرف ..

وباشـــارة من يدها ، واذا « مـــاركولينى » محنى الرأس يقترب من مكتب المدرسة ومعه الكراس ..

كان يسود صمت من قبل .. ولكن الآن يسود صمت مضاعف !

أنا نفسى كان يتملكنى الخوف من أن أتحرك ، ونظرت الى أصابعى .. لقد كانت أظافرى متسخة قليلا ، وقبضت يدى كى لاتراها الآنسة ، وقد عاد الىّ خوف التلاميذ القديم.. لقد تملكنى الخوف مثل ماركولينى الذى

---

(١) نوع من الحلوى الايطالية

يرتعد ، واضعا الكراسة فوق مكتب المدرسة ..

هل أكون مخطئا اذا قلت انى أسمع قلب « ماركولينى » يدق فى ذلك الصمت الرهيب ؟..

السن الصغيرة الأخيرة « لماركولينى » تتأرجح !..

الآنسة تشينتشى لا تتكلم ، ولا تقول شيئا .. غير أنها تنظر الى « ماركولينى » ، ثم الى كل الفصل ، وتلك اللمحة كأنها تقول : « بقعة ! بقعة على كراسة تلميذ فى فصل أولى ثان !.. منذ لحظة واحدة كان فصل أولى ثان ، الفصل النموذجي ولكنه حاليا معاب .. »

تبحث أيادى الآنسة تشينتشى بهدوء فى « الدرج » .. ها هو ذا مقشط ، وممحاة الحبر ، وعصا صغيرة من العظم ، لكى تزيل كشط الورقة وتعيد اليها بريقها .. ويعود « ماركولينى » بالكراسة ، والثلاث الأدوات الى مكانه .. « ماركولينى » الذى يبكى بدون شهيق ، بدموع كثيرة تتساقط فى صمت على الخدود ، وليست هناك حاجة لتلك الأدوات الثلاث ، لأن دمعة كبيرة قد سقطت على البقعة الصغيرة وأزالتها .. !

دمعة « ماركولينى » مسحت العار الذى لصق بفصل أولى ثان ! .. العيوب التى لا تزال تتكرر هى عيوب السنين الأولى التى تكفى دمعة واحدة لتمحوها ..!

« ماركولينى » لم يعد يبكى ، وقد عادت الى الفصل الابتسامة ، وأنا أيضا أشعر بالتحسن . سيبقى السر فى داخل هذه الحوائط الأربع ، والسيدة المديرة ، والمدرسون الآخرون ، والعالم كله سوف لا يعرف انه فى فصل أولى ثان للآنسة تشينتشى قد سقطت بقعة على كراسة واحدة للتبييض ..!

يا آنسة تشينتشى ، لماذا لا تتكلمين ؟ لماذا التأنيب والمديح والابتسامات ، تحدثينها باليد ؟..

وهل الأطفال يحبونك ؟..

آه .. نعم يحبونها ، ويأتون اليها لكى يطلعوها على بعض الأشياء

الصغيرة التى لا تهتم بها أية مدرسة أخرى ..

وفى المقعد الأخير ، ترتفع يد صغيرة .. انها يد « جوليانى » الذى يرغب فى أن يرى شيئا ..

يد المدرسة تشير اليه ليتقدم الى الأمام .. « جوليانى » يتقدم بوقار ، وله أصبع مربوطة ..

وبمجرد رؤية ذلك الاصبع المربوطة ، ترتفع همسة من الحسد والاعجاب التى تعجز المدرّسة عن منعها ..

وعندما وصل « جوليانى » أمام مكتب المدرس ، نزع الرباط ووضع اصبعه أمام عينى الآنسة تشينتشى ..

انه طرف الاصبع الوسطى الذى اذا نظر اليه بعناية وفى الضوء ، ترى علامة صغيرة مثل رأس دبوس ..!

فتقول المدرسة : « انه حرق »

ويقول « جوليانى » وهو ممتلىء بالفخر : « نعم انه حرق .. ! »

ويقص كيف حدث حرق اصبعه .. يقص بصوت عال ، ليسمع الجميع ما حدث له ، فان أخاه الأكبر الذى فى السنة الخامسة فى فصل المدرس « سنوروني » وجد عود ثقاب .. وعند الخروج من المدرسة ، أعطى ميعادا لبعض زملائه لكى يذهبوا بعود الثقاب ليشعلوه فى شارع صغير قريب ، لايمر فيه المدرسون أبدا !

ودعى « جوليانى » ــ ولو انه صغير ــ بوصفه أخا لمالك عود الثقاب

وأضاف « جوليانى » قائلا : « بينما كل الفصل منصت اليه وصلنا هناك وأشعل أخى عود الثقاب الذى أرسل لهيبا كبيرا وجميلا ، وداخل اللهب كان يرى وجه شابة تلبس ملابس بيضاء .. وقد رأيت ذات مرة « جنية » داخل لهب عود ثقاب أشعله والدى !

ويقول ماركولينى : « أنا أيضا رأيت ذلك ! »

وصار كل تلميذ يقول : « أنا أيضا ... أنا أيضا »

يقول الجميع ذلك لكيلا يكونوا أقل أهمية ، والجميع يرفعون أيديهم

ويضربون أيديهم على صدورهم ، لكى يؤكدوا أنهم فعلا رأوا «جنيات» فى داخل أعواد الثقاب !

« ... عندئذ يتابع « جوليانى » الحديث مشيرا الى الأصبع المحروقة ، وقد قرّبت يدى لألمس الجنّية ، ولكن الجنّية اختفت واحترق اصبعى كلها .. سيدتى المدرّسة ، هل أستطيع أن أريها للزملاء ؟ »

وبعد أن حصل على الاذن من المدرسة ، دار « جوليانى » حول المقاعد ليرى الاصبع المحروقة لكل واحد ، وهو يعطى بلطف تفصيلات لمن يسأله عن الاصبع ، ويسمح بلمس الجرح .. وأخيرا يعرض أصبعه علىّ ، ويعيد القصة لى مضيفا أشياء جديدة مستحيلة .. ولكى أرضيه كنت أربت على كتفه ، كأنى أريد أن أوجه اليه تهنئتى

ويضع « جوليانى » من جديد الرباط ، ويعود الى مكانه مفتخرا ومتباهيا .. فقد رأى أيضا مدرس السنة الخامسة الحرق .. !

انهم أطفال فى السادسة من عمرهم .. ولكن هناك أيضا الأستاذ « باليانى » المتقدم فى السن ، يعرض على الزملاء القلم الأحمر والأزرق الجديد جدا ، والذى لم يستعمل بعد ، وذلك ليميتهم غيرة وحسدا ..!

الآنسة تشيننتشى تعيش مع أختين أكبر منها سنا .. وتتكلم عنهما غالبا ، كأنهما طفلتان

ويسمى بعضهن بعضا بأسماء التدليل والتلطيف التى تشهد بنعومة تلك العوانس الثلاث ، نعومة دفينة فى قلوبهن ، وقد أصبحت حزينة وسخيفة بمرور الزمان !

ان احداهن مدرّسة .. والاثنتان الأخريان تبقيان فى المنزل لتعدّا الغذاء وأكلة المساء للأخت التى تشتغل وتعود الى المنزل ظهرا ، متعبة الى حد بعيد .. ذلك المنزل أراه جيدا ..

الشبابيك دائما مغلقة ، ويدخل فى غرفة « الصالون » القديمة من خصاص النافذة ، شعاع من الشمس محمل بالتراب ، كما يحدث فى الكنائس المظلمة . والأرضية لامعة جدا ، مثل أرضية فصل أولى ثان التى

تنعكس عليها صورة « الكونصول » (١) والكنبة (ولا يزال هذان الاسمان القديمان يطلقان على ذلك الاثاث) والكراسى الضخمة مغطاة بالأكسية (٢) المشجرة وعلى « الكونصول » ساعة تدق ، منذ سنوات بعيدة ، دقاتها الرتيبة ، وتدل على نفس الوقت ، وناقوس كبير من الزجاج بداخله تمثال ليسوع وهو طفل ، وهو مصنوع من الشمع ، ومحاط بزهور من الباغ . وتمر العربات فيرن ذلك الناقوس الكبير الموجود بتلك الحجرة المظلمة دائما ، الباردة كأنها حجرة فى دير ..!

على الحوائط لوحات عديدة .. الكبيرة منها بها صورة رمادية اللون ، باهتة ، للوالدين عندما عقدا الخطوبة ، وهما منحنيان كل منهما تجاه الآخر برأسيهما اللذين يتلامسان ..

واللوحات الأخرى صغيرة تمثل مناظر عديدة ساذجة ، لأيام انقضت على شاطىء البحر أو فى الريف ، ولصيادين يطلقون الرصاص على الأرانب الجبلية ــ القريبة جدا ــ وهى أرانب جبلية لا تهرب ، ولكنها تعرض صدورها بشجاعة الى البندقية !

ــ يا آنسة تشينتشى .. هل تحبين المدرسة ؟

ربما تجيب بالنفى ، قائلة انها متعبة ، وانها تتمنى ساعة التقاعد على المعاش ، والاستقرار فى قرية من القرى مع الأختين ..

ــ ولكن لماذا تشتغلين كثيرا ؟.. ولماذا تأخذين على عاتقك جميع المهمات التى يرفضها بقية المدرسين ؟.. ولماذا تفكرين فى المدرسة أكثر مما تفكر فيها المديرة ؟

ولهذا فان الآنسة تشينتشى تحبنى ، وتشغلنى بالكلام عندما أسأل عنها ..

انى أنا الوحيد الذى أعترف بعملها ، والآخرون بالعكس ، يهزأون منها ويقولون : « من ذا الذى يأمرها بعمل أشياء كثيرة ؟ » وهم يحضرون عندها فى لحظات الحاجة فقط

---

(١) أثاث وعليه رخام ، يستعمل فى حجرة الصالون

(٢) بياضات تستعمل فى ايطاليا لتغطية الكراسى « والفوتيه »

ـ يا آنسة تشينتشى .. غدا سيأتى المفتش ، أنا لا أعرف ماذا أفعل لكى أزين فصلى ؟.. هل تسمحين باعارتى بعض الزهريات ؟
ـ يا آنسة تشينتشى .. أليس عندك ولو بطريق الصدفة قليل من ذلك الورق الشفاف السماوى المجزأ ؟
ـ يا آنسة تشينتشى .. رجائى أن تعيرينى لوحة صغيرة ، فليس عندى شىء أضعه على الحوائط ؟

والآنسة تشينتشى تعطى الجميع ، لأنها تتمتع بالعمل لأجل راحة الآخرين ، وترغب فقط فى أن يعترف الآخرون بهذا الجميل ، وترغب فى أن تعترف المديرة لها بهذا العمل ..

ـ لاشك أن المديرة مشغولة بالاعتراف بعمل صاحباتها العزيزات عليها فقط ، وهن اللاتى يبتسمن وينحنين لها .. ولا تقدر مع هذا أن تعنى بى ، اذ أننى مدرسة فقيرة ، وفى هذا العام سأتقاعد على المعاش ..
ـ هل تتقاعدين هذا العام ؟
ـ نعم .. هذه هى الشهور الأخيرة لى بالمدرسة ، فى شهر أكتوبر لن أعود أبدا .. اننى مسرورة .. أخيرا أستطيع أن أتقاعد على المعاش .. ومن يفكر فى المدرسة بعد ؟.. الأولاد ؟.. ولكن حتى أيضا الأولاد بعد سنين عديدة يملون المدرسة !..

مسكينة الآنسة تشينتشى .. كادت تقول كذبة كبيرة ..

ولكنها تحس بها هى أيضا وتخفض عينيها مسرورة من ترك المدرسة ؟

انها هى بالذات التى تعود الى المدرسة بعد الظهر عندما لايوجد بها أحد ، وتكون الفصول خاوية ، ومظلمة ورطبة مثل غرفة صالون بيتها القديم ؟

ماذا تعمل الآنسة تشينتشى فى الفصل الخاوى ؟

تصحح الواجبات ، تلقى الأوراق الجافة بعيدا ، تنفض كتب المكتبة الصغيرة ، ثم تعود لتنفض عنها الغبار من جديد ، وتقضى وقتها فى عمل كثير من الأشياء الصغيرة الأخرى العديمة الجدوى ، لكى تمكث أكثر مدة

ممكنة فى ذلك الفصل الذى هو فصلها منذ سنين عديدة .. ترى كم تكون هذه السنين ؟.. انها لا تتذكرها بعد ، وعندما تفكر فى أنه فى السنة القادمة ستأتى لذلك الفصل مدرسة أخرى ، ترتعد وتتألم ..!

فتلك المقاعد تعرفها واحدا واحدا ، وتتذكر أسماء جميع الأطفال الذين اختلفوا اليها ..

ويبدو لها أنه من المستحيل أن أية مدرسة أخرى غيرها ، تستطيع فتح ذلك الدرج حيث قد وضعت خلال ثلاثين عاما يدها وحدها ، أو أن مدرسة أخرى تستطيع أن ترش بالماء تلك الزهور التى زرعتها ، والتى أولتها عناية كبيرة ، زهور لا تذبل أبدا لأنها تحضر لتراها حتى فى أيام الصيف ، وعندما تكون المدرسة خاوية مهجورة .. تسمع خطوات الآنسة تشينتشى وهى تحدث صوتا فى الممر ..

وداعا « ماركولينى » ، وداعا « جوليانى » .. الآنسة تشينتشى عليها أن تذهب ، سيطردونها بعيدا .. وقد أصبحت عجوزا دون أن تحس ، وهى فى وسطكم ..

فى وسط الأطفال الذين يحدثون بقع الحبر ، والذين تحترق أصابعهم ، وبين المدرسين الذين يطلبــون أسنان ريش من الذهب ، وشريطا مثلث الألوان لحمله مضموما على قلوبهم الى المنزل ..

الى اللقاء « ماركولينى » ، الى اللقــاء « جوليانى » ، ستكونان فى السنة القادمة مع مدرسة أخرى .. لم تدرك أبدا أنك يا « ماركولينى » قد أحدثت بقعا صغيرة من الحبر ، وأنك يا « جوليانى » بك حرق صغير جدا لايراه أحد ..

وأنت يا أستاذ « باليانى » ، لو أردت قلم رصــاص أحمر وأزرق ، سوف تجول فى المدرسة دون أن تعرف ممن تطلبه !

وأنتم ، أيها المدرسون ، سوف تقتسمون ميراث كل هذه الأصص من الزهور ، ولكنكم ستميتونها ..

ـــ الى اللقاء .. يا آنسة تشينتشى ..

اننا سـوف نراك لمدة ما وأنت تتجولين حول المدرسـة ، حيث لن تستطيعى الدخول ، ويوجد هناك بعض الأشخاص الذين لايزالون ينطقون باسمك ولمدة ما ، وبعد هذا سينساك الجميع .. وأما « ماركولينى » الذى سيصبح فيما بعد تلميذا فى السنة الثالثة أو الرابعة ، فسوف يضحك من تلك المدرسة التى كانت تعطى أهمية كبيرة لبقعة صغيرة من الحبر !

والآن سوف يكون فى استطاعته أن يحدث بقعا كبيرة ، كما يشاء ، ودون أن يقول له المدرس كلمة واحدة ..

الفصل الحادى عشر

سر المدرس

انكم لا تعرفون المدرس جاربينى ــ انطونيو جاربينى ــ مدرس السنة الرابعة فصل «ب» ولكن تذكروا مدرسكم أيام كنتم صغارا ، أو أى مدرس آخر قد عرفتموه .. انه واحد من هؤلاء الآلاف المنتشرين فى جميع أنحاء ايطاليا فى مدارس المدينة وفى مدارس الريف ، ومن هؤلاء الآلاف الذين فى آخر الشهر يدخلون حجرة السكرتارية ــ بين السرور والقلق وخفقان القلوب ــ ليقبضوا مرتباتهم .. ان الظرف الذى يضم تلك الماهية خفيف ، كأنما يكاد يطير من لحظة لأخرى ، ولذلك يضعونه فى جيب الصديرى ويضغطون عليه بيد قوية كى لايهرب أو يطير مع الطيور !..

فكروا فى أى واحد من هؤلاء المدرسين الذين قد شابوا جميعا قبل الأوان .. انهم متعبون من أول النهار ، فان الظرف الذى يطير مع الطيور ليس كافيا للانفاق على الأسرة .. واذن لابد من العمل من الليل حتى الفجر ، عندما يسقط رأسه الى أسفل مثقلا بالنعاس وتقرأ على جبينه ــ منعكسة كما لو كانت ورقة نشاف ــ أرقام حسابات مخزن عقاقير أو بيت من بيوت التصدير .. اذن فهم متعبون حقا من أول النهار ..!

هل تتذكرون سترته ؟.. انها قد بليت من كثرة الاصلاح والبقع والقلب ، وأصبحت فى درجة تجعل أى انسان ــ حتى ذلك السائل الذى كان يرى كل صباح بجانب أحد أركان المدرسة ــ يهديها الى أحد الفقراء . ومع هذا فان المدرس يقول : انها تبدو لى جيدة .. وبعد كيها وتنظيفها من البقع ، يختال بها كالطاووس وهو يترك خلفه رائحة حادة من البنزين !

ولا تصل أبدا أحلام هؤلاء المدرسين الى الحصول على سيارة ، لأن كل واحد يحلم بما يستطيع .. وان أولئك المدرسين يصلون بأقصى تفكيرهم الى امتلاك دراجة ، ولكن ما دامت هناك رائحة البنزين فانها تمنح هؤلاء المدرسين ذلك الاحساس البعيد بامتلاك سيارة ، والذى يضفى وقارا على أحذيتهم الممزقة ، وياقاتهم المهلهلة ، وأربطة أعناقهم التى فقدت ألوانها ..

هل تذكرون قرص « نيوتون » ؟

عندما كان المدرسون يقومون بادارة قرص «نيوتون» بسرعة ، وتندمج ألوان الطيف السبعة فى لون واحد رمادى ، فانه لا يبدو أنه يكون مجموعا لتلك الألوان الزاهية .. ذلك هو لون رباط عنق المدرسين الذى لو رأيناه خلال منشور ثلاثى ، فسنحصل على السبعة الألوان الأصلية بعد انفصالها ، فيبدو ذلك الرباط المسكين مثل قوس قزح ..!

ولكن من ذا الذى يفكر فى أن يرى رباط عنق المدرس خلال المنشور؟ وأضيفوا الى ذلك ، هذا الحزن الذى يبدو على من يعرف أن حياته لن تتغير مطلقا ..!

فان الصوت الذى كان قويا مؤثرا يفرض السكون ، أصبح الآن يكاد لايسمع أبدا بل يرجو السكون .. واليد التى كانت تريد أن تشير الى فرنسا على الخريطة الجغرافية أصبحت ترتعش ، وحينئذ لن يعرف اذا ما كانت تشير الى انجلترا أو ألمانيا ..

لقد تقوس ظهره ، تحت أعباء ثقيلة لايراها التلاميذ ولا يشعرون بها ، لأن المدرس فى نظرهم ليس رجلا مثل غيره من الرجال .. انه مدرس وكفى !.. انه لايأكل ، ولا يشرب ، وليست له أسرة ، ولا يحتاج الى منزل .. انه مخلوق خاص ، يتجسم فقط من الثامنة والنصف صباحا الى الثانية عشرة والنصف ظهرا ، ثم يتلاشى ليبدو ثانيا فى الصباح التالى !

تخيلوا بعد ذلك صورة الاستاذ جاربينى ـ انطونيو جاربينى ـ معلم السنة الرابعة فصل « ب » الذى كانت له فى وقت ما عيون زرقاء أو سوداء ، وكان له شعر أشقر أو كستنائى ، وكان له أنف يونانى أو اقنى !

ولكن بعد عشرين عاما من الخدمة ، يصبح جميع المدرسين متساوين مثل أربطة العنق ، ويصبحون على حال واحد .. تفوح منهم رائحة البنزين ، ويقولون بنفس الصوت : « نزل « لينياس » (١) من المركب مع أبنه الصغير « آسكانيوس » عند مصب نهر التيبر » أو يقولون : « يملك السيد « لورنزو » قبة نصف كروية قطرها أربعة عشر مترا ، يريد أن يغطيها بصفائح النحاس » ..

ولكن المدرسين المسنين فقط ، هم الذين يقولون هذا .. أولئك المدرسون الذين كانوا يعيشون فى الوقت الذى كانت فيه مسائل الحساب محلاة بأسماء الأشخاص والأماكن .. فمثلا ، كان الأولاد يكتبون فى دفاترهم : « يشترى تاجر أقمشة عجوز قطعة طولها ٤٨ر٧٥ سم » ، أو « ان العمة ماتت ، وان جانيتو ولويجينو يريدان أن يحملا اليها زهورا ثمن الواحدة ٥٠ر ليرة وان جانيتو معه ليرة واحدة وان لويجينو معه نصف ليرة »

ولتاجر الأقمشة المسن هذا ، لحية بيضاء طويلة .. وما المانع من أن تكون هناك ببغاء ذات ألوان جميلة فوق كتفه ؟

كذلك تخيله الأطفال ، ويتخيلون أنهم يدخلون سعداء محل التاجر المسن ، وبينما يداعبون الببغاء يحلون المسائل الحسابية ..!

والعمة ؟.. مسكينة تلك العمة ، وتتساقط الدموع فوق الوريقات .. دموع التلاميذ الكبيرة الكروية التى تنزل على الورقة ، وتطمس معالم الحبر ، وهى تحدث بقعة مستطيلة تغطى كل الورقة !

و « جانيتو ولويجينو » اللذان يبدوان كأنهما يسيران نحو المقبرة ، ويتحركان داخل الضباب الخفيف الذى يظهر فى شهر نوفمبر ، وجانيتو معه عشرون زهرة ، ولويجينو عشرة ..

وها هى ذى المسألة قد حلت ، لقد حلت بنفسها أمام أسوار المقبرة وسط ضباب شهر نوفمبر ..

---

(١) ابن فينوس « الهة الحب والجمال » وانجيسى وهو بطل كتاب فيرجيليوس ، الشاعر الرومانى الكبير ، المسمى الاينيادة

واليوم تشرح المسائل الحسابية بطريقة مختلفة جدا ، فلا يوجد فيها أبدا عمّات ، ولا يذكر فيها قط أولئك التجار المسنون اللطفاء ذوو البغاء فوق الكتف ، ولا أولئك العملاء الغرباء الذين من أجل تمرين الأولاد على استعمال الأرقام العشرية كانوا يدخلون المحل ، ويسألون ببساطة دون أن يجد التاجر الصبور فى سؤالهم خروجا عن المألوف : ١٠٠١ر من المتر من القماش لعمل أى شىء ؟ انه لا يصلح حتى لعمل جيب صغير لقزم من الأقزام ولا « جونلة » لنملة !.. لا لشىء ، ولكنها فقط تمرين للأولاد على استعمال الأرقام العشرية !

وهذا السيد « لورنزو » الذى كانت عنده قبة يبلغ مقدار نصف قطرها أربعة عشر مترا ، والذى يريد أن يغطيها بالنحاس ؟

هؤلاء السادة المسنون المدعوون « لورنزو » والذين يرتدون حللا ذات مربعات حمراء وزرقاء ، وعلى رءوسهم قبعة كبيرة بيضاء مزينة بريشة صفراء .. هؤلاء السادة ليسوا من عالمنا ، انهم يعيشون ــ أو بالأصح كانوا يعيشون فقط ــ فى مسائل حساب السنة الرابعة والخامسة ابتدائى. وفى الربيع كانوا يعدون فى حديقتهم زهور الخوخ ، ويطرحونها من زهور اللوز ، ويقدمون الفرق الى العمدة الذى كان يبلغ طوله مترا وستين سنتيمترا .. انه خمس شجرة البلوط الكبيرة التى كانت ترى أمام البلدية وتنتج ثمرا خمس المعتاد

وكان الأولاد يحبون هؤلاء السادة ، ويدرسون الحساب بمحض ارادتهم .. أما اليوم فعلى النقيض من ذلك ، أصبح كل شىء جافا . أما الأسماء المؤثرة فى دروس التاريخ ، فقد حذفت .. وربما يعتبر المدرسون أن وسيلة التأثير فى الأولاد غير مناسبة للزمن الحديث !

وقد كاد المدرسون يعتقدون أنه من غير المناسب التأثير على التلاميذ . فان هذا يخالف العصور الحديثة

ومثال ذلك ان « انيا » لم ينزل أبدا مع ابنه الصغير « اسكانيو » عند

مصب نهر التيبر ، ولكنهم ببساطة يقولون : « اسكانيو » دون ذكر كلمة « الابن الصغير »

وهذا مثال آخر : ان « اميلكارى باركا » لم يحضر بعد ابنه الصغير « هانيبال » الى مذبح الاله ، ولكنهم يقولون « هانيبال » ، بدون ذلك الوصف « الابن الصغير » ذلك الوصف الذى يحلى ذلك الاسم الجاف ، ومن ثم يمنع الأطفال من أن يتخيلوا « هانيبال » فى سن التاسعة ، وعلى ذلك فهم يرونه وقد بلغ الأربعين ذا مظهر قوى ، وجسم ملىء بآثار الجروح .. وبهذه الطريقة فى تدريس التاريخ التى قلت فيها الصور المسلية اللطيفة ، تفقد تلك المادة خيالها الجميل ، وتفقد أيضا المسائل الرياضية اللطيفة جزءا من سحرها وخيالها ، فمثلا هذه المسألة :

« يقرأ ولد كتابا ذا أربعمائة وثمانين صفحة ، قرأ فى اليوم الأول ٣ ÷ ١٦ وفى اليوم الثانى ٥ ÷ ١٣ من باقى الكتاب ، فكم صفحة لم تقرأ بعد ؟ »

هذا الشاب الغبى المعقد .. ما أبعد الفرق بينه وبين السيدة العجوز الطيبة التى كانت تشترى ١٠٠ر من المتر من القماش !

وعندما يفاجأ الأطفال بمثل هذه الأنواع من المسائل ، فانهم لايهتمون بحلها فقط ، بل يفقدون أيضا كل شغف بالمطالعة ..

ولقد كان المدرس « انطونيو جاربينى » من هؤلاء المدرسين الذين كانوا يتبعون الطريقة القديمة . وحينما كانت تحين حصة الحساب ، كان الأولاد يحبسون أنفاسهم ، كى لا تضيع كلمة واحدة من مسائله التى كانت تفتح أمامهم عالما سحريا ، به شخصيات شاذة غريبة وغير مألوفة ..!

وتفتح هذه الطريقة القديمة للمدرس المسكين « انطونيو جاربينى » الذى كانت ماهيته « خفيفة كالريشة » عالما بعيدا عن كل زمان ومكان ، عالما كان يستطيع أن يعيش فيه أفقر الناس عيشة راضية ، ويستطيع أن يملك خيولا وعربات ، وتستطيع زوجته أن تشترى معاطف من فرو السمور !

ولقد كان المدرس « أنطونيو جاربينى » مدرس السنة الرابعه يعمد الى عالم الخيال كى لايموت !..

لقد كان هذا هو سرّه .. سرّ مدرس ابتدائى مسكين قد دُفِن ودُفِن معه سره ، وانى اليوم أظهره حتى يستطيع من يقلده أن يجد وسيلة دفاع ضد مشقات الحياة القاسية التى لايستطيع أحد أن يواجهها الا بانتمائه الى عالم غير مألوف !

ولكيلا يزعجه أحد ، وهو سابح مع التلاميذ فى دنيا الخيال ، فان الاستاذ « انطونيو جاربينى » كان يغلق باب الفصل بالمفتاح وهو يغطى عينيه بيديه ، حتى لايرى شيئا يعيده من جديد الى الواقع الذى كان يود الهروب منه ، وكان يبدأ فى الاملاء ببطء كلمة كلمة ، ليتمتع بالكلمات :

« دخل السيد « البرتو » محل بقالة ، واشترى شريحة كبيرة طويلة من « الجامبون » تزن ٣ر٧٥ من الجرام بمبلغ ٢٥ر من الليرة .. وكان فى بعض الأحيان لا يتمم الاملاء .. اذ كان يتوقف عند ذكر وزن تلك الشريحة الطويلة الكبيرة من « اللحم » واذا كان الأولاد يصيحون قائلين : « ولكن هذا مستحيل ياسيدى المدرس !.. » كان يضرب بقوة ، بعصاه الصغيرة على المكتب ، ليعيدهم الى السكون ..

مسكينة تلك العصا الصغيرة التى كانت تستعمل فقط فى اعادة الأولاد الى السكون .. ولكن المدرس « انطونيو جاربينى » كان يكتفى بذلك ، وهو قانع بالتذوق الخيالى لتلك الشريحة الكبيرة المبتاعة بمبلغ خمس عملات تساوى كل منها « سلدو » ، من تلك النقود الجديدة التى تبدو كالذهب ، وربما كانت ذهبا حقيقة ، ولكننا لم نعرف ذلك أبدا ..

ولم يكن المدرس « انطونيو جاربينى » يتوقف عند هذا الحد ، فقد كان يعجبه النبيذ .. ومن ثم كان يتخيل أن هذا الرجل كان يدخل عند محل بائع خمور ، عنده برميل يحتوى على ألف لتر من النبيذ الأصلى ، وكلفته فى جملتها مبلغ ١٢ر٤٢ من الليرة فكم ثمن اللتر ؟.. وبكم كان يجب عليه

أن يبيعه ثانية اذا أراد أن يربح فى كل عُشْر لتر ٠٠١٥ر من الليرة ؟
ياله من تاجر نبيذ طيب ..

« بسرعة يا أولاد .. » هذا ما أوصى به المدرس « أنطونيو جاربينى » تلاميذه ، فأسرع الأولاد فى عمل حساباتهم لارضاء المدرس . وكانوا يحصلون على مبلغ ضئيل جدا لكل لتر من النبيذ ، لدرجة أن المدرس كان يستطيع أن يشرب لترين ، ولكنه لم يشرب أبدا أكثر من واحد .. ذلك لأنه لايسره أن يبالغ ، وبخاصة أمام التلاميذ !

وكان وجهه يضىء بسبب كثرة الدم الدافىء الذى كان ينفخ الشرايين ..

وحينئذ لم تكن يده ترتعش بعـد .. وعندما كان يشير الى فرنسا ، كانت هى فرنسا وليست بانجلترا أو ألمانيا ..

كان للمدرس « انطونيو جاربينى » أربعة أبنـاء كانوا يبدون كأنهم أربع شمعات ، تستطيع أخف الرياح أن تطفئها .. وهى نفس الريح التى فى استطاعتها أن « تطيِّر ماهية » الوالد لو أرادت ..!

وكان الوالد ـ وهو فى المدرسـة ـ يفكر فيهم ، فـكان يملى تلك المسائل التى تسيل لعاب التلاميذ ، فيقول : « دخل رجل فى محل حلوى فى وسط المدينة ، ومعه أربعة أطفـال ، ودعاهم لاختيـار الحلوى التى تعجبهم ، وأخذ منها « جيلبرتو » اثنتى عشرة قطعة و « ماورو » ثمانى قطع ، و « لويجى » تسع قطع و « زينو » ـ الأكثر شراهة ـ خمس عشرة قطعة ، فاذا كان الثمن « سنتيما (١) لكل ثلاث قطع ، فكم ينفق الرجل ؟»

ومرات أخرى كان يملى : « عند السيد « بالدسارى » أربعة أولاد ظرفاء ، وحيويين ذوى قامات قصيرة لا تفوق قامات الخنافس .. وعندما يحين الشتاء ، ويجب عليه أن يزودهم بالملابس الثقيلة ، كان يدخل فى محـل تاجر مسن ويشترى بالجملة واحدا وعشرين سنتيمترا من قماش الصوف المدفىء الناعم ! »

---

(١) واحد من مائة من الليرة

كان المدرس « انطونيو جاربينى » بهذه الطريقة ، يستطيع أن يعيش « بماهيته الخفيفة كالريش » والتى كانت تعطيها له الدولة ..

وفى نهاية العام الدراسى ، كان قد ادخر مبلغا قيما ..

وهكذا كان مدرسو الابتدائى يستطيعون أن يدفعوا عن أبنائهم البرد القارس ، وهم يتخيلونهم صغارا كالخنافس ..!

وفى آخر أيام الدراسة ، كان الأولاد يدخلون الفصل مشبعين بحب الاطلاع ، وهم يتساءلون : « أى شىء يستطيع السيد « بالدسارى » أن يشتريه بما ادخره من المال ؟ »

وكانت تكفى نظرة واحدة الى عينى المدرس ، ليفهم أن السيد « بالدسارى » سوف يشترى لنفسه حصانا ..

مسكين ذلك المدرس ..

كان مثل جميع المدرسين ، فى آخر يوم للمدرسة ، أى ان صدره قد أصبح فارغا .. وكان يتحدث كما لو كان ينفث تلك الكلمات الأخيرة التى بقيت له ..

ونزل المعلم « انطونيو جاربينى » مترنحا من فوق مكتبه ، وأملى وهو مستند على المقعد الأول ، ما يأتى : « منذ ثلثمائة وخمس وستين يوما ، ادخر السيد « بالدسارى » كل ليلة ٥٠ر من الليرة فى علبة صغيرة من العاج ، فكم بلغ مجموع ما ادخره ؟.. واذا أراد أن يشترى حصانا ثمنه سبع عشرة ليرة ، فهل يستطيع دون أن يطلب أية سلفيات ، أن يشترى أيضا زوجا من الركاب المنكل الذى يشبه الفضة ثمنه ليرة وربع ليرة ؟ ! »

وجرت الأقلام فى الدفاتر ، وبعد قليل صاح « ليونى ماريو » الذى كان أسرع تلميذ فى حل المسائل : « نعم يستطيع » ثم أضاف قائلا : « السيد « بالدسارى » ادخر ثمانى عشرة ليرة ، وجملة ما بقى له ــ بعد أن أشترى الحصان ــ ليرة وربع ليرة ، ويمكن القول بأنه المبلغ اللازم للحصول على الركابات التى تبدو كالفضة » . ثم سأل « ليونى ماريو »

مدرسه : « سيدى المدرس : وكيف يكون الحصان ؟ » فأجاب المعلم أنطونيو جاربينى : « لونه أبيض ! »

ومنذ تلك اللحظة ، لم يتكلم بعد .. لأنه لم تكن لديه كلمات أخرى فى صدره الفارغ ، ويتأخر جرس النهاية ، وبدا فى أعين « ليونى ماريو » وزملائه ، منظر الحصان الأبيض الذى اذا نظر اليه انسان بدقة لايرى به أية نقطة سوداء . وكانت الركاب تبدو حقا كالفضة ، وتبدو رخيصة جدا عند التفكير فى أنها كلفته ليرة وربعا !

كان « انطونيو جاربينى » مدرس السنة الرابعة «ب» مشعا بنور السعادة ، وما كان يستطيع أن يتكلم بعد .. ولكن تلك الصفقة كانت تملؤه فرحا ، ولم تكن هناك حاجة الى أن يتكلم ليتفهم ذلك للتلاميذ الذين ـ فى لحظة معينة ـ صفقوا بأيديهم وهم سعداء ، وذلك لأنه فى فصلهم .. وفى فصلهم فقط يوجد حصان جميل ، وزوج جميل من الركاب !

وفى هذا الوقت ، كان المدرس يفكر فى نفسه قائلا : « لقد آن الأوان ، وقد وجب على أن أقوم برحلة ، بعد عدة سنوات قضيتها بين المنزل والمدرسة ، وبين المدرسة والمنزل ، وبين العمل الذى يستمر طوال الليل ، فيجعلنى لا أعرف خضرة الريف والزرقة .. لا أقول زرقة البحر ، بل ولا حتى زرقة بحيرة صغيرة بين الأشجار ..!

« والآن يجب علىّ أن أسرع قبل أن يدق الجرس ، لأننى لو لم أسرع فى القفز على السرج فسيختفى الحصان ..! »

وقفز فوق الحصان .. انه حاول القفز ، ولكنه سقط ، ولما لم يتحرك صاح الأولاد ، وجاء الفراش وبيده الناقوس ، وحضر المدرسون الآخرون وجميع تلاميذ المدرسة .. وكما كان يقول تلاميذ السنة الرابعة «ب» الذين لم يكن يصدقهم أحد فى أول الأمر ، من أن الاستاذ « جاربينى » لابد وأن يكون قد سقط من فوق الحصان العالى ، لأنه اذا لم يكن كذلك ، فكيف كان يمكن شرح أسباب موته ؟ !

وكان المدرس يضغط بيده بقوة على صدره ، ورفعها الحاضرون .. وفى تلك اللحظة ، رأى الجميع ظرفا قد أخـذ طريقه من النافذة ، وشـارك الخطاطيف فى طيرانها الدائم حول المدرسة ..!

وهكذا توفى المدرس الذى كان على الرغم من ضآلة مرتبه ، غنيا يأكل شرائح اللحم ، ويغذى أولاده الأربعة ، ويلبسهم الملابس الصوفية المدفئة الناعمة ، وهو الذى اشترى ذلك الحصان الأبيض ، انه حصان عال ذو ركاب من الفضة ، قد صعد عليه !

ولكن للأسف فى تلك اللحظة ، دق الفراش جرس النهاية !



الفصل الثانى عشر

قطعة النقود الذهبية

الآنسة مارينى مدرسة ما بعد الظهر .. تبلغ عشرين عاما ـ ولكن من المعروف عنها أنها لن تتزوج.. انها لا تضع المساحيق ، واذا حييتها تجيب بايماءة من رأسها ، جادة .. جادة ، كأنها راهبة . وحذاؤها بغير كعب ، واذا مشت لا تحدث صوتا ، ولا تتكلم الا همسا ، ولم أرها أبدا تلاطف طفلا .. ولو انها انقطعت عن المجىء ، فلن يهتم بذلك أحد !

اننى لا أعتقد أن الأطفال يحبونها ..

وجهها طويل ، شاحب .. وشعرها قصير أملس ، وعيونها كبيرة ، ولكنها تنظر اليك فترة طويلة ، ولا تستطيع أن تفهم عن أى شىء تعبر ..

وهى كل يوم عند الظهر ، وهناك فى آخر الممر ، وفى أحد الأركان ، تنتظر التلاميذ ـ وهى منتصبة تنظر أمامها ـ وان ذلك الركن الذى تقف فيه ، ليبدو أكثر ظلاما ..

تبلغ من العمر عشرين عاما .. وعندما تبلغ الأربعين ، ستظل كما هى اليوم ..

منذ كم سنة وهى فى هذه المدرسة ؟.. لا أحد يعرف ذلك ، لأنه لم يهتم بها أحد عندما جاءت . ولقد بدأت منذ أيام قلائل ألاحظ وجودها.. أحييها وتجيبنى بايماءة من رأسها ، انها جادة .. جادة وكأنها احدى الراهبات ..!

انها مدرسة مارتينيللى ..

وعنـد الظهر ، لايرجع مارتينيللى الى البيت ـ ككثير من التلاميذ الآخرين الذين تعمل أمهاتهم ـ وليس فى وسعهن الاشراف عليهم ـ ولكنه يأكل فى المطعم ، ثم بعد استراحة قصيرة ، يظل حتى المساء لكى يؤدى الواجبات تحت اشراف مدرسة فترة المساء ـ الآنسة مارينى ـ ويقول مارتينيللى :

ـ انها قاسيـة ياحضرة المدرس ، لاتريد منا أن نتكلم .. وفى وقت الفسحة لا نستطيع أن نلعب .. لابد أن نتكلم بصـوت منخفض ، واذا اتسخت أحذيتنا تنهرنا وهى تقول عنك : انك طيب أكثر من اللازم ، وتعطينا واجبات قليلة .. ومن ثم فانها تعطينا واجبات أخرى .. وتعطينا قصائد شعرية طويلة .. طويلة ..

مسكين مارتينيللى .. انه يقول :

ـ لقد صادرت منى صفائح مذهبة

وها نحن أولاء نسمع دقا على الباب .. انها هى ..

وبايماءة صغيرة من رأسها ـ ودون صوت ـ تصل الى المكتب الذى أمامى ، وتقول :

ـ هل حضرتك الاستـاذ موسـكا ؟.. أرجوك أن تذكّر التلميـذ مارتينيللى بمراعاة النظام ، انه كثير الحركة ، لايذاكر .. يعطى مثلا سيئا للتلاميذ ، وبدلا من أن يؤدى الواجبات ، يلعب بتلك الصفائح .. !

وأقول : « آه كم أنا متألم وآسف ، يلعب بها فى مثل تلك السن .. ألا تستحى يا مارتينيللى ؟ »

وينهض مارتينيللى واقفا على قدميه ويقول : « لا ياحضرة المدرس »

وأصيح : « وهذا أسوأ .. ألا تستحى ؟ »

ثم أتوجه الى الآنسة قائلا : « سأعنى بهذا الموضوع .. وعلى أية حال ، فانى أشكرك على تنبيهك .. وأؤكد لك أن مارتينيللى لن يلعب بها .. اننى أظن أكثر من هذا انه لايذاكر محفوظات الشعر التى تعطينها .. »

وتقول الآنسة : « أبدا يا أستاذ موسكا ، منذ ثلاثة أيام وأنا أسأله فى قطعة منها .. فلا يحفظ منها كلمة !.. »

وأصيح : « ردىء .. كم هو ردىء مارتينيللى ، اننى أعدك يا آنسة انه سيحفظ الشعر جيدا ، الذى يقول : « مثل كتلة تنزل من القمة ... » هل معك تلك الصفائح المذهبة ؟ .. وتجيب الآنسة : « نعم .. ولكنى لن أردها له الا فى آخر العام » وأقول : « حسنا تفعلين يا آنسة » وتجيبنى : « الى اللقاء .. يا أستاذ موسكا » وأقول : « الى اللقاء يا آنسة مارينى » وتخرج فى سكون .. فأقول : « مارتينيللى !.. يؤسفنى أن الصفائح الذهبية لن تأخذها الا فى آخر العام .. حاول أن تكون طيبا بقدر المستطاع ربما تردها اليك قبل ذلك الوقت . ربما لو حفظت قطعة المحفوظات ، تردها اليك فورا » . ويقول مارتينيللى : « اننى لا أفهم منها شيئا ياسيدى المدرس » فقلت له : « هذا لايهم .. احفظها » وسألته قائلا : « ماذا كنت تفعل بالصفائح ؟ » فأجابنى : « أصنع منها النقود ياسيدى المدرس .. »

لقد كنت أنا أيضا أفعل ذلك عندما كنت صغيرا — نفس الصفائح الذهبية والنقود التى كنت أصنعها منها — اننى أعرف مدى حزن مارتينيللى !

قطعة نقود من فئة المليمين ، وصفحة من ذلك القصدير المذهب .. عندما تضغط بالأصبع يمكن أن تكون قطع نقود كثيرة كما تريد ، وذهبية .. انها نقود خفيفة .. خفيفة كان من الممكن شراء كل شىء بها : قصور رائعة ، خيول بيضاء ذات أجنحة ، وأحذية طويلة مسحورة من يلبسها يقفز سبعة أميال ، وأسلحة براقة ، ودروع سحرية .. جميع الأشياء الجميلة الموجودة فى القصص الخيالية والتى لايمكن شراؤها بالنقود الحقيقية ، ولكن بتلك النقود الخفيفة التى نصنعها بضغط احدى الرقائق على قطعة من فئة المليمين !

ولقد كانت عند مارتينيللى حزمة من تلك الرقائق .. وكان بسببها أغنى

ولد فى العالم !.. ولكن الآنسة مارينى قد صادرتها .. كيف أصبح مارتينيللى هكذا مسكينا ؟ !

وكأنما لم يكفها هذا ، لقد كان عليه أن يحفظ عن ظهر قلب قطعة المحفوظات !..

وأقول : « اسمع يا مارتينيللى .. انت تحفظ القطعة ، وأنا أحاول أن أساعدك بطريقة أخرى ، ربما أستطيع أن أعيد اليك ما أخذته الآنسة .. »

وفى أثناء الشتاء ، لم تكن تلهيه الذبابات ولا الفراشات التى كانت أحيانا تطير فى فناء المدرسة .. ومن ثم كان من السهل على مارتينيللى أن يحفظ المحفوظات . ولكن والوقت ربيع .. ابتدأ ذلك الفصل منذ أيام قليلة ، وتلك الرقعة من السماء التى نراها من فناء المدرسة تمتلىء بالخطاطيف وخصوصا قرب المساء ، أى فى الساعة الأخيرة من فترة ما بعد الظهر .. والشجرة .. الشجرة الوحيدة أزهرت ، والممر أصبح منيرا ، وتساقطت أشعة الشمس على أرضيته ، وكيف يستطيع مارتينيللى أن يحفظ المحفوظات ؟.. ولايزال هناك فى الممر ركن مظلم ، وهو ذلك الذى عند الظهيرة نرى فيه الآنسة مارينى منتصبة مستقيمة تنتظر منى أن أسلمها تلاميذ ما بعد الظهر . وبمجرد أن تتسلمهم الآنسة مارينى لايضحكون ، يصبحون جادين .. ويحيينى مارتينيللى بعينيه ، مسكين .. مسكين مارتينيللى ، انه بغير النقود الذهبية ..

لقد جاء الربيع منذ أيام قليلة ، ولكن التلاميذ يحضرون لى الزهور التى قطفوها من المروج أو سرقوها من تل أوبيو . وأدخل الفصل ، وأجد كثيرا من تلك الزهور على المنضدة التى أمامى ، وأقول : « مارتينيللى .. سوف تسترد الصفائح .. »

وأصنع من كل تلك الزهور باقة جميلة ، وعند الظهر أقدمها للآنسة ..

— آنسة مارينى .. هل تسمحين ؟

وفورا تبدأ فى رفض الزهور ، ولكنها بعد ذلك تأخذها وتشكرنى دون أن تنطق بكلمة ، ودون أن تنظر الى ، وانما ايماءة صغيرة من رأسها ،

وأقول : « يا آنسة ، ان مارتينيللى سيحفظ قطعة المحفوظات ، خلال أيام قليلة ، كما وعدتك »

وفى اليوم التالى ، زهور أخرى .. وليس هذا فقط ، ولكن مارتينيللى وقد حفظ قطعة المحفوظات ، يقول لى وهو فى غاية السرور :

ــ سيدى المدرس ، لقد تعبت كثيرا فى حفظها .. وأجبته : « ولكنها الطريقة الوحيدة لكى تسترد الصفائح الذهبية ! »

وفى كل يوم يحضر لى التلاميذ الزهور ، وفى كل يوم ــ عند الظهر ــ أضعها بين ذراعى الآنسة مارينى ..

انها لا تبتسم فى وجهى ، ان الابتســام أكثر من اللازم .. ودون أن تنظر الى تقول : « شكرا »

وفى يوم ما ، ها هى ذى تنظر الىّ ..

ماذا حدث فى لحظة لتلك الأعين ؟

وفى يوم آخر ، التفتّ واذا بى أراها تقرب وجهها من باقة الزهور ، كى تتنسم عبيرها .. وتلحظنى فتنتصب مستقيمة لتنظر أمامها كالمعتاد ..

وأسأل مارتينيللى : « كيف الأحوال فى فترة ما بعد الظهر ؟ »

ــ لقد أصبحت المدرّســة طيبة .. انها لا تنهرنا كثيرا ، وفى الفنــاء نستطيع الجرى الآن ..

ــ هل أسمعتها قطعة المحفوظات ؟

ــ نعم .. والآن قد أعطتنا قطعة أخرى ولكنها لطيفة . لقد حفظتها بسرعة ، انها « سان فرانشيسكو الصحراوى » انها تلك القطعة الخاصة بفتيات بورانو اللاتى يجرين فى الشارع بقباقيبهن (١)

هناك من يدق على الباب .. انها هى ، لقد أصبح كعب حذائها عاليا وفى يدها شىء .. وتتقدم قائلة :

---

(١) « يا لها من قباقيب رنانة ..
« على رصيف الشوارع
« آه لجزيرة بورانو ذات التطريز الجميل
« آه لجزيرة بورانو ، جزيرة الحب ..

ـ أستاذ موسكا .. ها هى ذى صفائح مارتينيللى الذهبية

ـ شكرا يا آنسة .. ولكن اذا كان مارتينيللى يستحقها حقا ، فانما يرجع هذا الى طيبتك .. واذا لم أخطىء ، فانك قد قلت له انك ستعيدينها اليه آخر العام

ـ نعم .. ولكنه الآن يذاكر ويحفظ المحفوظات ..

ـ سمعت أنه يجرى فى الفناء ، ويحدث ضوضاء ...

ـ نعم ... ولكن ...

مسكينة الآنسة مارينى ، لقد كانت تود أن تقول : « نعم ، ولكننا فى فصل الربيع .. » ولكنها تخاف من تلك الكلمة ، وتخفض عينيها اللتين كانت قد رفعتهما منذ لحظة كى تنظر الىَّ . ربما لم يكن ينبغى أن أهديها كل تلك الزهور .. لقد ارتكبت خطأ !

ان كعب حذائها عال الآن .. وهى دائما تلبس ملابس سوداء ، ولكن شعرها قد تموج . وعلى أظافرها أرى قليــلا من الطلاء الأحمر . لقــد أخطأت أنا .. انها لا تعرف أن تلك الزهوركانت من أجل صفائح مارتينيللى الذهبية . ومن خلال النافذة ، ترى تلك الرقعة من السماء الزرقاء ، وتمر الخطاطيف كل لحظة ..

لقــد استرد مارتينيللى صفائحه ، وهو يضمها الى قلبه .. انه سعيد و « غنى » مرة أخرى . وفى الفصــل سكون عميق ـ ولا أدرى ماذا أقول ـ وأتمنى ألا تبتسم الآنسة . اننى أتمنى ذلك من أجلها .. كم هى مسكينة الآنسة مارينى ؟ ! ولكن رويدا رويدا ترفع بصرها وتنظر الى (لماذا .. لماذا أهديتها تلك الزهور ؟) وترتعش عيناها .. وتبتسم .. يا الهى ما أقبحها عندما تبتسم .. لا ، انها لن تتزوج أبدا .. مسكينة الآنسة مارينى ..

وأصيح فى التلاميذ : « سكوت يا أولاد ! »

ان التلاميذ لايتكلمون ، ولكنى أنا الذى أحس بالحاجة الى أن أحطم ذلك الحزن ، وألا أرى ذلك الابتسام ، وأقول : « آنسة مارينى ، اننى

أشكرك باسم مارتينيللى ، ذلك التلميذ الشقى ، والذى لم يكن يستحق كل هذه الطيبة منك »

ويختفى الابتسام عن الشفتين ، ولكن هناك فى القلب .. هناك الأمل !

وتجيب الآنسة مارتينيللى : « لا ، لا .. ان مارتينيللى تلميذ نبيه ، كان يستحق صفائحه .. الى اللقاء يا أستاذ موسكا »

وتنصرف . لقد فهمت هى كيف كان مارتينيللى يتألم لفقد صفائحه .. تلك الزهور جعلتها تفهم كل شىء !

والآن ، أصبح البقاء فى المدرسة بعد الظهر متعة للأولاد ، انهم يلعبون ويجرون — وحتى لو تسلقوا الشجرة فان المدرسة لا تقول لهم شيئا — ومارتينيللى يسك نقوده الذهبية ، ويشترى — دون انزعاج — قصورا رائعة سحرية ، وخيولا بيضاء ، لها أجنحة ، وأحذية طويلة سحرية ، وأسلحة براقة . من يدرى — ربما تكون الآنسة مارينى لم ترد واحدة من تلك الصفائح الذهبية لكى تستطيع أن تصنع منها بعض النقود الخفيفة ! الخفيفة جدا ، لكى تشترى بها بعض أحلامها ..!

والآن ها هو ذا الركن الذى كانت مارينى عند الظهر تنتظر فيه التلاميذ ، لم يصبح مظلما .. لقد أصبحت مارينى تلبس فساتين زاهية اللون . وتابعت ارسال الزهور ، وبالأمس لم يحضر التلاميذ الزهور ، ولكنى أرسلت فى شرائها .. وسوف أستمر فى ارسال الزهور حتى نهاية العام ، ثم لن أراها أبدا ، لأنى سأترك مهنة التدريس ..!

وستبقى لدى مارينى المسكينة ، ذكريات انسان كان يهديها كل يوم كثيرا من الأزهار .. انها لن تعرف أبدا أن الأزهار ما كانت من أجلها .. انها ذكريات انسان أعطاها درسا ، وعلمها ألا « تصادر » من التلاميذ صفائح ذهبية ، كانوا يصنعون منها النقود !

وستفكر بعد سنوات عديدة عندما ترجع الى الملابس السوداء ، والى الحذاء ذى الكعب المنخفض ، والى الشعر المرسل ، وهى صامتة لا يهتم بها الجميع .. وسترى التلاميذ فى ذلك الركن المظلم ، وستتذكر انه كان

هناك انسان ، ربما أحبها فى يوم من الأيام .. لقد كان مدرسا شابا ، من يدرى الآن أين هو ؟.. وستكون دائما طيبة مع التلاميذ ، وستعلمهم قطع المحفوظات اللطيفة ، وستحفظهم :

« يالها من قباقيب رنانة ..

« على رصيف الشوارع ..

« آه لجزيرة بورانو ذات التطريز الجميل ..

« آه لجزيرة بورانو جزيرة الحب ..

وهناك فى أحد الأدراج ، ستحتفظ بقطعة من النقود المذهبة الخفيفة .. الخفيفة .. التى اشترت بها ذات مرة أحد الأحلام . انها الشىء الوحيد الجميل فى حياتها وهى قطعة النقود الذهبية التى صنعتها من الصفائح الرقيقة ، والتى قد أخذتها من مارتينيللى منذ سنوات عديدة ..

ادريانا كوراتشينى

أخرجت شجرة الفناء منذ بضعة أيام أولى وريقاتها .. انها وريقات من ذلك الورق الاخضر الغض الجديد الذى لايرى الا فى أوائل أيام الربيع ، وانها لمعجزة تبقى وقتا قليلا ــ من الفجر حتى الغروب ــ ومن هذا الوقت القصير قد توجد ساعة ، ومن تلك الساعة توجد دقيقة .. انها تلك اللحظة التى تبلغ فيها معجزة هذه الخضرة غايتها .. انها وريقات صغيرة نستطيع بالجهد أن نراها ، ولكن دون أن نلمسها .. بسبب ذلك اللون الرقيق الذى يحس به القلب دون أن تلحظه الأعين .. ذلك اللون الذى تغير عما كان عليه منذ فترة من الزمن ، وغدا سيصبح لونه داكنا كأن ظلا وقع عليه ، ولن يبقى من المعجزة الجديدة الغضة الا الذكرى والأسف .. وريقات تبدو واضحة ومبعثرة على الفروع السمراء التى تتراءى كأنها لازالت عارية بعد ، وتبدو فى الظل وكأن الشمس تضيئها ..

انها معجزة تستغرق لحظة قصيرة ، رقيقة ، كالبراءة التى نلحظها فى أعين الأطفال الصافية ، ثم تأخذ فى الاختفاء .. وغدا ، بقلب منقبض ، سندرك أن ظلا قد أخفى ذلك الصفاء الذى نراه اليوم فى تلك الأعين ..

هناك من يقرع باب الفصل .. وتدخل بخفة ورشاقة على أطراف أصابعها « ادريانا كوراتشينى » وهى تلميذة بالسنة الخامسة «جـ» ، كما هو مكتوب بخيط أحمر على مريلتها البيضاء .. انها طفلة نحيلة شقراء زينت ضفائرها بشريطين سماويين ، وكانت عيناها أيضا سماويتين .. بيد

أنى لا أراهما الا لحظة واحـدة فقط لأنها تخفضهما فورا عنـد وجود الأولاد ، وتقول لى دون أن ترفعهما ، كأنها تنشد قطعة محفوظات :

ـ سيدى الاستاذ موسكا ، ان مدرّسة الأناشيد بالفناء تنتظر تجربة « الكورس » ولم يبق الا فصلك ..

ويضحك الأولاد ، ويتضاربون بأكواعهم وهم ينظرون الى الطفلة .. ولكنهم يخفضون أبصارهم فى الحال . وهناك فى آخر الفصل انطونيللى يحمر وجهه خجلا ، ومارتينيللى وحده ينظر اليها مبتسما .. انه التلميذ الذى أحضر لى هذا الصباح مجموعة من أزهار « المارجريت » واحتفظ لنفسه بزهرة وأدخلها فى عروة المريلة على قلبه .. !

وبعد تحية جميلة ، تنصرف « ادريانا كوراتشينى » بخفة ـ كما أتت ـ وهى تخفض عينيها كعادتها ، وتصلح قليلا من رباط ضفائرها

أغلق الباب ، ولكن مارتينيللى ما زال ينظر تجاه الباب ، وهو يبتسم ..

وصلنا الى فناء المدرسة متأخرين ، فوجدنا مدرّسة الأناشيد ، وقد وقفت بين الأولاد .. البنات فى جانب ، والبنون فى الجانب الآخر ..

كانت طويلة جدا ، بارزة العظام ، ترتدى ملابس سوداء ، وتضع فوق عينيها نظارات تنزلق على أنفها المستطيل من حين لآخر ، غير أن شريطا مثبتا فى عروة سترتها كان يمنعها من السقوط ، فتتحرك باستمرار على صدرها كبندول الساعة . والأولاد يتمتعون كثيرا بهذا المنظر ، ولمـاذا جرت العادة على أن تكون المدرسات اللائى يدرسن الأناشيد ـ وهو فن جميل ـ من الدميمات ؟.. لا أحد يدرى !

وأوقف الأولاد فى صفوف مع بقية الطلبة ، بينما تنظر الى المدرّسـة شزرا ، وفى عينيها امارات اللوم والتبكيت .. وأتظاهر بالاضطراب لهذه النظرة ، ثم ترتفع العصا بينما تسقط النظارات عندما تبتدىء فى حركتها ، وينشد الأطفال الأغنية :

« أيتها الشمس التى تشرقين فى حرية وحيوية .. »

انه النشيد الذى ينبغى أن ينشده الأولاد ـ بعد أيام ـ أمام حضرة

المفتش والسيدة المديرة .. الوقت بعد الظهر ، وجميع النوافذ التى تطل على الفناء مفتوحة على مصاريعها ، والشمس تكاد تغرب ، وقد أضاءت ما ارتفع منها ، والأغنية تعلو حتى تصل الى الخطاطيف التى تطير ، وهى على شكل دائرة فى ذلك الجزء من السماء الذى نراه ، وهى تغنى دون أن يطغى غناؤها على الكورس !

وتسمع أصوات البنات الحادة .. وأما تلك الأصوات الأكثر غلظة فهى أصوات الذكور ..

« أيتها الشمس التى تشرقين فى حرية وحيوية ... »

ويُرى جميع الأولاد فى مرايلهم الزرقاء فى الصف الأول ، كما تُشاهد زهرة «المارجريت» البيضاء الموضوعة فوق قلب مارتينيللى الذى يبتسم ، وهو ينظر الى البنات كأنهن أخوات صغيرات ، ثم ينظر الى « أدريانا كوراتشينى » التى تبتسم له وهى تحدق فى زهرته .. والشجرة فى الظل ، غير أن الوريقات تبدو كأنها ما زالت مضاءة بنور الشمس . ويخيل الى أننى أستطيع أن أميز من خلال الأصوات الكثيرة ما هو أكثر صفاء ، ألا وهو صوت مارتينيللى وصوت أدريانا كوراتشينى . وأقول لهما : « حسنا ، لقد أديتما النشيد على أكمل وجه » .. وتبدو المدرسة راضية وهى تفكر فى علامات الاعجاب البسيطة التى ستظهر من حين لآخر على وجه السيد المفتش وحضرة المديرة ، وهما يستمعان الى النشيد وهما جالسان فى الصف الأول على الأرائك الحمراء المذهبة !..

وعادت النظارات فوق أنف المدرسة ، بينما ينظر الأولاد الى البنات وهم يضحكون ويتهامسون ، وأرى « كريبا » يأتى بشىء لم يأت بمثله قط فى حياته .. انه يصفف شعره الذى لم يكن منظما أبدا بيده الصغيرة .. أرى « سبادونى » ينظف فمه المغطى بالشيكولاتة بكم مريلته . أما « فنتورينى » فيتوارى خجلا خلف الأولاد الذين يفوقونه لأنه كان حليق الرأس . وتضحك البنات أيضا دون سبب ظاهر ، انهن يضحكن على أشياء لايعرفن ما هى ، وهن منفعلات ينظرن من أسفل الى الأولاد .. ويعدّلن

ملابسهن ، وشعورهن ، وأشرطتهن ، وأربطة الرقبة السماوية اللون التى فوق المرايل البيضاء ..

وكان « مارتينيللى » و « أدريانا كوراتشينى » همـا اللذان تتلاقى نظراتهما دون أن يخفضا بصرهما ويبتسمان ، ولم تصبغ الشمس غير سطح المدرسـة بلون أشعتها الحمراء ، وتعود العصا الى الارتفاع ، وتعود النظارات كذلك الى التأرجح !..

« أيتها الشمس التى تشرقين بحرية وحيوية .. »

تجربة أخرى ، وتنصرف بعدها المدرسة مسرعة ، وصدرها يرتفع بفخر كأنها ابتلعت شجرة من أشجار الدردار !

وغربت الشمس ، وقد بقى منها أثر فى السماء لايزال أحمر اللون ، ولكن قليلا من اللون البنفسجى يصبغ الوجوه ، والهواء صـاف رقيق كعادته عند الغروب فى فصل الربيع ، وتسمع الأصوات عالية ، كما تسمع أصوات الخطاطيف التى لا تغرد ولكنها تصيح ..

ويمتد الظل فوق الشجرة ، وبعد قليـل سـوف لايرى الجذع ولا الأغصان .. ولكن سترى فقط تلك الوريقات الخضراء مضاءة ، وكأنها معلقة فى الهواء ..

وأقول : « تستطيعون أن تلعبوا أيها الأولاد »

ولكنهم لا يلعبون ، بل ينظر بعضهم الى بعض خجلين .. لماذا ؟

خجلوا من أن يتقاربوا ، أو من أن يتشابكوا بالأيدى ، أو أن يكونوا دائرة ، أو أن يقفوا كالأعمـدة الصـغيرة ، أو أن يلعبوا لعبـة الكلب والأرنب الجبلى !

ويتابع فنتورينى الاختفاء خلف الزملاء كى لايرى البنات رأسه الحليق مَن فى مثل هذا الهواء الصافى المنعش ، الذى تدوى فيه الأصوات بقوة ، لديه الشجاعة ليبدأ بالكلام ؟.. لاشك انه « مارتينيللى » الذى يتقدم وهو يبتسم تجاه « أدريانا كوراتشينى » التى تبتسم له ، ويأخذها من يدها ، ويقول لها :

ـ أية لعبة نلعبها ؟

وبدأ الآخرون أيضا فى التحرك ، يأخذ بعضهم بأيدى البعض .. طفل وطفلة ، طفل وطفلة ينظمون حلقة ، وبقى خارج الحلقة انتونللى .. انه فارع الطول ، عمره اثنا عشر عاما تقريبا .. وترى سحابة فى عينيه ؛ والمفروض أنه يجرى حول الحلقة ويلمس ظهر زميله الذى يجب عليه أن يترك موضعه بمجرد أن يلمس ، ويجرى عكس اتجاه أنتونللى .. يجرى كى يصل الى المكان الخالى قبل زميله . ويسرع أنتونللى قليلا

ترى من عساه يلمس !.. ربما طفلة ، ولكن تنقصه الشجاعة . وأخيرا استقر به الرأى ، فلمس ظهر طفلة ..

وصرخت الزميلات : « اجرى ، اجرى ياجولييتا » وشاركهن الأولاد ، وأخذوا يشجعون الطفلة لأن أنتونللى ثقيل الظل ، وله ساقان طويلتان .. وعلاوة على ذلك فانه لم يبلغ السن التى يقبل فيها الشاب بأن يترك الفتاة تسبقه ويظهر « الشهامة » !

وتجرى الطفلة السوداء الشعر والعينين ، تجرى هى أيضا بخفة ، ولكن أنتونللى قد سبقها فى نصف الشوط الأول . وفجأة ، وبين صيحات السرور ، ينزلق ويسقط .. فتتسلخ يداه وركبته فوق الحصى ، وتسبقه جولييتا ، وعندئذ يصيح الأولاد :

ـ انتصرت جولييتا .. انتصرت جولييتا ...

واختفت الخطاطيف ، ويجب على انتونللى أن ينال العقاب الآن ، ويتساءل الأولاد : « بم نكلفه أن يعمل ؟.. » هل نطلب منه أن يطوف بالفناء ، وهو يقفز على قدم واحدة ؟.. أم نتركه يذهب الى المدرس وينحنى أمامه ، ويسأله :

ـ كم الساعة الآن ياسيدى المدرس ؟..

ويصيح الأولاد : « ليلاطف جولييتا .. ليلاطف جولييتا »

ويحمر وجه أنتونللى خجلا .. ويضحك بطريقة سخيفة ، ويقترب من

الطفلة ، ولكنه سرعان ما يعود الى الخلف ويطلب منهم أن يغيروا العقوبة ، وأخيرا بعد أن شجعوه ، وبعد أن دفعوه ، يمد احدى يديه .. لا ، ليست لديه الشجاعة ليلاطف جولييتا ، وينزوى فى ركن من الفناء فى الظل .. ويستأنف الزملاء اللعب من جديد ، والآن يأتى دور مارتينيللى فهو الذى يجرى حول الحلقة وهو يعرف مقدما من سيلمس : « أدريانا كوراتشينى » ، ويجرى كلاهما فى خفة ورشاقة على الحصى ، ويسمع لأقدامها على الحصى صوت خفيف ، ويتهامس الأطفال : « من سيفوز ؟ ويصلان معا تقريبا ، ولا يعرف أحد من الذى فاز منهما » : « فازت الطفلة ، ولكن لابد أن ينال مارتينيللى العقاب ! »

لا يخجل مارتينيللى ، بل يرى مسرورا ، ولا يزال يلهث ، ثم يقترب من أدريانا كوراتشينى ، ويربت بيده على خدها ، وينزع وردة المارجريت ، ويهديها اليها ..

مضى الوقت ، وربما لم تبق سوى دقيقة واحدة تظهر بعدها النجوم ، ومع ذلك فان وريقات الشجرة ما زالت ترى .. وربما كان ذلك اليوم بالنسبة لها يوم المعجزة . ويخيم الظلام رويدا رويدا ، ويتكلم الأولاد بصوت خفيض ، وتنتابنى رعشة من البرد .. كم تبدو عن بعد تلك الخطاطيف التى كانت تغرد منذ نصف ساعة فوقنا ، وعند ذلك أقول : « الى البيت يا أولاد ، فان الوقت متأخر » . فيقترب الأولاد من الباب على أطراف أصابعهم خشية أن يحدثوا صوتا ، فانهم يقتربون من الباب وينقسمون الى مجموعتين من جديد .. مجموعة فيها البنون ، والأخرى فيها البنات ، ولا يحيى بعضهم بعضا .. ولا يتبادلون تحية المساء عند باب المدرسة ، وأنتوناللى ليست لديه الشجاعة لينظر الى الطفلة الصغيرة ، ذات الشعر الأسود ، ولكن أدريانا كوراتشينى ، ومارتينيللى يعبران الفناء فى بطء ، متشابكى الأيدى .. وقد انتقلت الزهرة اللؤلؤية من فوق قلب الولد الى فوق قلب البنت ، وتسأله : « من أين تحضر هذه الزهور الجميلة ؟ »

فيقول : « من تل أوبيو ، فهناك كثير منها .. وكل صباح أحضر باقة للأستاذ ، ألم تذهبى قط الى تل أوبيو ؟ »

ــ أبدا .. فان الطفلة تبقى دائما بالمنزل بعد الظهر ..

ويقول لهـا : « اذا أتيت ، فسـنبحث عن الحلزون المختـفى تحت النباتات ، وسننشد بعض الأغانى لنحمله على أن يخرج من القوقعة .. اخرجى ، اخرجى أيتها القرون » ان مارتينيللى لايعرف التاريخ ، ولا يعرف الجغرافيا ، ولكنه يعرف جميع الأغانى التى تجعل الحلزون يخرج من قوقعتـه ، والتى تجعل « حشرة أبى العيـد » تطـير ، وتبقى على الزهور تلك الفراشات التى يمسكها بأصبعيه ، ويمكث بعد ذلك مدة طويلة دون أن يلمس بهما أى شيء حتى لا يحرمهما ذلك المسحوق الذهبى والفضى ، ذا النقوش البديعة التى تتركها الأجنحة على أصابعه ..

ويقول : « اذا أتيت ، فسنأخذ بعض حجارة الزند التى تطلق شررا بمجرد الاحتكاك ، وسـنقدح شررها بسن الريشـة .. هل تستطيعين أن تفعلى ذلك ؟ »

ــ أنا ؟ ! لا .. ألا تحرق ؟

ــ انها لا تضر

وتستمع « أدريانا كوراتشينى » ، وفمها مفتوح ، الى كلمات مارتينيللى وكأنها خرافات ، ويستطرد قائلا :

ــ كيف تستطيع شرارات الزند أن تحرق ما دامت أرواحا ؟

وقد تألق نجم صغير فى سماء فناء المدرسة ..

وهناك فى تل أوبيو حارس لا يقول شيئا اذا دخلنا أحواض الزهور

وعند الباب الخارجى يفترقان ، فان منزل الطفـلة يوجد فى مكان ، ومنزل مارتينيللى فى مكان آخر ..

ويقول لها : « طاب مساؤك يا أدريانا »

وتنصرف الطفلة ، ومعها زهرة مارتينيللى والتى دونها أصبح الثقب وحده على قلب مارتينيللى ..

ـ أدريانا .. أدريانا .. اذا أتيت ، فأحضرى معك سن ريشة جديد ـ لأن السن القديمة لا تقدح الشرر !..

ليس هناك أى أثر لحقد أو ضغينة فى قلب مارتينيللى .. ترى الى متى ستدوم هذه البراءة التى تقرأ فى عينيه الصافيتين ؟.. ربما يكون ذلك غدا ، انه ذلك اليوم الذى لايذهب فيه اطلاقا لمقابلة « ادريانا كوراتشينى » ولا يأخذها من يدها

البراءة !.. انها المعجزة القصيرة الأمد والرقيقة ، التى لا يمتد بها الزمن أكثر من امتداد خضرة وريقات الربيع .. وقد يراد لها أن تدوم ، وقد يراد أن تظل كما هى ، ولكن بمجرد الاحساس بها تتغير عما كانت عليه منذ لحظة مضت ، فان أول خيط من الظل قد وقع عليها .. ومثلها فى ذلك مثل خضرة الوريقات البديعة التى لا تدوم سوى يوم واحد .. ان الربيع جميل فى تلك اللحظة التى يبدأ فيها ، وبعد ذلك لا يبقى منه الا الذكرى والأسف !..

الفصل الرابع عشر

كنز الاستاذ باليانى

اليوم ـ بعد أربعين عاما قضاها فى التعليم ـ يحال الأستاذ باليانى الى المعـاش .. وفى منتصف الساعة الواحـدة ، بعـد انصراف الأولاد من المدرسة ، سيلقى المدير خطبة يعقبها حفل وداع ، وسيقدمون اليه قدحا من الفرموت ..

مسكين الاستاذ باليانى !.. سيقدمون اليه هذا الكوب من الفرموت ، وبعض البسكوت ، ثم ينصرف بعدها .. ولن نراه أبدا !..

لقد تقوس ظهره ، وابيض شعره ، وأصبح يرتدى المعطف حتى فى شهر مايو ، ولكيلا يجشمه المدير مشقة صعود السلم ، أعطاه الفصل الموجود بالدور الأرضى .. حيث يوجد قسم الروضة ،وحيث يوجـد الأطفـال الصغار فى زيهم الأبيض ، يلعبون بقطع الطباشير الملون ، ويبنون البيوت الصغيرة والأبراج من الزهور ، ويسيرون فى الطرقات متشابكى الأيدى .. وفجأة يجهشون بالبكاء وينادون أمهاتهم ، ويهربون ناحية الباب ، وتتبعهم المدرسات الشـابات اللائى لا تتجاوز أعمـارهن عشرين عاما ، واللائى يصحن طوال اليوم .. فاذا ما أقبـل المسـاء ، تكون أصـواتهن قـد بحّت . وفى نهاية الممر ، يوجد فصل الاستاذ باليانى .. الفصل الخامس . ومن ثمّ نكاد لا نراه ، وهو لايصعد الى الدور العلوى الا عند توزيع أقلام الرصاص الجديدة وقطع النشاف .. حينئذ نراه وقد أخفى نفسه تقريبا داخل المعطف والقفاز الصوف الأسود النصفى ، ويتساءل :

ـ هل من شىء لى ؟.. هل من شىء لى ؟..

لقد أعدت الآنسة تشينتشى له أيضا أقلام الرصاص .. تلك الأقلام السوداء ، والأقلام الأخرى التى نصفهـا أحمر ونصفهـا أزرق ، والتى تستعمل لتصحيح الواجبات ..

ويحصى الأستاذ باليانى الأقلام ، ثم يسأل : كم نال الآخرون ؟ خشية أن يكون قد أعطى عددا أقل .. ويعود الى الفصل بهذا الكنز ، وقد ضمه الى صدره فى سعادة .. ولكن ينبغى أن تكون مدرسا حتى تشعر جيدا بمقدار السـعادة التى يمنحها عدد قليـل من أقلام الرصاص التى نصفها أحمر ونصفها أزرق ، لأستاذ طاعن فى السن يعيش الآن على هذه الأشياء الصغيرة : أقلام رصاص ، أسنان ريش جديدة ، مبراة ، ممحاة ..

وعندما يتقدم الأساتذة فى السن ، يصبحون كالأطفال الذين عاشوا بينهم سنين عديدة .. يشعرون بالسـعادة عندما يحصلون على عدد من أقلام الرصاص والأقلام الملونة ، أو بامتـلاك آلاف الأشياء الصـغيرة يملئون بها جيوبهم .. فى جيوب الأستاذ فقط ، يمكنك أن تجد مبراة على شكل ساعة صغيرة ، أو على شكل « البالونات » الطائرة فى الهواء ، والبرتقالة والشمعة التى يستعين بهما الأسـتاذ فى شرح طريقـة دوران الارض حول الشمس بعد أن أظلم الفصل ، والزهور التى جفت منذ أيام مضت ، قـد استخدمها فى شرح دروس النبـات ، والشريط ذا الألوان الثلاثة [1] الذى لم يعط لأحد التلاميذ لأنه كان غائبا .. كل تلك الأشياء حرص الأستاذ على الاحتفاظ بها ، كما حرص على الاحتفاظ بمدية صغيرة أوتوماتيكية ذات ثلاثة أنصال « صادرها » من تلميذ خوفا من أن يصيب بها أحد زملائه ، مطمئنا اياه بقوله : « سأعيدها لوالدك عندما يأتى الى » ثم يأتى الأب ، ولكن المدية لا تزال فى جيب المدرس الذى يزداد تعلقا بها .. واذا ما ذهب الى المنزل ، وجلس وحيدا ، أخـذ يختبر طريقتهـا الأوتوماتيكية ، فيجرح أصبعه ثم يضمدها بمتر من الشاش كالأولاد الذين ينتهزون فرصة جرح صغير ، فيربطونه برباط كبير ، ويحتفظون بالرباط

---

(١) الابيض والاحمر والاخضر ، هى ألوان العلم الايطالى ، ويعطى للتلاميذ الممتازين

أياما وأياما ، ويختالون به .. ولا يفتئون يقصون الحادثة فى كثير من المبالغة ...

والمدرس باليانى ــ كتلاميذه تماما ــ ولذلك لا يكونون دائما على وفاق .. وفى ممر الدور الأرضى فى تلك اللحظات الفريدة التى لا يبكى فيها أطفال الروضة ، ولا تصرخ المدرسات الشابات ، يسمع صوت الأستاذ باليانى يتهدج بعض الشيء وهو يقول : « لا .. سوف لا أعطيكم شيئا .. انكم أشقياء .. أسنان الريش الجديدة للرسم سأوزعها غدا ، ولكن ليس للجميع .. بل لمن يستحقها فقط ! »

ويقول الزملاء انه غنى ، ويدخر النقود .. ولا ينفق منها شيئا على الاطلاق ، ولكن ليس هذا صحيحا ، فالمدير يعرف ذلك .. ويعرف أن المدرس باليانى يملك ألف ليرة .. ألف ليرة جمعها فى أثناء أربعين عاما قضاها فى التدريس !

هل تعرفون أين يدخر تلك النقود ؟.. فى «حصالة» كما يفعل الأولاد .. انها قطع من النيكل والفضة ، حشرت فى الحصالة ، فلا يسمع لها صوت..

ترى ماذا سيشترى الأستاذ باليانى بهذه النقود ، عندما يحال الى المعاش ؟..

عربة صغيرة .. لقد ذكر ذلك مرات عديدة .. عربة صغيرة يتنزه بها نزهات جميلة فى الشتاء بعد الظهر ، عندما يكون الجو دافئا والشمس ساطعة ..

والحصان ؟.. هل يستطيع شراءه أيضا بألف ليرة .. يعتقد أنه من الممكن ، مثله فى ذلك مثل الأطفال الذين أهدوا اليه جميعهم فى نهاية العام ــ ذات مرة ــ ثلاثين مليما ، لكى يشترى بها قلم حبر .. ان الثلاثين مليما مبلغ كبير بالنسبة لهم ، وكذلك ألف ليرة بالنسبة للأستاذ باليانى مبلغ كبير جدا ، يمكّنه من شراء الحصان بالاضافة الى العربة ..

لقد توفيت زوجته منذ سنين عديدة ، والآن يعيش وحيدا .. أما أبناؤه فقد تفرقوا فى جهات عدة تبعا لأعمالهم ..

وأسأله : « ألا يحزنك يا أستاذ باليانى أن تحال الى المعاش ، وأن تترك المدرسة والأولاد ؟ »

فيجيب : « لا .. بالعكس ، اننى سعيد .. فبعد أربعين عاما لى الحق أيضا أن أعيش ، وأن أفكر قليلا فى نفسى ، وأن أعمل أشياء كثيرة منعتنى المدرسة من القيام بها »

ياله من مسكين ..؟ !

لن أسأله عن الأشياء الكثيرة التى يريد أن يفعلها ، والتى منعته المدرسة من أدائها .. فلا شك انه لايعرف كيف يجيب ، فسوف لا يفعل شيئا .. ان حياته هى المدرسة .. وقد انتهت فى المدرســة ، وسيدرك أن الخيول باهظة الثمن ، وأنه يجب عليه أن يتنازل حتى عن عربته التى كان يحلم بها منذ زمن بعيد ، كالأطفال الذين يحلمون بالدراجات .. !

واليوم يحال الأستاذ باليانى الى المعاش .. لقــد حلق لحيته ، وقص شعره ، قبل أن يأتى الى المدرسة ، وارتدى ملابسه الجديدة .. قميصـا ملونا بياقة بيضاء ، أما رباط الرقبة فلا يوجد من يعنى بربطه له ، فربطته غير محكمة ولا تكاد تستقر فى مكانها .. ولذا فان زرار الياقة يظهر من الجانب الآخر .. انه زرار صــغير من النحاس الأصفر يلمع جيدا ، حتى يبدو وكأنه من الذهب .. وأتى الأستاذ باليانى دون أن يرتدى معطفه وقفازه الأسود النصفى . قد يكون ذلك لأن الجو حار ؟.. أو لأن الأستاذ باليانى قد بدأ حياة جديدة من اليوم ؟

ودخل الفصل ، وحيا الأولاد ، وأعاد اليهم الأشياء التى « صادرها » منهم .. ما عدا بعض أشياء لم يردها مثل المدية ، فقد احتفظ بها لنفسه ومعها منديل من الحرير ذو ثلاثة ألوان : أبيض ، وأحمر، وأخضر. والآن ها هو ذا يفرغ القمطر ، ويفتحه لآخر مرة ، ويقول : « وداعا ».. متحدثا الى الجندول الصغير الذى ظل فوق مكتبه أعواما عدة ، يحرس كومة الواجبات المدرسية الصــغيرة التى كان يجب عليه تصحيحها .. ولكن

الجندول ليس ملكا له ، بل هو ملك للمدرسة .. ولذا يجب عليه أن يتركه لها ..!

ويقول : « وداعا » للمحبرة ، وللريشة ، ولسطح المكتب الذى بالرغم من أنهم كانوا ينظفونه دائما ، فان الزمن والعادات والحركات الأكثر شيوعا قد أثرت عليه تأثيرا لايراه الا الأستاذ باليانى ، وانه ليلمس لآخر مرة ذلك الخدش البسيط ، ويمسح بيده تلك البقع ، ويمر بأصابعه فوق ذلك الجزء الخشن من المكتب الذى كان يلمسه كل يوم من جديد لا شعوريا ، بينما يؤدى الأولاد الواجب فى الفصل ..

ويقول : « وداعا » للبقعة الموجودة على السقف من أثر الرطوبة ، وعند النظر اليها تبدو وكأنها « تنين » .. ويفكر فى أنه ابتداء من غد سوف لايرى بعد تلك البلاطة المكسورة القريبة من الباب التى كان الأولاد يتعثرون فيها ، وكان هو بدوره يتعثر مثلهم بعض الأحيان لأنهم لم يتذكروا ذلك أبدا رغم معرفتهم بوجودها .. ودون رغبة منه ، يوزع أقلام الرصاص السوداء ، وأسنان الريش للرسم .. ولكن الأقلام الحمراء والزرقاء لايوزعها لأنها خاصة به ويعمل منها حزمة ، وسيظل يبريها فى البيت ما دام على قيد الحياة ، وهو يستعمل فى ذلك المدية الأوتوماتيكية ذات الأسلحة الثلاثة . لقد حانت الآن لحظة الخروج ، ويقول الأولاد : « الى اللقاء .. الى اللقاء سيدى الاستاذ ! »

ـ وداعا يا أولادى ، هل يوجد منكم أحد لم يحصل على أسنان الريش ؟.. هل يوجد أحد منكم يود أن يشتكى منى لأننى لم أرد اليه ؟ !

يالله .. نعم يوجد الولد صاحب المدية !

ـ وداعا .. وداعا يا أولاد سأعود أحيانا .. وسآتى لرؤيتكم ..

أصبح الفصل خاليا ، والأستاذ باليانى يغلق الدرج لآخر مرة .. ويسمع صوت جلبة كبيرة ، وفى الدور العلوى ينتظر المدير والزملاء حفل الوداع ..

نحن الآن مجتمعون فى حجرة المدير . وعلى المنضدة زجاجتان وكئوس

كثيرة .. وقد حضرت مدرسات فصول الروضة الشابات للاشتراك فى الحفل ، وكان آخر من وصل الى مكان الحفل الأستاذ باليانى وبيده حزمة صغيرة .. تدخل أشعة الشمس من النافذة المفتوحة ، وترى انعكاسات الزجاجتين .. تلك الانعكاسات التى تشاهد فى الصور الفنية ، والكئوس تتألق !

انتهت الضوضاء التى كان يحدثها الأولاد فى الطابق الأرضى ، ولم تكن تسمع سوى دقات ساعة حجرة المدير : تك .. تك .. تك .. تك ، تلك الساعة التى كانت على شكل تمثال من البرونز ، ولا يجرؤ أحد على أن يقطع هذا السكون .. ومدرسات فصول الروضة الشابات ينظرن الى البسكوت .. !

وجلست المدرسات الأخريات ــ على شكل دائرة ــ حول منضدة المدير ، وخلفهن المدرسون واقفون . وكان مفروضا أن يلقى المدير كلمة .. بيد أنه لم يتكلم ، وظل واقفا على قدميه أمام المنضدة ، مطأطىء الرأس ، يلمس بأصبع يده المكتب ويداعب باليد الأخرى جبهته .. وبالقرب منه مدرسة عجوز تسعل باستمرار فى هدوء ، وأخرى تجفف عينيها .. وليس ذلك لأنها تحب الأستاذ باليانى ، بل لأنها تفكر فى أن يوما سيأتى ، يقام لها فيه حفل كهذا الحفل .. ولم ينته المدير بعد الى قرار ..

ووجب أن نضع له كأسا فى يده .. أفتح زجاجة الأستاذ وأملأ الكئوس ، ثم أقدم واحدة منها للمدير الذى يقول : « العفو .. الأستاذ باليانى أولا ! » ولكن الأستاذ باليانى يتمنع ، وآخذ كأسين وأقدمهما فى وقت واحد ، الى كل من المدير والأستاذ باليانى .. الآن حان أن يلقى المدير كلمته ، فيرفع الكأس الى أعلى ، ويقول : « فى صحة الأستاذ باليانى الذى سيتركنا .. ان المدرسة أسرة واحدة ، وكل عضو من أعضائها ، عندما تحين اللحظة .. ؟ »

ويبحث المدير عن كلمات .. لقد ابتدأ خطابه وهو فى حالة سيئة ، ولكن المدرسات رغم ذلك يبكين .. !

فيستطرد المدير قائلا : « ان الاستاذ بالياني سيتركنا ، ولكننا سنذكره دائما .. أليس هذا صحيحا ؟.. سنذكر المدرس المثالي الذي وقف كل حياته على المدرسة ، فكانت حياته سلسلة من التضحيات وانكار الذات »

لماذا يقول المدير كل هذه الكلمات التي ليس وراءها طائل ؟.. تلك الكلمات التي تبكي العيون !.. لايعرف أحد .. وتبقى في أيدينا الكئوس ، ونستمع دون أن تكون لدينا الشجاعة لاحداث أية حركة ..

« انك يابالياني ستذهب ، ولكنك ستبقى هنا في قلوبنا جميعا » .. يقول المدير تلك الكلمات ، ويلمس قلبه متأثرا ..

« سيرى كل منا الآخر مرة أخرى .. أليس هذا صحيحا يابالياني ؟.. سوف تأتي كثيرا لزيارتنا ، فبعد أربعين عاما في التدريس ، لايكون ترك المدرسة الا مجرد كلام .. انها جزء من حياتك تربطك به ذكريات أربعين عاما ، وعندما تريد أن ترى الأولاد وترانا مرة أخرى ، فعد .. ولو للحظة قصيرة ، واعتبر نفسك في أسرتك »

وكان المدير يريد أن يقول : « تعال يابالياني ، وسنلقاك بترحاب ، وبأذرع منبسطة ، واذا احتجت الى شيء ما فاتنا هنا ، وأنا أيضا كذلك مديرك الذي يقدرك ويحبك .. سأعتبرك دائما مدرسا كفؤا محبوبا ، كأنك ما زلت مدرسا بالمدرسة ولم تخرج منها »

أراد أن يقول كل هـذا ، ولكنه لا يستطيع ذلك .. ولذا فهو يشرب « الفرموت » ومع شراب الفرموت ، يكفكف دمعات يجب ألا يظهرها المدير ..!

وكنا جميعا نشرب ما عدا بالياني ، فان الكأس أخذت تهتز في يده .. فقد حان دوره في الرد على المدير .. !

فيقول : « سيدي المدير .. سأعود ان أردت ، ولكني قد ودعت مكتبي ، وغدا سيأتي غيري ليرمي بمحبرتي وليضع بدلها محبرته .. ولا يدري أحد ماذا سيضع في درج القمطر ، فخلال عام واحد سوف لا يتذكر أحد أن الفصل كان فصلي . ستقول الأمهات : « لقد كان رجلا

مسنا ، لم يكن يفهم الأولاد .. وان مدرسا شابا أصلح منه ! »

ويقاطعه كل واحد منا : « لا .. لا .. » ولا شك أن العكس صحيح !

ويستطرد الأستاذ بالياني : « انه ليؤسفنى أن أذهب ، ولكن الوقت قد حان لأبدأ من الآن حياة جديدة ، أفعل فيها كل الأشياء التى حالت المدرسة دون قيامى بها خلال الأربعين عاما المنصرمة .. »

ما هى تلك الأشياء أيها الأستاذ المسكين ؟ !

ويتابع حديثه قائلا : « والى جانب هذا ، فانكم تعرفون أننى ادخرت مبلغا ضئيلا .. ولا أقول كبيرا ، يكفى لتحقيق جميع رغباتى .. سيدى المدير : هل تسمح لى أن أخرج ومعى تلك الحزمة ؟.. انها أقلام رصاص حمراء وزرقاء كلها جديدة ، وانك لتسأل : ماذا أريد أن أفعل بها .. ؟ أبريها .. أبريها ياسيدى المدير ، كما كنت أفعل خلال الأربعين عاما المنصرمة .. سأبرى واحدا كل شهر ، انها ليست قليلة .. فهى تكفينى مدة طويلة ، واذا انتهت وأنا لا أزال على قيد الحياة ، فسأعود الى المدرسة لأسألكم غيرها .. وستعتبر المدرسة تشينتشى أننى ما زلت مدرسا بالمدرسة ، وسوف تعطينى أقلامها كعادتها مثل الآخرين .. وسأبريها ياسيدى المدير بالمبراة ، تلك المبراة التى ... »

وارتبك الأستاذ باليانى ، واحمر وجهه خجلا .. وبدا له أن المدير والزملاء يقولون له :

ـ ماذا ؟.. ماذا ..؟

ـ بالمبراة التى لم تردها لتلميذك .. يا للخجل !

نعم : يا للخجل .. ولكن الأستاذ باليانى لم تكن لديه القدرة على اعادتها للتلميذ ، ويشرب « الفرموت » ويؤدى التحية ، ويعد بأنه سيعود الى المدرسة ، ثم ينصرف مسرعا .. وأنظر خارج الباب .. لقد اختفى

وداعا .. يا أستاذ باليانى ..

انه دون عربة ، لأن حصالته وهى المليئة الى آخرها والتى لا تحدث صوتا ، لا تكفى لشراء حصان .. ستلحظ أن حياتك هى المدرسة ،

والأولاد ، وأسنان الريش التى تستعمل فى الرسم ، وبقعة الرطوبة على السقف ، كانت تبدو وكأنها « التنين » .. !

ستلاحظ أن كل الأشياء التى حالت المدرسة دون أن تقوم بها ، لاوجود لها .. ماذا ستفعل ؟ ستجد نفسك منفردا بكنزك المربوط فوق صدرك . ستدور حول المدرسة ، وفى الحدائق العامة بميدان دانتى ، سترى باب المدرسة وأنت جالس على المقعد تتأمل فى الصباح دخول التلاميذ ، وخروجهم عند الظهر ، ومعهم الزملاء والمدير .. ستمكث هناك وعلى صدرك كنزك المربوط ، تريد أن تنفقه ، ولا تعرف فى أى شىء !.. لأنك ما زلت تحلم ، وما زلت طفلا .. وفى جيبك حزمة الأقلام الحمراء والزرقاء ، والمدية ذات الفتحة الأوتوماتيكية . ستخجل من أن نراك أنت الذى كانت لديك أشياء كثيرة تؤديها ، وسنتظاهر بأننا لا نراك .. الى متى ؟ سيأتى يوم قريب نجد فيه المقعد خاليا . مسكين أنت يا أستاذ بالياني .. انك لم تكن تعرف أن المدرسة هى حياتك ، وانك لم تحى الا لها ..!

الفصل الخامس عشر

حتى الطيور تذهب الى القداس!

فى هذا الصباح ، سأل طفل فى الثالثة من عمره يسمى «باتستونى ماريو» مدرسة الروضة قائلا : « هل حقا ما يقال من أن الطيـور تذهب الى القداس ؟ ! »

كان ذلك نوعا من الجدل .. فكان « باتستونى ماريو » يقول : « لا .. أن الطيور الصغيرة لا تذهب الى القداس » .. وكان يشاركه فى هذا الرأى زميله فى المقعد ، وزملاؤه فى المقعدين الأمامى والخلفى .. ولكن « روميجولى لاورتا » وهى طفلة صغيرة شقراء ذات عيون سماوية كبيرة ، وترتدى فستانا يخرج عن المريلة المتناهية القصر ، كانت تقول : « نعم .. انها تذهب وقد رأيتها ، وعندما باركها الكاهن انصرفت لتعود الى أوكارها ! »

لم يكن هناك سوى خمسة يشاركون « باتستونى ماريو » رأيه ، بينما كان باقى الأطفال يرفعون الأيدى ، ويقولون : « نعم .. نعم .. ان روميجولى على حق !.. حتى أنا أيضا رأيتها ، ويوم الأحد كانت هناك خطافة مع ابنها الصغير الذى أخذ يغرد ، وعندئذ وضعت الخطافة جناحها أمام منقاره لاسكاته ..

لكن « باتستونى ماريو » لم يكن مقتنعا تماما ، وأخذ رأى المدرسة فى ذلك ..

انها مدرسة فى العشرين من عمرها ، لقبها « كاراتشولو » .. أما اسمها فلا أعرفه ، ولكنى أعرف فقط أنه يبدأ بحرف التاء .. كل صباح أرى

امضاءها على ورقة الغياب ، امضاء لايزال مبللا ، علامة على انها تصل الى المدرسة قبلى ببضع دقائق ..

ولكن تلك الدقائق القليلة تكفى لكيلا أستطيع رؤيتها .. وعندما أصل تكون قد دخلت الفصل .. وعندما أمر أمام الباب أسمع صوتها . رأيتها مرة واحدة فى حجرة المديرة فى اليوم الذى يسبق اجازات عيد الميلاد ، عندما يذهب الجميع لتقديم التهانى للمديرة .. كانت قد أفرطت فى وضع المساحيق ، وكانت تتصرف تصرف الآنسة « العصرية » .. ولعلها كانت تضع السجائر فى الحقيبة ، وقد ضايقتنى هذه الفكرة !

كانت تضحك بطريقة سخيفة ، وكان جميع المدرسين الشبان ينظرون اليها ..

وقد قلت فى نفسى : « لا .. لا أظن أن تكون تلك الفتاة بهذا الشكل انها تتصرف على هذا النحو لأنها لا تجد من يهتم بتأنيبها ..!

واقتربت منها لأهنئها بالعيد .. فأجابتنى ــ وهى شاردة الذهن ــ بدون أن تنظر الى ، وقد ساءنى هذا التصرف لأنى كنت أشعر ــ دون أن أجد سببا لذلك ــ بأنه أصبح من نصيبى ألا أبقى شخصا عاديا بالنسبة لها !

كنت أتخيلها ، وهى بغير زينة ، وغير شاردة الذهن ، ودون تلك الأوضاع التى كانت تضايقنى .. كنت أتصورها تبتسم قليلا وبشعرها الطويل المعقوص خلف رأسها .. مرتدية المريلة السوداء ، والياقة الصغيرة البيضاء !..

« سيدتى المدرسة .. أحقا ان الطيور تذهب الى القداس ؟ ! »

وفى نفس اللحظة التى يوجه « باتستونى ماريو » سؤاله الى المدرسة أقرع الباب .. فانى منذ زمن بعيد ، أبحث عن عذر لكى أراها مرة ثانية !

واليوم وجدته .. وهو عذر لائق ، ومع ذلك لايزال قلبى يدق بقوة .. الممر طويل جدا ومهجور . وعلى جانبى الممر ، تنبعث أصوات أطفال الروضة .. تعلوها أحيانا صيحات المدرسات .. قلت : « هل مسموح ؟ »

آه .. لقد كنت أتوقع ذلك .. ولكن كيف تغيرت هكذا فى ذلك الوقت القصير ، منذ عيد الميلاد الى شهر مايو ؟.. انها لا تضع شيئا من المساحيق وتبدو فى غاية البساطة .. ولا تزال تعلو وجهها ابتسامة خفيفة ، وشعرها طويل قد جمعته خلف رأسها .. وترتدى مريلة سوداء بياقة بيضاء ، كما تخيلتها .. وتنظر الى وتسألنى بعينيها ..

وهناك «باتستونى ماريو» واقف على قدميه ، ويده الصغيرة مرفوعة ، ينتظر الاجابة عن سؤاله ..

فقلت لها : « يا آنسة .. هل عندكم طفل فى الفصل يسمى مارتينيللى ؟ انه أخو تلميذ عندى ، لم يأت الى المدرسة منذ يومين ، وقد أتيت هنا لكى أسأل .. »

ولم يكن هذا حقا .. لأننى أعرف جيدا لماذا لايأتى مارتينيللى الى المدرسة ..

انه شهر مايو ، ومارتينيللى يمكث فى تلال أوبيو لقطف الزهور، ولمسك الفراشات ، ولغناء الطقاطيق السحرية للحلزون لكى تخرج قرونها من القوقعة ، فقالت لى :

ــ انه من تلاميذى ، ولكنه غائب هو الآخر منذ يومين .. وسوف يعود غدا ومعه الزهور !

وكانت على مكتبها زهرية صغيرة بها أزهار المارجريت ..

فأقول : « هل أحضرها لك تلميذك مارتينيللى ؟.. انها نفس الزهور التى يحضرها لى أخوه ..! »

الآن يجب أن أنصرف ، ولكننى لم أفعل هذا .. بل اقتربت من مكتب المدرسة ..

لايزال « باتستونى ماريو » منتظرا الاجابة عن سؤاله ، ويده الصغيرة مرفوعة ..

النافذة مفتوحة .. وتدخل فراشة آتية من الفناء ..

وتكون « روميجولى لاورتا » أول من يلحظها .. وترسل صيحة وهى

دهشـــة .. وخلال لحظة ، تقف الفراشـــة على أزهار المـــارجريت التى أحضرها مارتينيللى .. ثم تطير ثانيـــة وتلف قليلا حول « الفيونكة » الحمراء المربوطة حول شعر احـــدى الطفـــلات ، ثم تقف « مخدوعة » بورقة رسمت عليها بعض الزهور كانت موجودة فوق رف المكتبة ..!

وتخرج من النـــافذة ، وقد ترك الأطفـــال مقـــاعدهم ، وتجمعوا عند قاعدتها .. وتختفى الفراشة بين أوراق شجرة الفناء الكبيرة .. !

ولقد أثار ظهور الفراشة دهشة الأطفال ، ما بين سن الثالثة والرابعة ، ثم ساد صمت كبير .. فالأفواه فاغرة ، والأعين محدقة !

كانت توجد هناك فراشة ، والآن لا أثر لها ..

وتقول « روميجولى لاورتا » : سيدتى المدرسة .. عندما أصبح أنا أيضا فراشة ، سأهبط على الزهور !.. ولم يتعجب أحد فى الفصل من تلك الكلمات ، لا الزملاء ، ولا الزميلات ، ولا المدرسة ، ولا أنا أيضا ؟ !

انها طفلة صغيرة الى حد كبير .. لها « فيونكة » كبيرة ضخمة .. وفى ذات يوم ، فى أحد المروج ، ستهبط فراشة على كتف المدرســة ، وتلك الفراشة ستكون « روميجولى لاورتا » .. وهذا يفسر لنا السر فى أن الآنسة كاراتشولو لا تضع المساحيق ، وأنها أصبحت بسيطة ، ترتدى مريلة سوداء وياقة بيضاء ، وصارت عيناها وديعتين . وأسألها : «ياآنسة.. هل أستطيع أن أبقى بعض الوقت ؟ »

ولكن ها هو ذا طفل آخر (يسمى جانتو ، ولم يكتب شىء آخر على مريلته)

يقول بصوت مرتجف : « سيدتى المدرسة .. »

ان عمره ثلاث سنوات ونصف سنة تقريبا ، وتوجـد فى عينـه دمعة واحدة كبيرة ، وفمه مفتوح قليلا ، وترى منه سنتان صغيرتان ..

يقول الطفل : « سيدتى المدرسة .. أريد أن أذهب الى ماما ! »

وعند ذلك ابتسم ..

ولكن المدرسة تظل رزينة !..

وتقول لى : « لا » ثم تلتفت الى الطفل ، وتقول له : « ان أمك ليست فى المنزل .. انها ... »

ثم تنطق بشفتيها ، دون صوتها ، بتلك الكلمة الحزينة :

لقد قالوا له : انها طارت ، وهو أيضا الآن يود أن يطير .. ومن ثم فهو ينظر دائما الى أعلى ، وبين أوراق شجرة الفناء ترى زرقة السماء .. يود جانتو أن يذهب الى أعلى حيث الخطاطيف ليرى والدته .. !

وأقول : « ولكن الأطفال لايستطيعون أن يطيروا »

وتقول لى الآنسة كاراتشولو : « لماذا تقول له هذا ؟.. دعه يعتقد ذلك حتى يفهم بنفسه أن الانسان لايستطيع أن يطير ، وأنه لايستطيع أن يصبح فراشة »

وتنحنى فوق جانتو ، وأنحنى أنا أيضا بدورى ، وقد لمس شعرى شعرها ولكن دون قصد ..!

ولقد قالت فى يوم من الأيام لجانتو : « سنذهب معا الى أعلى .. هل ترى تلك السحابة المرتفعة فى السماء ؟.. واذا كنا متعبين سنستريح هناك »

فسألها : « ولكن اذا وقعت ؟ »

فأجابت : « نتشابك بالأيدى »

وقلت : « سآتى أنا أيضا .. ولقد سر جانتو لأنه — مع رجل — سيشعر باطمئنان أكبر ، وكذلك ستكون الآنسة كاراتشولو مسرورة !..

وقد سألتها : « هل هذه هى أول سنة تدرسين فيها ؟ »

فأجابت : « نعم .. أول سنة .. اننى لم أوجد قط بين الأطفال .. انك عندما دخلت كدت لا أعرفك .. »

— أعرف ذلك ..

— ولكنى كنت أعرف أنك هكذا

فآخذها من يدها ، كما لو كان قد وجب علينا حقا أن نصطحب جانتو ليرى أمه ..!

وتدخل الشمس من النافذة ، وكان هناك طفل فى يده قطعة صغيرة من

الزجاج .. ينظر بدهشة الى تألقها ..!

وتلميذ آخر جالس فى المقعد الأول ، يظهر طرف اصبعه الصغير لمجموعة من الزملاء والزميلات .. وعلى هذا الطرف لابد أن تكون علامة لسعة لايمكن رؤيتها ، ويقول :

ــ أحدثتها لى نحلة ..

ــ كيف تكون النحلة ؟

ــ انها كبيرة هكذا (ويفتح ذراعيه كما لو كان يريد أن يصف نسرا)

وفى ركن ، تقول طفلة لأخرى بصوت خفيض : « فى هذا المساء عندما يخيم الظلام ، لابد من السير بالفوانيس .. فان تلميذا كبيرا من تلاميذ السنة الثالثة ، سيذهب مع زملائه الى متنزه لدفن عصفور صغير ميت »

ــ ما معنى كلمة ميت ؟..

ــ معناها أنه لا يطير ولا يغرد أبدا !

وتشرح الطفلة كيف تقام الجنازات للعصافير الصغيرة ..

تقول ان تلميذ السنة الثالثة ، سيرتل الصلاة ، وسيردد الزملاء الأدعية وانها قد دعيت مع أخيها الصغير التلميذ بالسنة الأولى ليردداها .. وهذه الدعوة تملأها فخرا وعجبا ..!

ولا تزال « روميجولى لاورتا » تنتظر عودة الفراشة ..

وتنتظر الآنسة « كاراتشولو » منى أن أقول لها :

ولكننا لسنا بحاجة للتحدث فى ذلك ..

ولكنى أسألها شيئا واحدا : « أترينني ما بداخل حقيبة يدك الصغيرة ؟»

انها حقيبة صغيرة مثل حقيبة الطفلة .. بها منديل صغير جدا ومطرز ، ومحفظة بداخلها ليرة ، وبضعة مليمات من النحاس ، و«كرملة» ، ومرآة صغيرة كان الأجدر بها أن تستعمل للعب فى الشمس بدلا من أن تستعمل لرؤية الوجه فيها

ــ اننى لو أمسكت بيدك يا آنسة كاراتشولو ، ولم تسحبيها من يدى .. فمعنى هذا اننا لا نرتكب عيبا ، ومعنى هذا أيضا أنه شىء نستطيع

أن نفعله أيضا أمام تلاميذك الذين يلعبون فى الشمس ، والذين يدفنون الطيور الميتة ، والذين يريدون أن يطـيروا الى أعلى عند الأم ، وعندما يكونون متعبين يستريحون على متن سحابة صغيرة ..!

أعود الى فصـلى .. مضت ساعة لم أشعر بها ، ولكننا عند الخروج سنتلاقى .. فان فصول الروضة تخرج قبل الفصول الأخرى بنصف ساعة، وستنتظرنى الآنسة كاراتشولو ..

غدا فى الصـباح ، سيحمل لها تلميذها مارتينيللى أزهار المارجريت الصغيرة .. وسيحمل لى أخو مارتينيللى نفس الأزهار المقطوفة من نفس المرج ..

وفى رقعة السماء التى تشاهد من النافذة ، تبحث «روميجولى لاورتا» عن الفراشة .. وأما جانتو فيبحث عن أمه ، وأما أنا ، والآنسة كاراتشولو، فكلانا يبحث عن تلك السحابة التى خيـل الينا أننا جلسنا عليها فى تلك اللحظة التى أمسكت فيها بيدها ..

قد حانت ساعة الخروج ..

الآنسة كاراتشولو تنتظر فى ركن خارج المدرسة ..

وأسألها : « ما اسمك ؟.. أنا أعرف فقط أن اسمك يبتدىء بحرف التاء .. »

فأجابت : « تريزا .. »

فاستطردت قائلا : « ألم يكن يؤنبك أحد عندما كنت تضعين المساحيق على وجهك ، وتبدين هكذا مختلفة عن حالتك الطبيعية ؟ »

أجابت : « لا أحد .. لكن كان يحدث أن أطفال فصلى يريدون تقبيلى ، وكنت مضطرة الى منعهم من ذلك .. وكانوا يطلبون منى أن أفتح الحقيبة الصغيرة ليروا اذا كانت توجد بداخلها « الكرملة » وكان لابد أن أقول لا »

ونتماسك بالأيدى مثل الأطفال .. ونمر أمام احدى الكنائس ..

فقلت لها : « قد نسينا شيئا »

ــ أى شىء ؟..

ــ قد نسينا أن نجيب « باتستونى ماريو » عندما سأل : « اذا كانت الطيور تذهب حقا الى القداس ؟ ! »

فأجابت : « ماذا تقول ؟ »

ونرفع أعيننا حول برج الكنيسة ، حيث تحوم الخطاطيف دون تغريد ..

أنا أعتقد صواب ذلك .. أعتقد ان الانسان يستطيع أن يصبح فراشة ، ويمكنه أن يطير فى السماء ، ويمكنه أن يأخذ بيد مدرسة شابة تدرس فى قسم الروضة ، ذات عينين كبيرتين ، ومرآة صغيرة ، ويحس فى قلبه بسعادة كبيرة ..!

غدا فى الصباح ، عندما سترين « باتستونى ماريو » قولى له : نعم .. قولى له : ان الطيور أيضا تذهب الى القداس .. قولى له : نعم ، يا آنسة كاراتشولو تريزا

ولقد صارت الآنسة كاراتشولو تريزا فيما بعد زوجتى ..



الفصل السادس عشر

الساعة الصغيرة الزائفة

كنت غائبا مدة يومين ، وعدت الى المدرسة ، فوجدت الفصل فى غاية الحيوية ، ومارتينيللى فى غاية الضيق .. والمدرس الاحتياطى « صـادر » ساعته الصغيرة الزائفة ، وهى سـاعة من تلك السـاعات الصغيرة التى تسـاوى ثمانية أو عشرة مليمات ، ولا تدور .. ولكن لها ميزة ليست للساعات الحقيقية : انك تستطيع أن تضبطها فى الزمن الذى تريده ، وحتى اذا لم تلف العقارب من جديد تبقى هذه الساعة كما هى .. !

الزمن مع هذه الساعات الصغيرة ، اما أنه لايمر واما أنه يمر بسرعة تجعلنا نقضى شهرا من الزمن فى دقيقة واحدة ، واذا أدرنا العقارب الى الخلف ، فان ساعات الشهر الماضى ، أو السنة الماضية .. تلك الساعات التى كنا نعتقدها قد ضاعت الى الأبد ، تعود الينا ..!

فالأولاد هم وحدهم الذين يملكون مثل هذه الساعات الصغيرة .. أما نحن الكبار ، فلدينا الساعات الحقيقية التى تشير بأمانة الى الزمن الذى يمضى ، دقيقة تلو دقيقة .. ولو وقفت فمعنى ذلك أنها فاسدة !

اشتراها مارتينيللى من دكان صغير قريب من المدرسـة .. من دكان الخردوات الصغير الذى بقى كما هو منذ طفولتى ، حيث تباع حتى أيامنا هذه نفس الأشياء الصغيرة التى كانت تباع للأولاد منذ عشرين سـنة مضت !.. منها ساعات صغيرة ، وعربات من الصفيح الأخضر بالسـائق والخيول الملونة باللون الذهبى (هل تتذكرون تلك الخيول الصغيرة من

الصفيح التى قبل أن تمضى ساعة على شرائنا لها كنا نقسمها الى نصفين ، والحصانان كنا نجعلهما أربعة .. والأربعة كنا نجعلها ثمانية ؟) وعفاريت الدماء ، وزجاجات فى منتهى الصغر كانت تساوى مليمين وبداخلها الماء الملون بالأحمر والأخضر .. وكنا نشربها فى الخفاء ، ونحن مقتنعون أنه مشروب كحولى ..!

يريد مارتينيللى الآن ــ مرة ثانية ــ ساعته الصغيرة ، ويقول : « سيدى المدرس ، لم أكن أحدث ضررا بهذه الساعة .. كنت أدير العقارب ليمر الوقت بسرعة .. المدرس الاحتياطى كان مملا قليلا ! .. »

وهذا المدرس عجوز متعب ، لا فصل له .. يجلس فى حجرة السكرتير تحت تصرف الادارة ، يرسل البريد ، ويملأ شهادات الدبلوم ، وينظم المكتبة .. وأحيانا عندما كان يتغيب مدرس عن فصل ، كان يقوم هو بالتدريس بدلا عنه .. وهو يتكلم ببطء ، لأنه متعب وليس له من الصبر مع الأولاد ما كان له فى أيام الشباب .. ولهذا فقد « صادر » ساعة مارتينيللى ، وكان يريد أن يلقيها فى السلة ، ولكنه بالعكس وضعها فى جيبه وهو متذمر . والآن عندما دخلت حجرة السكرتارية لأسأله عن الساعة (لأننى يسيئنى أن يبقى مارتينيللى بدون ساعته) وجدته والساعة فى يده ، وهو يدير العقارب مثل مارتينيللى ، ولكنه ربما كان لايفعل ذلك لكى يجعل الوقت يمر بسرعة .. بل لكى يعيد الزمن الماضى الذى لن يعود الا بمساعدة ساعات الأطفال الصغيرة .. وحين يرانى يضعها فى جيبه من جديد ، وقد احمر وجهه قليلا ..

انه أكبر منى سنا الى حد أنى لا أستطيع أن أتكلم معه الا بصيغة الاحترام ..

وقلت له : « علمت أن سيادتكم قد « صادرتم » ساعة تلميذ لى .. لقد فعلتم خيرا ، اننى أنا أيضا لا أسمح بوجود مثل هذه الأشياء فى أثناء التدريس ! »

فأجاب : « انه عيب فظيع ، فالأولاد ينشغلون ويشغلون زملاءهم

أيضا .. انكم معشر الشباب متسامحون أكثر من اللازم ، لابد من قسوة أكثر ، وشدة أكثر .. الساعة لدىَّ ، أتعشم ألا تكون لديك رغبة فى أن ترد الساعة الى الولد ! »

يقول كل هذا ، بينما يتحاشى نظرتى .. وأنا أيضا أتحاشى نظرته ، فأنا لا أريد أن أظهر أن لدى الرغبة الشديدة لأسترجع الساعة الصغيرة من جديد ، وأفهم منه أنه لايريد أن يردها ، وأنه يخشى أن أسأله عن الساعة

فقال المدرس العجوز لى : « وحتى أنا ، لم أر هذه الساعة جيدا .. ولكنى أعتقد أنها ساعة صغيرة زائفة تساوى مليمات قليلة ، ولا تستحق أن تردَّ الى الولد » فأقول : « ولا أنا أيضا لدىَّ فكرة عن هذه الساعة ، ولكن عند نهاية السنة أقوم برد كل الأشياء المحجوزة الى الأولاد .. ولذلك أرجو سيادتكم أن تعطيها لى ، وسأضعها فى درج المكتب وأغلق عليها ! »

ـ لو كانت الساعة معى الآن لرددتها اليك .. ولكنى أعتقد انى تركتها فى البيت ، ويؤلمنى ذلك !

يا لكذبتك الكبيرة ، أيها المدرس العجوز !.. وما أسعدك بأن تكون الساعة زائفة ، ولا يُسمع لها صوت : « تِك .. تَك .. فى جيبك ! .. »

فانك تريد الساعة لنفسك ، لتلعب بها مثل مارتينيللى ، ولكى تدير العقارب الى الخلف ، وتعيد الزمن الماضى .. ذلك الزمن الذى لم يكن لديك فيه هذا الشعر الأبيض ، ولم تكن تغضب من الأولاد ، ولم تكن « تصادر » منهم الأشياء التى ليس لها صلة بالدرس ، ولكن يستحسن أن تردها .. ولكى نترك للأولاد ، تلك الأشياء ، يجب أن نقتنع بالساعات الحقيقة ، تلك الساعات التى لا تدور الى الخلف ، والتى لا تقف حسب الارادة ، والتى بدقيقة تلو دقيقة تعلن عن الزمن الماضى ، وأما الزمن الحاضر فتظهره لنا فى نفس اللحظة التى يمضى فيها ..

أرجع اذن الساعة لمارتينيللى ..

فقال المدرس العجوز : « ما دمت متمسكا بتلك الساعة ، فسأجعلك

تستردها عن طريق السيدة المديرة »

وأخذ من جديد فى كتابة الدبلوم الذى تركه .. مسكين ذلك المدرس العجوز، الذى ما ان أبتعد عنه ، حتى ينتزع بخفة من جيبه ساعة مارتينيللى الصغيرة ، ذات السلسلة الصفيح ، والتى تدور عقاربها كما تريد أنت ، وتقف على الساعة التى تريدها .. ولو كانت هذه الساعة الزمنية جميلة بالنسبة لك ، فستظل باقية على ما هى عليه ، ولو مائة عام !..

فقلت لمارتينيللى : « لم أنجح فى اعادة الساعة الصغيرة لك .. انها عند المدرس الاحتياطى فى المنزل .. غدا سيحضرها الى السيدة المديرة »

ليس مارتينيللى هو الوحيد الذى كان متضايقا .. ولكن الفصل كله كان متألما من ذلك . هذا الشتاء (على ما أذكر) كان مارتينيللى فى أثناء الفسحة يخرج من جيبه تلك الساعة ، وكان زملاؤه يلتفون حوله .. بينما كانت السماء تمطر من الخارج ، وكانت ملبدة بالغيوم فوق الفناء ، والشجرة حالكة السواد وأغصانها جافة . ولم يكن هناك أمل فى صفاء السماء ، وكان الربيع يبدو وكأنه شيء قد مضت عليه مائة سنة .. انه تذكار بعيد جدا ، لايتحسر عليه أحد .. ولو قالوا : « لن يأتى بعد ، لصدقنا ذلك ! »

ولكن مارتينيللى كان يبتدىء فى لف العقارب بسرعة .. وبعد قليل ، كان يقول : « مضى شهر فبراير » وكانت العقارب لا تزال تلف ، ومارتينيللى يتوقف فى شهر مارس ..

ويقول : « هل حضرت الخطاطيف ؟ » ونظر الجميع الى السماء الملبدة بالغيوم ، ولكنهم رأوها زرقاء .. ورأوا الفروع الجافة قد ابتدأت فى الظهور بها أوائل الأزهار ، وكانوا يسمعون تغريد الخطاطيف ، ويضحكون مسرورين ..!

كانت أيديهم منتفخة من شدة البرد ، ولكنهم كانوا يفكرون فى أن يأخذوا بأيديهم الفراشات ..!

كان مارتينيللى يقول : « ابريل !..» ولم تكن توجد الزهور الأولى على الفروع بعد ، ولكن كانت هناك أوراق صغيرة خضراء .. وكان يوجد على

الأرض خيط كبير من الشمس يخترق الفصل ، ويرتفع فوق الحائط الذى أمام النافذة ..

« ابريل !.. » فى صمت كان الأولاد يسمعون ، وينصتون الى الطنين الأول فى الفناء .. طنين الذبابة الكبيرة الملونة ذات الأجنحة التى كانت تبدو كأنها الصدف .. وصاح الأولاد : « انها ترتطم بالزجاج !.. انها تقرع الزجاج لتفتح النافذة ولتدخلها .. ولكن سرعان ما انتهى شهر ابريل ، وجاء شهر مايو ، وقد أصبحت الشجرة مورقة بأوراق كبيرة ملونة بلون أخضر داكن .. وأمام هذا اللون الأخضر الداكن كانت تمر الفراشات البيضاء ..

شهر « يونية » يا للحرارة !.. الامتحانات .. والعرق من مسائل الحساب ، ولكن خلال أيام قلائل ستنتهى المدارس ، ولن تكون هناك مرايل صغيرة بعد .. أخيرا سأرى كيف تكون ملابس « مارتينيللى » الداخلية . وأخيرا سأرى « ماستروفينى » بزى البحرية ، وصديرى « سبادونى » الصيفى ذى الخيوط الزرقاء والصفراء ..

لايفكر أحد أبدا فى الملابس التى يرتديها الأولاد تحت المريلة ، فى أثناء الدراسة .. ولكننا فى آخر يوم فى السنة نرى التلاميذ وكل منهم يلبس بطريقة مختلفة ، ويبدو غريبا غير مألوف .. ومما يثير الدهشة رؤية « سبادونى » الذى كان يرتدى قبل ذلك مريلة طويلة ، تصل حتى قدميه مريلة باهتة اللون ، قديمة ، والآن يرتدى صديريا ذا خطوط ملونة فاقعة اللون ..

شهر « يونية » أوراق شجرة الفناء ، كثيفة الأوراق ، تحدث ظلا كبيرا .. لبعض أوراقها أطراف مصفرة ، ومن يعرف أين يغنى صرار الليل ، والحوائط بيضاء ناصعة ..

ولكن ساعة الاستراحة قد انتهت .. ويضع مارتينيللى الساعة فى جيبه من جديد ، وداعا أيها الربيع ، وداعا أوراق الشجرة .. فقد كثرت السحب فى السماء من جديد ، واسودت الشجرة ذات الفروع الجافة ..

ولو انهم قالوا لنا : « ان الربيع لن يعود بعد » .. فسنصدق ذلك !
أتفهمون لماذا سأذهب غدا عند المديرة ، ولو أن فى قلبى شيئا من الخوف ، لأنها قاسية ؟.. اننى سأذهب عندها لأسترجع منها ساعة مارتينيللى الصغيرة .. ولكى أصل الى حجرة المديرة ، لابد لى أن أمر بحجرة السكرتارية ، حيث أجد المدرس الاحتياطى يجلس هناك منحنيا فوق الشهادات .. انه اليوم أكثر انحناء ، وأكبر سنا ، لأنه ليست معه الساعة.. تلك الساعة التى كانت تعيده الى عشرين عاما مضت !
ربما أكون قد أسأت اليه عندما طلبت منه تلك الساعة ، وينظر الى عابسا .. ويأمل فى دخيلة نفسه ألا ترجعها اليه المديرة ..!
وقلت : « هل مسموح ؟ »
ـ تفضل ..
ان المديرات لا يفتحن النافذة تماما ، حتى ولو فى الصيف ، بل يمكثن دائما فى الضوء القليل .. الحجرة رطبة ، وترى على الشرفة خطوط الشمس وهى تمر عبر « الشيش » وتظهر على الأرضية لامعة جلية .. وعلى مكتب المديرة مجموعة صغيرة من الكتب ، وساعة من البرنز لها بندول تسمع دقاته قوية فى ذلك الصمت ، وختم المدرسة ، وكوم من التقارير عن حالة الطلبة للتوقيع عليها ، وأمام المديرة بالضبط كتاب جديد فى صفحاته الأولى قطاعة ورق وفوق الكتاب ساعة مارتينيللى الصغيرة ، وتستمر المديرة تلف العقارب بالأصبع الى الخلف مثلما كان يفعل المدرس الاحتياطى العجوز .. ان الأطفال وحدهم لا يخشون من ادارة عقارب الساعات الى الأمام .. فانهم فى فصل الشتاء ، يضعون الساعة فى الربيع .. لأنه ليس لديهم خوف من ألا يروا الربيع من جديد .. أما الشيوخ ، فبالعكس .. لايريدون تقديم الساعة ، فانهم يخافون من تقديم عقاربها الى الأمام .. لأنها عند نقطة معينة تقف ، ولا تتقدم أكثر من ذلك .. ومن ثم تدير المديرة أيضا العقارب الى الخلف.. ..!
كان كل شعرها تقريبا أبيض ، وكانت توجد على مكتبها خلف مجموعات

الكتب صورة لطفلة تشابهها تماما ، كما كانت هناك باستمرار زهرة أمام تلك الصورة . ورويدا رويدا ، تعود العقارب الى الخلف .. ولا يعود شعر المديرة أبيض اللون ، وتبتسم الطفلة .. انها حية !.. ولا تريد السيدة المديرة أكثر من ذلك ـ من ساعة مارتينيللى الصغيرة ـ العقارب واقفة على ساعة فى يوم لايذكره غيرها .. وهكذا ، ستبقى !

بهذه الساعة ، يرى مارتينيللى الربيع الذى يجب أن يعود .. أما المديرة ، فانها ترى ربيعا آخر .. ومن يعرف منذ كم سنة مضى هـذا الربيع ، عندما كانت الطفلة صاحبة الصورة تحيا وتقول لها : « ماما » ولم يكن أحد يدرى ان ذلك الربيع كان الأخير من عمرها .. !

رويدا ، رويدا .. تنزع المديرة الزهرة عن الصورة ، وأخيرا تنظر الى وتقول : « هل تريد أن تسترجع الساعة الصغيرة مرة ثانية ؟ »

ـ كلا ياسيدتى .. لقد أتيت .. لقد أتيت من أجل شهادات الطـلاب ، واذا كنت قد وقعت عليها هل أستطيع أن آخذها ؟ ! »

وآخذها وأعرج على أطراف أصابعى من تلك الحجرة الرطبة الصامتة ، حيث كانت صورة الطفلة قد أصبحت فى غير حاجة للأزهار !

ويفرح المدرس الاحتياطى ، لأنه يفكر فى أن الساعة سينتهى بها الأمر الى أن تعود بين يديه ، ولا يعرف أن المديرة سوف لا تعطيها له أبدا .. هذه الساعة الصغيرة الزائفة التى ستبقى دائما على مكتبها ، أمام تلك الصورة ومكان تلك الزهرة

أما مارتينيللى ، فماذا يكون شأنه ؟..

فقبل أن أدخل الفصل ، أنزل وأهرع الى دكان الوراق ، لأن المديرة حتى ولو علمت ذلك لما آخذتنى .. وقصدت ذلك العجوز الذى اعتدت أن أراه فيها منذ سنة مضت ، عندما كنت أشترى أنا أيضـا السـاعات الزائفة !

ولكنى اشتريتها فى هذه المرة لمارتينيللى .. واشتريت له ساعة مثل السابقة بالضبط ، وثمنها ثمانية مليمات كما كانت فى أيامى ، وودت لو

قلت للعجوز : « هل تذكرنى ؟.. لقد كنت أجىء دائما هنا .. لقد اشتريت كثيرا من هذه الساعات الصغيرة منك ، وشربت كثيرا من تلك الزجاجات الصغيرة المملوءة بالماء الملون »

كان من المستحسن ألا نقول هذه الأشياء ، وأن يحتفظ بها كل شخص لنفسه .. وعندما دخلت الفصل من جديد ، أشرت بحماسة الى الساعة الصغيرة ..

وكان « مارتينيللى » سعيدا ، ويسأل قائلا : « سيدى المدرس .. سوف لا تفسد ؟ ! »

ـ اختبرها يا مارتينيللى ..!

ويلتف الزملاء حوله ، ويقولون : « يولية ، أغسطس ، سبتمبر .. » أوراق شجرة الفناء أصبحت صفراء وحمراء ، والسماء زرقاء ولكنها زرقة أفتح مما كانت فى الربيع .. وصرار الليل لا يغنى بعد ، ويخيل للأطفال أن أيديهم لزجة بسبب عصير العنب ..!

ومارتينيللى مسرور ويقول : « الساعة تدور جيدا ياسيدى المدرس !»



الفصل السابع عشر

الضوء فى العلبة الصغيرة

لم تبق سوى أيام قلائل على الامتحان ، وقد حضرت والدة ليوناردى هذا الصباح ، لتخبرنى أن ابنها ظل ساهرا حتى منتصف الليل لاستذكار تواريخ حروب الاستقلال .. لقد كان لون وجهه شاحبا حقا ، وأصبح نحيلا هزيلا .. وبدأ فى لبس النظارات على صغر سنه ، وفارقه مرحه وضحكه .. لقد امتلأ رأسه بالتواريخ ، فأصبح ساكنا فى مقعده كل السكون . وعندما يغادر مقعده ، يسير ببطء .. لأنه يخشى أن تفقده كثرة الحركة جميع هذه التواريخ التى علقت بذهنه بمعجزة ! .. ولكن عندما تنتهى الامتحانات ، فانه سيبدأ فى الجرى من جديد .. وفى يوم واحد سينساها جميعها ، واحدا تلو الآخر .. وكأنه يبعثرها فى المروج . وبدهشة بالغة سيجد من يمر بين زهور الأقحوان ، والخشخاش ، تاريخ ١٨٤٩ [1] الذى وقع منه فى أثناء لعبه ، وبه صرصور مختبىء فى رأس الرقم (٩) .. !

أما سبادونى ، فانه على العكس من ذلك يسير ببطء حتى لاينسى اسم عاصمة السويد ، وطول نهر البو !

ومارتينيللى يستذكر أيضا ، ولم يعد يذهب الى الحدائق ، وهو الذى كانت يداه مملوءتين بالزهور دائما ، وقلبه مع الفراشات .. الآن يمكن أن يقرأ فى هاتين العينين قسمة الأعداد العشرية .. ولكن جميعها خاطئة !

وفى الأسفل بالفناء لايمكن للانسان أن يرى ، لأن الشمس تنعكس على

---

(١) نهاية الحرب الاولى من حروب الاستقلال الايطالية (١٨٤٨ ـ ١٨٤٩)

الجدران ناصعة البياض ، والحصى الأبيض الذى يغطى الأرض يلمع أيضا هنا وهناك ، والستائر مسدلة على النوافذ ، والفصول ممتلئة بالأطفال . ولكن لايمكن لانسان أن يسمع صوتا .. ونرى ظـلال الخطاطيف على الحصى وهى تمر دون أى غناء .. فالجو حار ، وقد تراخت أوراق شجرة الفناء ، دون أن تتحرك . وفى منتصف النهار ، يبدأ غناء صرّار الليـل الذى يصل الى ظلال الفصل ، وتتفتح عينا مارتينيللى .. ويمكن قراءة قسمة الأعداد العشرية وقد ازدادت أخطاؤها ..

وينتهى صرّار الليل من غنائه ، وفى المساء ستبدأ جماعاته الموجودة فى المروج المجاورة للحى فى الصياح ، وكذلك ستبدأ اليراعات فى الطيران ، واليراعات هى نجوم الأطفال لأنهم ـ لصغر سنهم ـ لم ينظروا بعد الى أعلى ، بل يكتفون باليراعات التى تظهر أحيانا وتختفى أحيانا ، ويمكن تتبعها ويمكن أخذها .. ولكن النجوم كانت على العكس من ذلك ، بعيدة جدا ..

وعندما تأخذ احدى اليراعات ، فانها توضع فى علبة صغيرة مثقبة ، وبذلك تكون العلبة مملوءة بالضوء ..!

وفى نفس هذه المراعى ، كنت أذهب أيضا فى المساء ـ وأنا فى مثـل سنهم ـ ولم أكن أعرف جيدا ان كانت هذه اليراعات أرواحا أم نجوما ، ولكن كنت أغلق عليها علبة صغيرة ، وكنت أحملها الى المنزل لتبعث لى ضوءا الى جانب سريرى .. انه ضوء من الفضة ، وكنت أنفخ عليه من أعلى لأرجعه من جديد ..

ومن أجل الامتحان ، كان مارتينيللى قد ابتعد عن الفراشات فى النهار ، ولكنه لم يمتنع عن اليراعة أو الصرار .. وكان يخرج من المنزل بعد العشاء مباشرة مع أخيه الأصغر ، وولدين أو ثلاثة من أولاد السنة الأولى الذين يسكنون فى نفس المنزل .. فالمروج قريبة جدا ، ويمكن منها رؤية النوافذ المضاءة ، وخيال الوالدة فى المطبخ ..

ومن المستحسن ألا يكون هناك ضوء القمر ، حتى يتمكن المرء من

رؤية اليراعات جيدا ، وعند الجلوس على الحشائش ، يمكن رؤية تلك النجوم الصغيرة تظهر ثم تختفى وتمر قريبة جدا .. حتى تبدو وكأن المرء يستطيع أن يمسكها بيده . ولكنك لو مددت يدك ، فانك ستجدها تلمع من بعيد.. هناك بالقرب من صرصور لايُرى ، ولكن يُسمع صريره .. فانه ولا شك صرير خافت جدا صادر من تلك الصراصير التى لم تخرج بعد من أعشاشها المصنوعة من الأوراق والطين .. وتظل على العتبة للتطلع الى اليراعات التى تبدو لها كأنها نجوم ، فالأطفال وصرار الليل لهم نفس السماء ..!

ويوجد من بعيد صرصور كبير ، لابد أنه من تلك الأنواع السوداء التى تنجح فى الهروب من اليد بعد أن تمسك بها .. فانه يقفز ثم يسقط على مجموعة من اليراعات المطفأة ، فيطيرها خائفة مذعورة مثل الشرارات..

انه ضخم لدرجة انه يحدث اهتزازا فى سيقان الزهور ، عندما يقف بجانبها .. أما اذا وقع على احدى الوريقات الجافة ، فيسمع له صوت وسط السكون ..

وربما يمكن فى الليل ، وفى هذا السكون المخيم ، سماع صوت نمو النباتات الصغيرة ، وتفتح الأزهار ، وسير النمل !.. وينصت الأطفال الى تلك الأشياء التى تحدث تحت سماء منخفضة ، وهم جالسون على الحشائش ، متماسكين بالأيدى .. انها سماء منخفضة بمقياس قفزة صرار الليل ، أو تحليقة احدى اليراعات ..

« هل نعود الى المنزل ؟.. ان الصغار خائفون جدا من طقطقة احدى الجذور عندما اصطدم بها أحد الزنابير الشاردة ، ومن سقوط صرصور على ظهر أيديهم .. وينظرون الى النوافذ المضاءة التى يظهر من خلالها خيال أمهاتهم ، فان ذلك يطمئنهم بعض الشىء .. هل نعود الى المنزل ؟ »

لم يحن الوقت .. ان مارتينيللى يريد أن يأخذ اليراعات ، ويترك ليوناردى ليستذكر تاريخ حروب الاستقلال حتى منتصف الليل . ولدى مارتينيللى علبة صغيرة يريد أن يضع يراعة بداخلها .. ويترك سبادونى

ليحفظ عن ظهر قلب اسم عاصمة السويد ، وطول نهر البو ، بينما يضع هو الآن بداخل العلبة ورقة شجر لتكون غذاء لليراعة ، ولكن أى شراب تشرب اليراعات ؟..

« وهل تشرب اليراعات ؟ »

ماذا تريد يا مارتينيللى أن يعرف أطفال السنة الأولى الثلاثة الذين يرتدون مرايلهم المدرسية ، والذين يخافون الزنابير وقلوبهم متجهة الى خيال أمهاتهم ؟..

وتحت هذه السماء المنخفضة الى علو قفزة صرار الليل ، أو تحليقة احدى اليراعات .. يستمر النمل فى سيره ، والزهور فى نموها ، وصرار الليل فى رؤيته للعالم من عتبة منزله ..

يسير سبادونى فى هذا الصباح أكثر بطأ ، لقد تعلم أشياء أخرى فى هذه الليلة .. والآن فضلا عن معرفته لطول نهو البو ، وعاصمة السويد ، يجب أن يحترس ويأخذ حذره حتى لا يفقد ما يعرفه عن النرويج وليتوانيا ..!

مساكين هؤلاء الأطفال ، فان أدمغتهم لابد أن تحفل بالأسماء الغريبة.. ولكن من هو ذلك المدرس الذى لديه الشجاعة فى ألا يسأل أطفال السنة الخامسة فى الامتحان عن عاصمة ليتوانيا ؟

ان هذا السؤال يعتبر انتقام الكبار من الصغار ..!

« لاشك أنك تلهو وتلعب ، وليس عندك أدنى مسئولية .. والحياة بالنسبة لك لطيفة مملوءة بالزهور وصرار الليل فقط .. قل لى ما هى عاصمة ليتوانيا ؟ ! »

وتنبثق من تلك الحياة المملوءة بالزهر والصرار أول دمعة ..!

وليوناردى مشحون كله بالتواريخ ، ولا يتحرك أبدا .. وتكفى حركة خفيفة لتتساقط تلك التواريخ على الأرض ، وتتناثر مثل تروس الساعة !

« مانيلى » شاحب ، ونحيف ، وعيناه واسعتان .. ولا يفتح فمه لأنه لو فتحه برهة قصيرة ، فستخرج منه جميع الأفعال الشاذة واحدا وراء

الآخر .. ولا تعود أبدا ، وعلى ذلك فان فمه سيبقى مقفولا حتى فى لحظة الامتحان !

ان الفعل الشاذ ــ مثل الطائر الصغير ــ اذا راعيته وغذيتــه وربت عليه بيدك ، سكن .. ولكنك اذا فتحت القفص ، فسيهرب بعيدا .. مهما حاولت أن تغريه وتناديه بأحسن الأسماء ، ويحوم حولك ، ويخيل اليك أنك قادر على أخذه ثانية .. ولكنه لن يعود ثانية الى القفص ..

وما شأن مارتينيللى ؟..

آه انى خائف على مارتينيللى ألا يجتاز الامتحان.. فانه ينظر الىّ ، ولكن لا أستطيع أن أقرأ شيئا فى عينيه عن قسمة الأعداد العشرية مثل أمس ..!

ويوجد ضوء مكان قسمة الأعداد العشرية ..

وهذا الضوء هو ضوء اليراع المقبوض عليه داخل العلبة الصــغيرة ، ويسألنى :

ــ ياسيدى المدرس .. هل تشرب اليراعات ؟

وحتى أنا أيضــا لا أعرف .. فانه ســؤال أصعب من ســؤال عاصمة ليتوانيا ..!

وأقول له : « مارتينيللى يجب عليك أن تستذكر .. لا تضيع الوقت فى عمل هذه الأشياء .. أراهن على أنك كنت سائرا مساء أمس فى المراعى »

ــ نعم .. لقد كان هناك صرار الليل ياسيدى المدرس ، وقد ظل ثابتا فى نقطة واحدة ، كان صغيرا .. وكان خائفا من القفز .. »

آه .. لماذا أمنع مارتينيللى من الاستمرار فى الحديث ؟..

لماذا لا أعيده الى مكانه بتأنيب شديد ؟.. وماذا يجتذبنى لقصة صرار الليل ، ولماذا أتحرق شــوقا لكى أرى ما فى العلبة .. تلك اليراعة التى أخذها مارتينيللى ليلة أمس ؟

ربما لا أكون مدرسا طيبا ، ولكن تلك العلبة الصــغيرة عبــارة عن مغناطيس

وليوناردى أيضا مملوء بالتاريخ ، لايستطيع أن يحدق فيها النظر ولديه رغبة فيها . ومانيلى ، انى أفهمه جيدا .. لابد أنه يبذل مجهودا ضخما لكيلا يسأل ويقول : « هل ترينى يا مارتينيللى ما بداخل العلبة ؟ »

ولكن اذا فتح فمه ، فستطير منه جميع الأفعال الشاذة ، كما لو كانت طيورا صغيرة .. ومارتينيللى سعيد .. سعيد بذلك الضوء الذى لايراه ، ولكنه يعرف أنه يتألق داخل العلبة !

لا أستطيع أن أسأله أو أقول له : « هل ترينى يا مارتينيللى ما بداخل العلبة ؟ ! »

ولكن ليس هناك أحد عندما يكون سعيدا — من يستطيع أن يقاوم الحاجة الى اظهار سعادته

ويعطينى مارتينيللى العلبة الصغيرة قائلا : « سيدى المدرس .. هل تريد حقا أن تراها ؟ ! »

وأتساءل بجد ووقار ، ولكن ليس الى الدرجة التى تخيفه ، وتجعله يفكر فى استعادة العلبة : « هل تريد حقا أن أنظر اليها ؟ »

وأقول فى صوت يحمل معانى التساهل : « لنرى هذا الضوء الجميل الباهر »

ولكن قلبى كان يدق بعنف ، عندما كنت أفتح غطاء العلبة شيئا فشيئا حتى لا تهرب اليراعة .. وكان مارتينيللى يرقبنى مبتسما ، وأنا أرفع الغطاء بحذر وبطء .. وكان الفصل وكأنه فى منطقة شبه الظل .. سأرى جيدا ضوء اليراعة !

ولكن أين الضوء ؟ انه غير موجود ..

وعلى ورقة الشجرة المنكمشة ترقد اليراعة ميتة ممددة ، وتبدو العلبة كأنها حجرة صغيرة ذات جدران عالية باردة أو سرير صغير .. !

وسأل مارتينيللى ، وهو واثق من سعادته ، حتى انه لم يتعب نفسه بالمجىء والنظر اليها : « سيدى المدرس هل لها ضوء كثير ؟ »

لماذا أجيبه بالنفى ؟ ما دامت هناك سعادة ، فانه يكفى الاعتقاد

بامتلاكها .. وأغلق الغطاء ثانية ، وأقول له :

« انه ضوء جميل جدا يا مارتينيللى ، ولكن استذكر الآن .. استذكر قسمة الأعداد العشرية .. والا فانك لن تنجح ، تذكر هذا جيدا »

وبعد أن أخذ مارتينيللى العلبة ثانية ، عاد الى مكانه ، وجلس بجد هذه المرة ، وأخذ يستذكر قسمة الأعداد العشرية !.. وهو يكتب ، ويكتب ، فى غاية السعادة ..

أمام عينيه العلبة ، ينظر اليها من حين لآخر .. وبعد ذلك يبدأ فى الاستذكار وهو أكثر نشاطا ..!

لقد ماتت اليراعة ، ولكنه لايعرف .. يوجد ظلام داخل العلبة ، ولكنه يظن أن هناك ضوءا كثيرا وانه كما لو كان ..

ويستذكر .. ويستذكر .. وربما كان ذلك بفضل تلك اليراعة الصغيرة الراقدة على الورقة المنكمشة التى يعتقد أنها حية تصدر ضوءا ، ربما بفضلها سيتعلم مارتينيللى قسمة الأعداد العشرية وينجح فى الامتحان

ـــال

الفصل الثامن عشر

آخر يوم في المدرسة

بعد قليل سيدق الناقوس ، وستكون ساعة الوداع يا أولاد ..

لقد قضينا معا كل الأيام لمدة عامين .. وكان مانيلى صغيرا جدا ، يرتدى مريلة جديدة واسعة كانت تصل الى قدميه .. والآن ها هى ذى المريلة قد بهت لونها وتصل الى الركبتين ، ومانيلى الآن رجل صغير .. ويؤسفنى أن أمه لا تستطيع ارساله الى المدرسة الثانوية ، أمه التى كنت أقابلها كل صباح فى السوق بحقيبتها التى كانت تبدو فارغة .. ولكنها على العكس كانت تحوى حاجاتها وحاجات أولادها الأربعة ..!

لقد وزعت الشهادات ، ونجح مارتينيللى .. انه ينظر الى الدرجات دون أن يصدق حتى نفسه . وفى هذا الصباح ، قامت أمه بتصفيف شعره ، وربطت له « كرافتة » جديدة كانت تبدو كأنها فراشة بيضاء هائلة ..

ونجح «كريبا» أيضا ذلك الطويل القامة ، ذو السنوات الثلاث عشرة وذو الساقين الكثيفتى الشعر، والذى ينام دائما ، والذى سيذهب فى العام القادم الى المدارس الثانوية لينام !

ولم يرسب سوى انطونيللى ذلك الصبى الذى قضى كل العام فى حفر اسمه على الدرج بمطواة من صدف السلحفاة ، ولكنه كان بطيئا لدرجة انه كتب من اسمه « انطون » فقط ، وفى العام القادم سيكون عنده أستاذ آخر ، وسوف يكتب « يللى » (بقية اسمه) ثم من المحتمل أن ينجح ..!

ونقول وداعا أيها الأولاد .. وداعا لشجرة الفناء التى شاهدناها معا

مرتين ، وهى تخرج أوائل أوراقها وزهورها .. والآن نراها فى منتصف النهار مملوءة بالصراصير التى تغنى ، والتى تضايق السيدة المديرة .. ان هــذه الصراصير لم تستطع معرفة أهمية هذه السيدة التى كانت تخيف الأولاد والمعلمين بتحريك سبابتها .. تلك الصراصير التى كانت تستمر فى الغناء ، ولكنها فى هذا الشتاء ستموت .. فما أقصر الحياة للذين يغنون ، أو لمن يقصر حيــاته على الغنـــاء .. وما أطولها لهذا الذى يعيش حكيما ويشتغل ويجمع فى صمت .. ولكنى أنا لم أقم بالتدريس لأولادى حسب النظام المتبع فى المدارس الابتــدائية ، من حيث احترام النملة ، واحتقار الصرصور .. ولم أعلمهم حتى تعظيم التواضع المشهور عن زهرة البنفسج أو أهمية ــ « أخيل » (١) ــ ذلك المحارب الثقيل الظل الذى لو لم يكن محصنا من الطعن لا أدرى هل كان ليرمى بنفسه فى المعارك طواعية وعن طيب خاطر ؟

واذا كتب الأولاد فى موضوعات الانشاء عن ذلك الصبى الأبله الذى أخذ من والدته خمس ليرات ليشترى لعبا وحلوى ، ولكنه بدلا من ذلك أعطاها للفقير العجوز الذى لاقاه عند زاوية الشارع ، فانى كنت أعطيهم درجة سيئة ..

ولهذا ، فان تلاميذى جميعا ظرفاء ، وانه لمما يحزننى أن أتركهم ..

وكان « سبادونى » يعمل مخبرا على زملائه منذ عامين فى أوائل الأوقات التى قضاها معى .. أما الآن فيعتريه الخجل . و « مارينتشى » كان يبكى عندما كانوا يضربونه .. لقــد كانوا يضربونه كل يوم ، وكان يبــكى باستمرار . أما الآن فان أحدا لايستطيع أن يلمسه أبدا لأنه تعلم كيف يجعلهم يحترمونه ، وان هذا لأكثر فائدة فى الحقيقة من أن يتعلم التلميذ طريقة استخراج الجذور التكعيبية !

بعد قليل ، سيدق الناقوس .. وسوف تتصرفون أيها الأولاد ، ولن نتقابل بعد ذلك .. ستذهبون ، ولن ألقاكم حتى فى الطريق .. لأنى سوف

---

(١) أحد الابطال اليونانيين (الاغريقيين) فى حرب طروادة

أترك مهنة التدريس ، وسوف أذهب الى مدينة أخرى ..

وأفتح الدرج لأرد كل الأشياء «المصادرة» فى أثناء العام : مسدس مائى لجوردانى ، وعلبة خراطيش لسبادونى ، ونحلة لمانيلى ، وخمسة طوابع بريد سويسرية عادية لدانيلى.. ولكنه كان يظن أنها تساوى مبلغا وقدره ،... وكان ينتظر هذه الطوابع لأنه كان يجب أن يعطيها الى صبى كان قد وعده أن يعطيه ــ حَسُّونا ــ فى مقابلها ..!

وكان لابد أن يكون الطريق غاصا بالآباء والأمهات والأقارب ، وكانت الضوضاء تصل الى داخل الفصل .. وكان لابد أن تكون هناك أيضا جدة سبادونى .. تلك العجوز التى كانت فى كل مرة ترانى تقول : « شكرا .. شكرا ياسيدى المدرس » وكانت تريد تقبيل يدىَّ لأن حفيدها الصغير له قدمان طويلتان .. وفى يناير عندما جاء عيد الغطاس (١) ، واحتفلت به المدرسة ، لم يكن هناك أى زوج من الأحذية التى قدمتها المدرسة مناسبا له .. واستطردت العجوز قائلة : « سيدى المدرس ، تذكرنا ، ان حفيدى دائما مصاب بالبرد .. وحفلة عيد الغطاس المدرسية ، ولو أنها مظهر للطيبة والكرم ، الا أنها لا تفى بحاجة الأولاد ذوى الأرجل الطويلة . وهناك بعض الفقراء فى بعض الأحيان الذين لايمكن للانسان أن يتصدق عليهم ، ولذلك فقد أعطيت لسبادونى زوجا من أحذيتى التى كانت مناسبة له والتى أبعدت عنه البرد ..

ولا بد أن يكون هناك أيضا والد جوردانى ، وهو رجل رث الثياب ، قصير القامة ، يحيينى على مسافة مائة متر .. وفى بداية العام عندما أخبرته بأن ابنه لايستذكر الدروس ، أمسكه من أذنه ، وأخذ يجذبه منها لمدة خمس دقائق متوالية ، وهو يواصل كلامه ويقول لى : والآن فان الولد لا يستذكر أبدا ، وهو لاينتظر ما أقوله له .. وفى كل الأيام وبانتظام ساعة الخروج يمسك أذنه ، ويجره بهذه الحالة الى المنزل .. ولكنى فى هذا

---

(١) فى هذا العيد تقيم المدرسة حفلة توزع فيها الهدايا على التلاميذ المحتاجين.. ولهذا الاحتفال صلة بالطقوس الدينية

الصباح ، رأيت جورداني مسرورا لأنه قد نجح ، ولأول مرة منذ تسعة شهور لا أرى والده يجره من أذنه !

الشمس ليست قوية هذا الصباح ، والنافذة مفتوحة على مصراعيها .. وتدخل الفصل حشرة ذات جناحين من ذهب ..

« خنفسة .. خنفسة »

ويريد الجميع أن يأخذوها ، أما الوحيد الذى نظر اليها بذهول ، فقد كان مارتينيللى ..

كيف هذا ؟.. كيف يرى مارتينيللى تلك الحشرة دون أن يسرع اليها ، وهو ينشد الأغنية السحرية لامساك الخنافس ؟ !

واذا كان مارتينيللى قد ظل ثابتا ، فهذا معناه أن هناك شيئا فى قلبه .. وهذا يعنى انه غير مسرور لأن المدرسة ستنتهى ، وأنى سأذهب !

ــ وداعا يا أولاد ..

وخيم سكون مطبق على الفصل .. الخنفساء ذات الأجنحة الذهبية ما زالت تطير ، ثم ذهبت بأعجوبة ..

وفجأة سكتت الصراصير عن غنائها ، وظلت مختبئة تحت أوراق شجرة الفناء . وساد صمت أكثر عمقا ..!

ــ وداعا يا أولاد .. لقد مكثنا زمنا طويلا معا ، والآن ــ وعند دق الجرس ــ ستذهبون الى جهة وأنا الى جهة أخرى .. ومن يدرى اذا كنا سنلتقى ومتى .. ربما بعد مدة طويلة . سنسير فى الطريق ، ولايعرف أحد منا الآخر عندما تكونون قد نسيتم مدرسكم ..

ــ لا .. لاياسيدى المدرس ..

ــ سكوت .. دعونى أتكلم ، كونوا طيبين ، تابعوا الدراسة .. ستجدون مدرسين أكثر قسوة فى المدارس الثانوية .. وأنت يا مارتينيللى ، انك لن تستطيع أن تحضر زهورا وفراشات فى الفصل ، ولا حصى ، ولا ذلك الزند الذى يقدح الشرارات الذهبية ، ولا تلك العلب الصغيرة التى بداخلها اليراعات .. ولنحى بعضنا البعض الآن ، لأن فى الأسفل أناسا

عديدين .. وداعا يا أولاد ، سوف أتذكركم دائما ، وكل ما علمته اياكم علمته من قلبى .. فلا تنسوه ، واذا كنت مرة غير عادل ..

وترك مارتينيللى مقعده ، وجاء الى المنصة وعيناه مملوءتان بالدموع ، وتبعه الآخرون والتفوا من حولى ..

ــ لقد « صــادرت » نحلتك يا مانيلى ، وطوابع البريد السويسرية يادانيلى .. وأنت ياجوردانى ، انى أستسمحك لأنى جعلت والدك يجرك من أذنك كل يوم

حتى جوردانى .. كانت عيناه دامعتين ، وهو يقول :

ــ لايهمك ياسيدى المدرس .. ان فى أذنى « كالو » واقترب منى ، وجعلنى ألمسه

وقال سبادونى : « وأنا كذلك » واقترب منى

انه ليس صادقا .. انه أيضا يود أن ألاطفه قبل أن أتركه ..!

وتزاحم الجميع حول المكتب .. وكل واحد منهم به شيء ما كان يود أن يرينى اياه ، ويتخذه وسيلة للتقرب منى : اصبع مجروحة ، حرق ، ندبة تحت الشعر ..

ــ لقد « صادرت » جنودك الصغيرة يا مارتينيللى ..

وشهق مارتينيللى قائلا : « اننى أنا ياسيدى المدرس الذى وضعت البرص فى درج مكتبك ! »

وقال سبادونى رافعا يده : « وأنا الذى كنت أحدث صوت البوق فى آخر الفصل ، وأنت ياسيدى المدرس لم تعرف ذلك أبدا »

ــ افعل ذلك الآن ياسبادونى ...

وانتفخت أصداغ سبادونى التى نزلت عليها خطوط من الدموع .. وقلد صوت البوق .. انها تلك الضوضاء الغريبة التى تشبه صوت البوق الذى كنت أسمعه طوال العام ..

ــ مرحى ياسبادونى ..

ومررت بيــدى على شعره .. انها المرة الأخيرة التى أسمع فيها هــذه الضوضاء ..!

وقال واحد منهم : « وأنا أيضا أستطيع أن أفعل ذلك »

ــ وأنا أيضا ..

ــ وأنا أيضا ياسيدى المدرس ..

وقلت لهم : « افعلوها .. افعلوها جميعا .. هيا »

وتجمعوا حول المكتب بالقرب منى ، مثل اخوتى الصــغار ، ونفخوا أصداغهم بجد وقلدوا صوت النفير .. انها جلبة الوداع !

وقالوا : « هل تستطيع أن تحدث ذلك الصوت ياسيدى المدرس ؟ ! »

ــ حسنا .. لأن اليوم هو آخر يوم ، فانتى أستطيع أن أفعلها ..

ونفخت صــدغى .. وفتح الفراش البــاب ، يخبرنى بانتهاء الزمن .. وأدهشنا أنه هو أيضا قد نفخ صدغه ، ولكنه لم ينجح فى تقليدنا !

وها هو ذا صوت الناقوس يأتى من أسفل الفناء ، ويدخل الفصول ، ويصل عبر السلم ، وينتشر خلال الممرات ..

وتزداد الجلبة التى فى الشارع ..

ــ وداعا يا أولاد ..

وهنا قفز مارتينيللى ، وعانقنى ، وقبلنى على خدى ، وتركها قذرة من اثر « الربسوس » وقال :

ــ وداعا .. وداعا .. ياسيدى المدرس

وتعلقوا بيــدى وسترتى ، ووضــع دانييللى فى جيبى طوابع البريد السويسرية ، ووضــع سبادونى علبة الخرطوش ، وســألنى مانيلى عن العنوان .. وحينئذ سألنى الجميع عن العنوان ، لأنهم يريدون أن يرسلوا الى بطاقة أو خطابا ..

وكان الناقوس يدق دائما ، والفصول الأخرى تستعد للخروج ..

ــ يا أولاد ، يجب أن نذهب الآن ..

يجب أن أنظمهم فى صفوف .. ولكن ذلك محال ، ونخرج كما لو كنا نجرى .. أنا فى الوسط ، وبقية الأولاد من حولى .. وهكذا ننزل السلالم ولكن بمجرد أن نصل الى الشارع يختفى الأولاد ، وتأخذهم أمهاتهم وآباؤهم وجداتهم وأخواتهم الكبيرات .. وأظل أنا وحيدا على مدخل المدرسة ، منكوش الشعر ، وقد نقص من سترتى زرار .. ترى من أخذه ؟ وخدى ملطخ « بالربسوس »

ما زلت أسمع الأصوات من بعيد : وداعا ياسيدى المدرس ..

ــ سأرسل لك بطاقة ..

وأرى عن بعد والد جوردانى يرفع قبعته ليحيينى .. انه لم ير بعد الشهادة ، لأنه كان يمسك الولد من أذنه ويهزه ..

ــ وداعا ياسيدى المدرس .. وداعا يا أولاد ..

رويدا ، رويدا .. أصبح الشارع مقفرا ..

وداعا يا أولاد .. وداعا أيتها المدرسة ..

من تلك اللحظة لست مدرسا بعد ..

وداعا أيتها المدرسة التى كنت بها تلميذا ، ثم مدرسا ، والتى لن يمكننى أن أدخلها لا تلميذا ولا مدرسا .. وبعد زمن طويل سأعود الى روما ، وسأجد معلمين آخرين ، ومديرة أخرى ، أو مديرا لايعرفنى .. ولأى عذر ، سأستطيع أن أدخل لأرى مرة ثانية الفصل ، ولأفتح « الدرج » حيث وضع مارتينيللى البرص وداعا حقيقيا الى الأبد أيتها المدرسة !..

ولكن هناك بعض الأشياء بقيت لى : الطوابع السويسرية الخاصة بدانيللى ، وخراطيش سبادونى ، وشىء ما قد بقى لمارتينيللى .. انه هو وحده الذى لابد وأن يكون قد أخذه : زرار السترة ..

واذا كان هناك شىء يؤسفنى عندما أصل الى المنزل ، فهى بقعة « الربسوس » التى لابد أن أزيلها من فوق خدى ..

عزيزى القارىء ..

ولو أن ذكريات المدرســة الاعدادية والثانوية أقل تأثيرا من ذكريات المدرسة الابتدائية ــ وربما كان ذلك لأنها أحدث عهدا ــ فانى أقدم اليك تلك الذكريات القصيرة التى ستجدها كما تحس بها ، وانى لواثق من أنها غير مملة ..



الأزهار طبقا لنظرية فيثاغورث

وأخيرا ــ وأنا لم أتخذ قرارا ــ عدت اليها بالأمس .. فبعد عدد من السنين عدت الى مدرسة من المدارس التوجيهية .. صعدت سلمها رويداً رويدا .. ذلك السلم الذى كنت أصعده فى وقت ما بسرعة . لقد رأيته مرة ثانية ، ورأيت جدران البهو الرمادية اللون .. ذلك البهو الذى ما ان ندخل فيه حتى نشعر بأنه فى رطوبة بهو الدير ..

وأخذت فى قراءة السبورة المكتوبة عليها درجات الامتحان .. انها دائما معدة كالمعتاد ، وتقع خلف شبكة من السلك رقيقة جدا لدرجة كبيرة .. كل هذا دون أن أشعر بخوف ، ودون أن ينبض قلبى .. كما كان يحدث لى فى الأيام الماضية ..

« رينالدو أباتيكولا » حصل على الدرجات الآتية : ٦،٦،٧،٦،٦،٧،٨،٦،٦ منقول ..

« جوليوبالدينى » ودرجاته كالآتى : ٦،٥،٦،٤،٣،٦،٦،٥،٧،٦ راسب ..

« جوفانى بوتزيو » ودرجاته كالآتى : ٧،٥،٥،٦،٧،٧،٦،٦،٧ وسيؤدى امتحان الدور الثانى فى اللغتين الايطالية واللاتينية ..

مسكين « جوليوبالدينى » ..

ولكن لايهمنى شىء من أمره ..

انها أسماء ، ولكنى لا أعرف لمن تكون .. هل « جوفانى بوتزيو » طويل القامة أو قصيرها ؟

هل يلبس « رينالدو أباتيكولا » النظارات مثل « لويجى أباتيكولا » زميلى منذ خمسة عشر عاما ؟

ففى كل فصل من فصول المدارس الاعدادية ، أو التوجيهية ، يوجد من يدعى أباتيكولا منذ خمسة عشرة عاما مضت ، وكنت فى ذلك الوقت أصعد ذلك السلم وأنا أجرى ، وبعد ذلك ودون أن يدق قلبى أصبحت أسير ببطء تلك الخطوات العشر لكى أصل الى سبورة الامتحان

انه عكس ما أنا فيه اليوم .. فقد كان حينئذ يوجد على السبورة اسمى واسم زملائى :

« لويجى أباتيكولا » ـ الذى كان يلبس النظارات ـ ناجح ..

« فرى ازولينى » صديقى حتى اليوم وان كان بعيدا عنى ـ منقول

« أدريانوكاريللى » ـ ذو الشعر المنقوش وذو السيقان الكثة بالشعر ـ منقول ..

« فرجيليو اندريولى » ـ وقد نال اليوم أكبر شهادة جامعية فى ايطاليا والذى كان يستذكر ست عشرة ساعة فى اليوم ـ ناجح ..

أما « ريناتوجاكوفاتشى » ـ الذى كنت أقوم بعمل الواجبات له ـ فقد رسب ..

أما « جوليوبالدينى » ، فلا يهمنى شىء عنه .. وأما عن « ريناتو جاكوفاتشى » فقد أسفت لرسوبه . فنحن الذين نجحنا فى الالتحاق بالمدرسة ، وأما هو فبقى فى المدرسة الاعدادية ، ولقد فقدناه .. ولم أره بعد .. كان طويلا جدا ، ونحيفا جدا ، وكان يلزم أن نقف على أطراف الأصابع لنقرأ نتيجة الامتحان ، أما هو فكان ينحنى !

ولكن هل كنا أيضا مضحكين للغاية منذ خمسة عشر عاما ؟..كان شعرنا هكذا واقفا مثل شعر الفرشة ، وحب الشباب على وجهنا ، و«بنطلوناتنا» ليست بالقصيرة ولا بالطويلة ، وعضلات أرجلنا كثة الشعر ، ووجهنا مثل وجه الأطفال .. ولكن صوتنا مثل صوت الرجال ؟

وكان يخيل الينا أننا شخصيات بارزة .. وهكذا كنا ننظر الى الفتيات ،

وكنا نرتدى قبعات من القش عريضة للغاية وحولها شريط ، كتبت عليه عبارة : المركب الملكى « دويليو » !

البهو يزدحم ..

الآباء والأمهات والفتية بوجوههم التى تبدوكوجوه الأطفال، وأصواتهم التى تشبه أصوات الرجال ، وتلاميذ المدارس الدينية الداخلية ، يتقدمون للامتحانات كطلبة متقدمين من الخارج ، ويلبسون ملابس الرعاة الصغار

والآن الجو حار ، والنافذة المفتوحة على مصراعيها وتطل على شارع مظلم وضيق وهى لا تصلح لكى تجعل المكان رطبا أو لتزوده بالنور ..

وكان كل من أدى الامتحانات ، يتجمع أمام سبورة النتائج .. كما كان كل من عليه تأديته أن يتجمع أمام باب الفصل ..

ان ذلك التلميذ بلا شك هو « رينالدو اباتيكولا » الوحيد الذى نجح انه يمكث منذ نصف ساعة عند سبورة النتائج ، دون أن يتحرك ، وهو يفعل ذلك ليفاخر بنفسه أمام الناس .. كما أن ذلك هو جوليوبالدينى الراسب ، والذى يمر باصبعه على اسمه ودرجاته ، وهو شاحب اللون ، وبعد ذلك يبدأ هذه العملية من جديد آملا أن يكون قد أخطأ ، واصبعه ترتجف ، ويشير فترة من الوقت الى درجات أباتيكولا الممتازة !

مسكين تلك الاصبع التى تنتهى دائما عند كلمة راسب ..

وأنا .. لماذا أمكث هنا ؟.. فلا صلة بعد بينى وبين المدرسة !

ربما يكون حضورى الى المدرسة لرؤية جوليوبالدينى ذى الاصبع المرتجفة ـ وأولئك الرعاة الصغار الذين يلبسون الملابس السوداء ، التى تجعلهم أكثر شحوبا وقسوة منى !

هل يلبس هؤلاء الرعاة السراويل تحت ستراتهم الدينية ؟

ربما كان ذلك صحيحا ، ربما كانوا يلبسون نفس « البنطلونات » التى ليست بالقصيرة ولا بالطويلة والتى يرتديها الفتيان الآخرون ، وربما يشعرون فى قلوبهم بنفس الرعب ، ويفكرون فى نفس الأفكار : تشيرو ، وقمبيز ، ليكورجو ، سولونى ..

وأذكر عندما كنا فى السنة الخامسة بالمدرسة الاعدادية ، أننا كنا نذاكر مادة « التاريخ الشرقى والاغريقى » عند ساعات العودة بعد الظهر ، وانى لأتصور الكتاب الآن .. لقد كان غلافه أخضر اللون ومكتوبا عليه « رينالدو لويجى » « التاريخ الشرقى والاغريقى »

كان الاستاذ « اميلياتى » المدرس بمدرسة الناصرية الداخلية ، يشرح التاريخ ، ويعيد الشرح مرة بعد مرة ، ولم نكن نسمع شيئا .. كان يتحدث عن تشيرو ، وقمبيز ، وليكورجو ، وسولونى .. وكان الجو حارا ، وبمجرد سماعنا لناقوس انتهاء الدرس كنا نستيقظ ..!

أى شىء تحت ابط هذا الفتى الصغير ؟..

آه ، لكنى أعرفه .. انه ذلك الكتاب بعينه !

اذن لم يتغير شىء .. وما زال الأمر كما كنا ، منذ خمسة عشر عاما مضت .. ألا تزالون تدرسون فى هذا الكتاب « علم الصرف اللاتينى » لمؤلفه زينونى ؟

أما زلتم تدرسون على — زينونى — كما كنا نقولها على أيامنا ؟.. أنتم بالطبع تقولون ذلك الآن .. كتاب زينونى المبقع ، والمطوى من كثرة الاستذكار ، والذى تمزق غلافه ، وتبعثرت صفحاته التى تطير فى الهواء ، وتحتاجون الى نصف ساعة على الأقل لارجاعها وجمعها .. وأنتم أيضا ترسمون على زينونى الرسومات الشائنة (أليس هذا حقا ؟ آلا تخفون تلك الرسوم بالقلم « الكوبيا » فى اليوم السابق للامتحانات ؟)

كل شىء كما كان منذ خمسة عشر عاما ..

لقد كنا فى تلك الحالة التى أنتم عليها اليوم .. ودخولكم على أطراف الأصابع فى فصول الامتحانات كان حالنا نحن ، وكنا نزدحم فى المقاعد الأمامية لنسمع الأسئلة الملقاء على الآخرين .. وكان السؤال الذى نعرف اجابته يضايقنا ..

لأننا كنا نفكر أن هذا السؤال لن يوجه مرة ثانية لأحد ..

وتلك الأسئلة التى لم نكن نعرف اجابتها كانت تملأ قلوبنا بالرعب ..!

ـ متى ولد ساللوستيو ؟.. متى ولد ؟.. متى ولد ؟..

والجميع يتصفحون بسرعة كتاب « تاريخ الأدب اللاتينى » ويرتجفون ، وأيديهم لا تعرف كيف تصل الى الصفحة ، وأعينهم لا تعرف أين يقع السطر !

ـ ولد فى عام ٨٦ قبل الميلاد فى « اميتيرنو » ، مدينة أهل سابينى

وبعد أن وجد هذا التاريخ ، فها هى ذى شكوك أخرى .. متى ولد « قيصر » ؟..

فى أى عام قام « أوراسيو » برحلته الى « برنديزى » ؟.. كم رواية كتبها « بلاوتو » ؟.. ما هى أهم رواياته ؟..

ويبدو ـ فى وقت معين ـ بسبب الجهد الذى نبذله لنتذكر كل شيء .. يبدو لنا أننا لا نعرف شيئا ، وتقطر الجبهة عرقا باردا ، ونرغب فى الخروج والانصراف الى أبعد ما يمكن ما دام يخيل الينا اننا لا نستطيع أن نجيب عن أى سؤال من الأسئلة ..

وتدور فى الرأس تواريخ وأسماء وأماكن وعناوين كتب وروايات : سنة ٣٧ قبل الميلاد أربعون رواية على ما يقول فارونى ، واحدى وعشرون رواية على حد قول ايليوستيلونى ، سنة مائة قبل الميلاد ، وعشرات من الأسماء الاغريقية الشهيرة فى فن الدراما والكوميديا من أسماء المؤلفات القديمة ، المربع المنشأ على الضلع المقابل للزاوية القائمة يساوى مجموع المربعين المنشأين على الضلعين الآخرين . والنباتات ذات الزهور الواضحة والأسدية ، والأقلام ، والكأس ، والتويج ، تعتبر نباتات زهرية ، ومزيج من الأبيات الشعرية ..!

لكن ماذا يحدث ؟ وكيف يحدث هذا ؟ فبين روايات بلاوتو قد بقيت نظرية فيثاغورث مختفية ، ومن نظرية فيثاغورث تنبت الزهور ومن ثم تختفى الأزهار ، وبعد ذلك يظهر الثور الذى وصفه الشاعر كاردوتشى فى قصيدته المشهورة ..

انها الرهبة من الامتحانات التى تجعل من تلك الأشياء هزلا ومزاحا ،

انها الرهبـة من الامتحانات التى تخلط المواليـد مع الموتى ، والثيران والأزهار ، وعواصم أوربا ونظرية فيثاغورث ، وتهزها وتقلبها كما تقلب الوريقات التى عليها أرقام « اليانصيب » ولكن لحسن الحظ ان كل شيء فى لحظة الامتحان يبدو حسنا ، فالأفكار تعود فى مكانها .. ولا خطر من أن يسأل التلميـذ عن نظرية فيثاغورث ، ويجيب وهو ينشـد شـعر كاردوتشى .. !

وفى الخارج ــ فى البهو ــ ينتظر الآباء والأمهات دون صبر ، ينظرون الى ساعة الحائط .. وفى كل مرة عندما يفتح الباب ويخرج منه فتى ، يأملون أن يكون ابنهم . والآباء يروحون ويجيئون !

الأمهات يتحدثن فيما بينهن ..

وتقول احداهن : « لقد استذكر ابنى كثيرا ، وهو عصبى ، يفتح ويغلق عينيه باستمرار »

وتقول أخرى : « لقد كان ابنى مريضا طوال الفترة الثانية ، وكان لزاما على أن أحضر له مدرسا خاصا .. »

وأم كانت أصغرهن جسما ، ولكنها أكثرهن غطرسة ، تقول :

ــ ان ابنى يؤدى امتحان سنتين فى سنة واحدة !

« يمتحن سنتين فى سنة ؟ » وتنظر اليها الأمهات بحسد ..

فتقول الأم :

ــ نعم ، ابنى يمتحن سنتين فى سنة . ولقد حصل على متوسط ثمانى درجات فى جميع المواد . ومن السنة الرابعة الاعدادية ينتقل مباشرة الى السنة الأولى التوجيهية دون أن يدرس السنة الخامسة الاعدادية ..

انه يستذكر دائما .. وانى كثيرا ما أحثه على ترك الاستذكار ، وعلى أن يذهب ليتنزه مع اخوته ..

ــ انه ظاهرة غريبة .. نريد رؤيته !

وها هو ذا الباب ينفتح .. وتبدو الظاهرة الغريبة ..

انه ضئيل الجسم ، وعمره خمسة عشرة عاما ، ولا يبدو عليه أنه يزيد

عن اثنتى عشرة سنة . يحمل نظارات ، ويبدو كأنه أصلع ، لكثرة حلاقة شعره ، وهو مكروه وضئيل .. ولكنه مملوء بالغرور كأمه التى لو كان لها ذيل كذيل الديك الرومى ، لفتحته على وسعه كالمروحة ، ومشت متبخترة وهى تمسك ابنها من يده !

يخرج الآن راع صغير .. لقد نجح ، ولكن ليست معه أمه ليقول لها وهو مسرور انه قد نجح .. فأمهات الرعاة بعيدات عنهم ، حيث يعشن فى بلدان بعيدة ، ولكى يصلن اليهم فلا بد من القطار والعربات ..

والراعى الصغير يمكث هناك فى ركن ، وهو فى منتهى الهدوء ، يتصفح بصمت تلك الكتب التى لو تصفحها منذ ربع ساعة لما استطاع ، فقد كانت يده ترتجف .. وهو الآن ينتظر زملاءه ..

ويخلو الفصل من التلاميذ شيئا فشيئا .. ويبقى ثلاثة تلاميذ ، ثم اثنان والأساتذة متعجلون ينظرون الى الساعة . بقى تلميذ واحد فقط ، وهو يرتجف ويعرق .. انه راع صغير ، وقلبه يدق بقوة تحت سترته الدينية التى يرتديها ..

ما أسعدك : أيها الراعى الصغير ، ما أسعدكم أيها الصبية .. فأنتم ما زلتم تخافون من هذه الأشياء ، تلك الأشياء الصغيرة .. تخافون أن تجيبوا بأن الفراشات ذات أجنحة جافة بدلا من أن تقولوا انها ذات أجنحة لينة ، وان القلب له ثلاث أذينات بدلا من اثنتين .. وان زهرة الخوخ بيضاء ولها ست بتلات ، والحقيقة أنها حمراء فاتحة ولها خمس ورقات !

أشياء صغيرة لا أهمية لها ، وصغيرة تماما مثل الفراشة ، والقلب ، والزهرة ، تلك الأشياء للأسف نحن لا نهتم بها ، ولا تهمنا .. ولا نشعر أيضا برهبة من السبورة التى تعلّق عليها درجات الامتحان .. راسب ، وناجح ، له دور ثان ؟.. ماذا يهمنا من ذلك ؟

من هو رينالدو أباتيكولا ؟.. اننا لا نهتم بمعرفته ..

نقرأ درجات الامتحان بهدوء .. وان كان قلبنا يدق بشدة ، فذلك بسبب صعود السلالم .. ولا يوجد أحد بعد فى الفصل !

الرعاة الصغار يرجعون الى المدرسة الداخلية جميعا ، ويودون لو أنهم يصيحون قائلين : « أنا ناجح ، أنا ناجح .. ولكن بالعكس كانوا صامتين يعودون على أطراف أصابعهم الى حجراتهم الصغيرة .. يفكرون فى أمهاتهم البعيدة عنهم ، فى بلد يتطلب الوصول اليه ركوب القطار و«الحنطور» ..

أما أنا ؟..

سأعود خلال بضع سنوات .. سأصعد السلالم بسرعة ، وسأقترب من سبورة القبول بالمدارس الاعدادية مرتجفا ، وأبحث بيد عن اسم .. بينما أمسك بالأخرى يد ولدى !



الفصل العشرون

وداعا لامتحان الشهادة الحكومي

والآن وداعا لامتحان الشهادة الحكومي .. وهذا هو آخر عام ..

وابتداء من سنة ١٩٤٠ ، لن تكون هناك تلك اللجان الخارجية المرعبة ، وسيمتحن التلاميذ أساتذتهم أنفسهم بمساعدة مبعوثين من الوزارة ..

وسيذهب هذا الامتحان الحكومي - بعد سبعة عشرة عاما - الى غير رجعة ، ولن يبكيه أحد . كان مغامرة على أية حال .. مغامرة جميلة اذا نجح فيها التلميذ ، ولو لم يستذكر .. ومرعبة اذا حدث العكس !

سيذهب بعد أن هز الجهاز العصبى لآلاف من الطلبة ..

وهناك من هم مثلى ، ومن تركوه منذ اثنى عشر عاما . ولا يزالون يحلمون به ، ويبدو لهم انه يجب أن يؤدوه ، ويحسون بذلك الحر الخانق فى شهر يوليو . ويرون أساتذة ضخاما يحدقون فيهم النظر ، ويشيرون اليهم بالسبابة ، قائلين : « اذا أخذنا من غاز الميثان ك يد ٤ ذرة ايدروجين ، وأضفنا الى الجذر الآحادى الذرة . ك يد ٣ فلز ، فعلى أى شىء نحصل ؟ من يعرف هذه الأشياء ؟.. لا أحد .. حتى الأساتذة لايعرفونها ، مع أنهم يتظاهرون بمعرفتها ، أو أنهم قرءوها منذ لحظة فى الكتاب .. !

وأستيقظ ، وقلبى يدق بشـدة .. وأنا أتصبب عرقا من ذلك الحر الشديد الذى أحسست به منذ اثنى عشر عاما . ولكننى سعيد .. سعيد لأن هذا ليس الا حلما ..

ومع أننى فقير ، ولى أسرة ، لا أدرى هل تكفينى مائة ألف ليرة لكى أعيد امتحان الشهادة العامة ؟..

ولا أدرى هل سأكون قادرا على أن أكرس نفسى للاستذكار ثلاثة شهور متتابعة ليلا ونهارا ... وخصوصا بالليل ... هل تذكرون ؟..

كان الجو حارا ، والنوافذ مفتوحة .. وكانت هناك بعض الفراشات الكبيرة التى اجتذبها النور ، وأعماها الضوء . تتساقط على المقطوعة الثانية والعشرين من قصيدة « اورلاندو الغضوب » (١)

« ومزق الحجاب الذى كان يخفى .. .. ..
ذلك الاشعاع المخيف السحرى .. .. ..
الذى كان يقع كل من ينظر اليه .. .. ..
وقد أعماه ضوؤه .. .. ..
ولم يكن هناك طريق لتفاديه .. .. ..

وكانت تلك الفراشات ، تحدث طنينا مخيفا فى سكون الليل العميق ..

وكان هناك اثنان دائما فى الحجرة .. أحدهما يقرأ بصوت عال ، والثانى نائم وعيناه مفتوحتان ..

وكانت هناك على المنضدة القهوة المضروبة بالبيض ، والليمونادة التى أعدتها الأم ، وأكوام السجائر .. وعندما كانت تنتهى تلك السجائر كانت أعقابها تصلح لعمل سجائر أخرى ، ويستمر الاستذكار ساعة .. ثم هناك عشر دقائق للراحة ، يتخللها الحديث عن البنات ، أول بنات .. ومن ثم فان تلك الدقائق العشر كانت تمتد الى ساعتين ، وتأتى من الطريق أصوات المكانس !

ــ هل نجحت فى .. .. ؟

ــ آه .. لا .. .. بعض القبلات فقط

وينبثق الصباح ، وتأخذ السماء لونها رويدا رويدا ، ولا يُرى ضوء المصباح ..

وأوائل الترام ، ثم رجل يصفّر بفمه .. ثم يأتى النوم ، وتأتى الينا الأم لتجدنا نائمين وجبهتنا على قصيدة « المدافن » للشاعر أوجو فوسكولو ،

---

(١) تأليف لودوفيكو آريوستو

وزميلى قد وضع صدغه على قصيدة يأس « ديدون » (١)

« أيها الخائن هل راودك الأمل أن تتمكن من اخفاء جريمتك البشعة وأن تبتعد عن أرضى خفية ؟ »

وتقول الأم : « اذهبا الى السرير ، فان هذا ضار بصحتكما والأحرى أن تستذكر نهارا ..

ولكن الليل جميل .. فيه السكون الشامل ، ونستطيع أن نحس بكلمات ديدون .. وتستطيع ذاكرتنا أن تعيها

وفى النهار ، كنا نذهب لنسمع أخبار امتحان زملائنا .. وكنا نجلس فى أوائل المقاعد ، ونفتح آذاننا جيدا ، لنستمع الى الأسئلة ونوعها .. ونأخذ عنها بعض الملاحظات ..

وكثيرا ما كان يأتى السؤال عن أسباب الثورة الفرنسية ، وحركات سنة ١٨٢١ .. وفى المساء القهوة ، والليمونادة ، والسجائر ، والأسباب البعيدة للثورة الفرنسية ..

« الأسباب البعيدة للثورة الفرنسية لابد وأن ترجع الى بقاء المؤسسات والتنظيمات الاقطاعية ، والى عدم المساواة بين الممتازين وغير الممتازين.. »

نفس الجمل دائما ، هل تذكرونها ؟ ..

وفى أى مرجع من مراجع التاريخ ، كان يبدأ هكذا الفصل الخاص بالثورة الفرنسية ..؟

انها جمل لانزال نذكرها ، ولن ننساها أبدا .. ان بعضها يبدو لنا الآن سخيفا ، مثل كثير من الأشياء الماضية ، ولكننا لانزال نحفظها منذ أن كنا أطفالا .. وفى كل مرة تعود الى ذاكرتنا ، فاننا نستعيد ذكريات أوائل أيام شبابنا البعيدة التى مرت هكذا سريعا ، ووجوه زملائنا ، وحركات بعض المدرسين ..

انها جمل أعدناها مئات المرات ، ونحفظها عن ظهر قلب ..

« ملك الجبيديين المسمى كونيموندو مات فى ميدان المعركة على يد

---

(١) مؤسسة مدينة قرطاجنة ــ احبت البطل اينياس وهى فى طريقه الى ايطاليا

البويينو ملك اللومبارديين الذى حز رأسه ، وجعل منها قدحا يشرب فيه ، ثم تزوج ابنته روزموندا .. »

« أخبار سقوط بيت المقدس ، وجهت نظر البابا الى أن يعد حملة صليبية جديدة ، اشترك فيها فريدريك ذو اللحية الحمراء ، والذى مات غرقا فى نهر سالف (١٠ يونية سنة ١١٩٠) »

« منفريدى ، وقد رأى أن جميع الطرق مسدودة أمامه ، عزم على أن يموت بفخر .. وتقدم والسلاح فى يده ، ثم انطلق فى وسط جموع الأعداء وهلك .. »

ولا أود أن أتذكر أكثر من هذا ، حتى لايصبح هذا الامتحان عزيزا ، وآسف لانتهائه .. لقد كان أكثر من امتحان .. خوف مجهول .. أساتذة لايعرفونك ، ويكفى أن تتلقى سؤالا صعبا وتأتى لحظة شرود وتجد نفسك قد رسبت .. وأنت تعرف كل شىء عن « ألفييرى » ، وحتى لون عيونه وشكل يديه .. ما عدا السنة التى كتب فيها مسرحية « النافذة الصغيرة » .. وهو أمر ليس من الأهمية بمكان ، ولكنك تجد فى لجنة الامتحان أستاذا عاديا جدا ، ويبدو أنه رب أسرة طيب .. ولكنه مقتنع تماما أنه لابد لدخول الجامعة ، ولا بد للنجاح من معرفة السنة الحقيقية التى كتب فيها « ألفييرى » مسرحيته « النافذة الصغيرة » وهكذا يتبخر تعب ثلاث سنوات فى الدراسة الثانوية !

وهناك أيضا العكس .. انك لم تستذكر شيئا ، وتعرف فقط ، لأنك يوما ما فتحت كتاب التاريخ عن غير قصد ووقع نظرك على صفحة ١٧٩ وقرأت ان اللومبارديين كانوا يسمون هكذا لأنه كانت لهم لحى طويلة .. وتذهب الى الامتحان بتلك المعرفة الناقصة الخفيفة الهوائية ، ثم ينظر أستاذ التاريخ الى الساعة ويرى أن الوقت متأخر ، ثم تسمع هذا السؤال:

ــ سألقى اليك سؤالا واحدا :

ــ لماذا كان اللومبارديون يسمون هكذا ؟

ويمكن أن يتوقف نجاحك ورسوبك على سؤال أخير ..

« هل كان دانتي جولفيا أو جبليا » (١) . واذا كنت لا تعرف الاجابة ، فستدور بخلدك هذه الأفكار فى مدى لحظتين اثنتين ..

ان الاستاذ قد سألنى وهو يضغط بصوته على كلمة جولفى .. ربما لكى يخدعنى ويجعلنى أفكر فى أن الكلمة التى مر عليها سريعا وهى أنه جبلى عين الصواب ، بينما الأمر بالعكس .. والاجابة أنه جولفى !

ولكن أليس من الجائز أن يكون المدرس قد فكر فى أننى سأنحو هذا النحو فى التفكير ، ومن ثمّ فان الكلمة الصواب أنه جبلى .. ومن جهة أخرى ، لو انه قد افترض أيضا ذلك التفكير الثانى ، فان الاجابة تكون أنه جولفى ، ولو أنه قدر أيضا ذلك التفكير الثالث !.. اذن دانتي جبلى ..

ـ انه جبلى .. سيدى الاستاذ

ـ « برافو » أنت ناجح !

وفى امتحان الشهادة العامة ، ترى أشـياء عجيبة .. أوائل الفصـل راسبون .. وأواخرهم قد نجحوا ، ومدحتهم لجنة الامتحان ..

وهناك أيضا أشياء مؤلمة .. طلبة قد رسـبوا ثلاث سنوات متتالية ، تقدموا كل سنة ، ولم يكونوا أغبياء ، واستذكروا جيدا .. وكانوا دائما عديمى الثقة ، ووجوههم شاحبة ضامرة ، وعيونهم زائغة مدورة ، ولحاهم قد استطالت .. ورسبوا فى كل سنة ، ولكنهم لم يرسبوا فى نفس المواد ؟

وأذكر منهم واحدا ، كان يسمى جرافيلليني .. لو رسب فى كل السنوات فى اللغتين اليونانية واللاتينية ، لقلنا له : « لمـاذا تلح فى الحصول على التوجيهى الأدبى ؟.. اذهب الى فرع آخر ، ولو أن عنـدك حقول أو مزارع فتعهدها .. ولكن المسكين كان ينجح فى عام فى اليونانية واللاتينية ، ويرسب فى الرياضة والعلوم ، وفى عام آخر ينجح فى العلوم والرياضة ، ويرسب فى اليونانية واللاتينية ، وفى سنة أخرى ينجح فى كل تلك المواد الأربعة .. ولكنه يرسب فى التاريخ والفلسفة وتاريخ الفن !

وفى النهاية ، تعود أن يذهب الى الامتحان هادئا .. وهو يعرف مقـدما

(١) حزبان سياسيان كانا فى عهد دانتي

أنه سيرسب .. انه لم يكن يعرف فى أى مادة سيرسب ، ولهذا كان يتراهن مع زملائه على ذلك !..

ولم يكن تقريبا يخطىء أبدا ، فان معرفته وخبرته بالامتحانات السابقة كانت تجعله مثلا يحسب أنه نجح فى اللغة الايطالية واللاتينية ثلاث مرات متوالية ، ومن ثم فانه يتوقع بالتأكيد أن الرسوب فى هـذه المرة سيكون بالضبط فى الايطالية واللاتينية .. مسكين جرافيلليني هذا ، فبعد سنوات عديدة صارت لنا أسر ، وقد أصبحنا أطباء ومحامين ورجال بنوك .. وفى ذلك الوقت نجح !

كم أسف لهذا النجاح .. وكم هو مؤلم أن تتغير فجأة الأشياء المعتادة ..

لقد تعود أن يكون تلميـذا ، ربما قد وضع فى حسـابه أنه سيؤدى امتحان الشهادة مدى الحياة ..

لا أعرف أين هو الآن ، وماذا يصنع .. ولكن على أية حال ـ وفى أى مكان يكون ـ فانه لاشك قد تألم لانتهاء ذلك الامتحان العام !

وأنا أيضا شعرت بشىء من الألم .. لقـد كانت الرياضـة والهندسـة بالنسبة لى من الغوامض ..

اننى كنت أحترم فيثاغورس ، وبطليموس ، كثيرا .. لأننى لم أكن أعرف ماذا فعلا .. !

وكتب الرياضة كان يشتريها أبى فى الصباح ، وكنت أبيعها بعد الظهر بثمن بخس .. ثمن ثلاث سجائر مقدونيا .. وبعد أن أدخنها ، كان لايبقى لى من تلك النظريات ، وهذه المعادلات ، الا طعم الدخان فى فمى .. !

والامتحانات التى لو لم تكن عامة ، وكانت داخليـة ، فاننى ما كنت لأنجح أبدا فى الرياضة .. وكان لابد أن أؤدى امتحان التوجيهيـة حتى الآن !

ولكن فى ذلك الامتحان ، لم يكن الأساتذة يعرفوننى .. ومن ثم فقـد كنت أستذكر الرياضة لمدة خمسة عشر يوما وخمس عشرة ليلة .. أحفظ فيها عن ظهر قلب الأشياء التى لم أكن أعرفها ..

وبرأس مملوء بالاهرامات والمكعبــات والمناشــير ، كنت أذهب الى الامتحان .. وعند أول سؤال أفتح فمى ، وتتدفق هذه الأشياء من فمى بسرعة كأنها النهر .. ناجح !

وأرجع الى المنزل برأس خاوية تماما .. لقد خرج كل شىء ، ولم يبق بالداخل ولا حتى مثلث صغير .. لم أكن أعرف شيئا أبدا بعد !

واليوم أجهد نفسى لكى أذكر شيئا من رياضة أو هندســة الشــهادة العامة ، ولا أذكر من ذلك الا بيتين : نعم بيتان يبدوان للعجب كزهرتين قد نبتتا فى سطح هائل ، عار ، ناعم ، من الأسمنت ..

« ما حجم الكرة ؟.. أربعة أثلاث النسبة التقريبية (ط) . ومكعب نصف القطر (٤ ÷ ٣ ط نق ٣) ..

وداعا وألف وداع لامتحان الشــهادة العامة .. ســأكون غير معترف بالجميل ، اذا لم أقل انى أراك ترحل وفى قلبى بعض الحزن ..!

واليــوم ـ اذا لم تكن أنت ـ فان زوجتى لابد أن تصــطحبنى كل صباح الى المدرسة الثانوية لتسأل الأساتذة عن أخبارى . وذلك الامتحان ـ وهو مغامرة ـ قد أصبح الآن تذكارا مؤلما لكثيرين ، وجميلا لآخرين.. ولو أنك لم تكن تريد أن تستذكر الرياضة أو اللغة اللاتينية ، وانهما لايدخلان فى رأسك .. ولو أن اللغة اليونانيــة شىء ثقيل عليك ، فهناك الناظر الذى يدعو والدك ويفهمه انه من المصلحة أن يحيى ابنــه الهمام زملاءه وأساتذته ، وأن يذهب الى عمل لا يتطلب مجهودا عقليا .. وليس معنى هذا أن ذلك العمل أقل شرفا أو فائدة !

وحقا لن يكون هناك خوف من الامتحان النهائى .. ولكن هناك حالة احتمال عدم الوصــول اليه . وهؤلاء الذين سيصلون ربما سينجحون جميعا .. لا لأن الامتحان قد أصــبح ســهلا مثل اللعبة ، ولكن لأنهم سيكونون ناجحين فى السنوات الماضية ، وناضجين قبل أن يجلسوا أمام ذلك المكتب ذى المفرش الأخضر ، وزجاجة المــاء المخصصة للرئيس ، ووجوه كثيرة من الأساتذة يلاحظون ..

ولن يكون الامتحان الا تقديرا وتسجيلا لذلك النضج ..

وداعا اذن أيها الامتحان الحكومى القديم ..

وداعا دون دموع ، كما يودع من فعـل الخير والشر على السواء .. وذلك الخير الذى صنعه قد مزجه بالشر !

وداعا لتلك الليالى والشبابيك المفتوحة .. وداعا للفراشات التى كان يعميها ضوء المصباح ، والتى كانت تطن على المقطوعة الثانية والعشرين من قصيدة « أورلاندو » ، وداعا للقهوة والليمونادة التى كانت تعدها الأم عند الفجر وتأتى لتجدنا نائمين .. جبهتى على قصيدة المدافن ، وصـدغ زميلى على قصيدة « يأس ديدون » التى مطلعها :

« أيها الخائن هل راودك الأمل أن تتمكن من اخفاء جريمتك .. البشعة وأن تبتعد عن أرضى خفية ؟ »

وداعا لكل تلك الأشياء ، وانه لمحزن أن أقول وداعا .. ولكن وداعا أيضا للظلم وللنجاح الذى لم ينله من يستحقه ، وناله من كان أقل نضجا من تفاح شهر مايو الفج ..

اننى أنا الذى أقول هـذا .. مثل حى لمن أنعم عليه امتحان الحكومة العام .. أنا الذى لا أذكر من الرياضة الا هاتين المسألتين :

« ما حجم الكرة : « أربعة أثلاث حجم النسبة التقريبية (ط) » .. ومكعب نصف القطر (٤ ÷ ٣ ط نق ٣)

وداعا دون دموع ، ودون غضب .. !

لماذا تخافون المدرس..؟

لقد دخلت أنا أيضا ، هذا الصباح ، الى قاعة امتحان « الثانوية العامة » أنا الذى لى زوجة وأولاد .. ولقد كنت أشعر انى غريب ، وأحس برهبة عند دخولى ، وكنت أفكر : « لقد مضت سنوات عدة .. منذ أن شهدت مثل هذا الامتحان .. »

ولكن الفراش أمسك بى ــ كما لو كنت أحد التلاميذ ــ ودفعنى نحو الباب قائلا : « ان اللجنة مجتمعة .. أسرع ، الجميع فى القاعة »

ودخلت .. وجلست فى آخر الفصل ــ وعلى آخر مقعد ــ دون أن أنظر الى التلاميذ الذين كنت أشعر أنهم ينظرون الىّ .. وجوه شاحبة بعض الشىء ، وذقون طويلة ، وعيون تشع منهـا الحمى .. تلك الحمى التى تسببها الامتحانات . وهناك بعض الطالبات بين الطلبة .. طالبات خائفات ، دون مساحيق ودون شفاه مصبوغة . وحتى أمس ، كان هناك من ينظر اليهن ويحدق فيهن .. أما اليوم ، فانهن لايثرن فيك أية رغبة ، فانهن لسن بنساء .. انهن طالبات خائفات من الامتحانات !.. احـداهن قد اتسخت أصابعها بالحبر ، والأخرى تقرض أظافرها ، وواحدة قربت رأسـها من زميلها فى المقعد .. حتى تقرأ جيدا بعض النقاط ، وظلا جامدين كما لو كانا متعانقين دون أن يلحظا ذلك .. فكرهما مركز تماما فى ثانى أكسيـد المنجنيز ، الذى اذا أضيف الى حامض الكلورودريك يعطى ..

الجو حار .. انه حر الامتحانات .. ذلك الحر الذى يسبب عرق الجباه والأيدى ، ويلصق البنطلونات بالرُّكَب .. وتشعر بقطرات العرق ، وهى

تنزل على الاصداغ .. ولقد وضع مدرس الطبيعة قطعة من ورق النشاف على جبينه ، وهو ورق رقيق ، ذو لون وردى ، وتوزعه الادارة .. وحين أتطلع الى هذا المدرس ، يبدو لى ان السنوات لم تمر ، انه ليس مدرس الطبيعة الذى سألنى فى الامتحان العام ، منذ اثنى عشر عاما .. ولكنه مثله تماما .. ذو شعر رمادى جاف ، كالفرشاة ، ومنديل حول رقبته للعرق ، وتجعيدة فوق جبهته التى تبدو كأنها تفكر دائما ــ ولكن على العكس ، ليس هذا صحيحا ــ والياقة المنشاة البيضاء ، والقميص الملون ، والسترة السوداء البراقة وأكمامها البالية عند الكوع ، وجيوبها المنتفخة القبيحة الممتلئة بكثير من الأشياء ، و « البنطلون » دون طية .. وأثر الركبة ظاهر به ، ومشدود بالحمالة حتى يصل الى الصدر ، والأحذية قد تلفت مقدماتها العريضة .. كانت مستعملة منذ ثلاثين عاما مضت ، ولا يلبسها الآن الا المدرسون .. ومن يدرى من أين يشترونها ؟.. قد تكون هناك بعض المحلات المتربة ، فى مكان مختف من المدينة ، حيث تباع الأحذية القديمة الخاصة بأساتذة الطبيعة ..

وتجلس الى جواره مدرّسة الرياضة .. أمام المكتب ذى المفرش الأخضر الذى توجد عليه محبرة وريشة لا تكتب .. انها شابة سمراء ذات عينين سوداوين واسعتين تشبه أهالى صقلية .. أما أنا .. أنا وحدى فانى ألاحظ أنها جميلة ــ أو على الأقل مقبولة ــ ذلك لأن التلاميذ لا يرون فيها أنها أنثى ، ولكن يرون فقط أنها المدرّسة .. وها هى ذى تنظر الىّ.. وأنا الذى قد تعلمت أن أواجه نظرات المرأة ، وعاودنى فجأة الخوف القديم .. خوف اثنى عشر عاما مضت ، وأشعر أنى قد عدت تلميذاً ، وأخفض عينى .. ومن المحتمل أن تكون أصغر منى ، ولكنها على أية حال مدرسة !

ومدرّسة العلوم .. طويلة القامة ، ذات رقبة طويلة ، وشعرها أبيض تقريبا ، متجمع على هيئة خصلة على قمة رأسها .. ومظهرها مظهر سيدة ودودة ، ولكن لابد وأن تكون قاسية جدا .. ويجلس الى جوارها ، قائد

يسأل فى الثقافة العسكرية .. وعلى أيامنا لم تكن هـذه المـادة مقررة علينا ، ولقد تأثرت عندما رأيت سيفا براقا على المكتب الى جوار المحبرة والريشة التى لا تكتب .. قائد طيب حليق الشعر أحمر الوجه لا يخيف مثل المدرسين ..!

هذه منضدة أساتذة القسم العلمى .. وفى الجهة الأخرى ، توجد منضدة أساتذة القسم الأدبى ..

أساتذة مختلفون .. هذا مدرس تاريخ وفلسفة ، وذلك رئيس اللجنة ، وهو بدين أصلع ، ذو منظار فوق جبهته ، مثل سائقى السيارات .. يضعها عند القراءة على أنفه ، ويلصق جبهته بالورقة ، ويجرى بأصـبعه فوق الأسماء ، وينادى : برنينى ، بونساتى ، بوزيللى .. ألا يوجد أحد آخر يبدأ اسمه بـ « بـ » ؟

والآن يأتى الدور على «كاتشالوبى» (١) .. انه ولد طويل أشقر ، امتلأ وجهه بـ « حب الشباب » وعيناه ضيقتان حتى تكاد لاتراهما .. وبدلا عن ذلك ، فان له يدين هائلتين تبحثان الآن فوق المفرش الأخضر عن الريشة للتوقيع .. ولكن كيف السبيل الى التوقيع بيـد مرتعشة ؟.. وبريشـة لا تكتب ؟.. ومع رئيس لجنة قصير النظر يقرب وجهه من وجهك ، وينظر اليك .. وقد يكون فى رأسه ذلك السؤال الذى يحتمل أنك لا تعرف الاجابة عنه ، ويقول : « آه .. آه .. حدثنى عن « كورادينو » .. من كان كورادينو ؟ »

ويرتفع فى الفصل همس الحسـد .. ان كاتشـالوبى محظوظ ، فمن ذا الذى لايعرف شيئا عن « كورادينو ؟ » كان فى الخامسة عشرة من عمره ، ودعوه الى ايطاليا .. وجاء بعد أن عانق أمه وقبلها ، لقد كان ظريفا مثـل « مانفريدى » .. جاء مع ابن عمه الصغير الذى كان فى مثل سنه : فردريك النمساوى الذى كان اسمه عظيما بالنسبة لطفل صغير ، وقد مات كلاهما بالمقصلة .. وكانا حتى آخر لحظة متماسكين بالأيدى .. وقبل أن يموتا

---

(١) الكاف ثالث الحروف الهجائية الايطالية

قذف « كورادينو » بقفازه على سبيل التذكار للجموع التى كانت نصب اللعنات على كارلو دانجو .. أما فريدريك النمساوى ، فلم يكن لديه شيء يقذف به .. فحيا بيديه ..

واستطرد المدرس قائلا : « ٢٩ أكتوبر سنة ١٢٦٠ » دون أن يبدو على وجهه الأسف نحو هذين الطالبين .. وهو مهتم بالتواريخ ، يريد أن يعرفها جميعا .. ولكن كاتشالوبى لايعرفها ..

ــ فى أى عام عقد صلح « أوترخت » ؟

ان « كاتشالوبى » لايعرف العام فحسب ، بل انه لايعرف أيضا ما هو صلح « أوترخت » ..

ويسود الفصل سكون عميق !..

مسكين « كاتشالوبى » الطويل القامة ، ذو اليدين الضخمتين ، والوجه الذى ما زال كوجه الأطفال ..

« ... ١٦٤٨ »

المنظار على الأنف يقفز بنفسه على الجبهة .. خلط « كاتشالوبى » بين صلح « أوترخت » وصلح « وستفاليا » .. ان هذه الفترة مليئة بمعاهدات الصلح وحروب عديدة : حرب الثلاثين عاما ، حرب الوراثة ، حرب التطور ، أسبانيا ، هولندا ، فرنسا ، صلح النمسا ، صلح أكويزجرانا .. سيكون هناك طالب فى الألف ، يعرف هذه الفترة التاريخية جيدا ..

آه لو غير السؤال ..!

ولكنه يصر ، ويريد أن يعرف بأى ثمن السنة التى وقع فيها صلح « أوترخت » . اذا سأله عن « كارلو ألبرتو » وحركات سنة ١٨٢١ لكان سهلا .. ولكنه يريد أن يعرف ــ بأى ثمن ــ نتائج صلح « أوترخت » !

ــ الى من صارت صقلية بعد صلح « أوترخت » ؟.. والى من صار جبل طارق ومينورقة ؟

ويمر ربع ساعة ، وتسمع فى السكون خفقات قلوب الطلبة ، وقلبى أيضا .. لقد تملكتنى رهبة الامتحانات ، أود أن أخرج .. وانى الآن أفكر وأتخيل ..!

سينادينى ويسألنى .. سيسألنى عن حروب الوراثة ، وأحاول أن أقنع نفسى أننى قد أديت الامتحان منذ اثنى عشر عاما ، وأنه لاينبغى على أداؤه بعد ، وأننى أستطيع أن أنصرف وقتما أحب .. ان القلب الوحيد الذى لا يحس هو قلب « كاتشالوبى » لقد أصبح ضئيلا جدا وضيقا .. وعندما يبدأ الامتحان سيئا ، فان الباقى سيكون أسوأ !

وبين فترة وفترة ، يوجد ذلك الملل الرتيب من صوت الأستاذ القاسى الذى يسأل :

ـ الى من صارت صقلية بعد صلح « أوترخت » ؟ والى من صار حكم أسبانيا والمستعمرات الأمريكية ؟.. ويفكر التلميذ ان الاجابة عن هذا السؤال مسجلة بالكتاب .. والكتاب فى المنزل !

وقد مرت عين « كاتشالوبى » على هذه الأسطر .. كان ذلك للحظة ، ربما كانت لحظة واحدة فقط ـ وعرف خلالها « كاتشالوبى » الى من صارت هذه الأرض وذلك الحكم ، وربما عندما يرجع الى المنزل سيجد هذه الأسطر ، وقد خط تحتها بخط أحمر ..

لقد انتهى امتحان التاريخ ، وها هو ذا « كاتشالوبى » يؤدى امتحان اللغة الايطالية ، ويقدم للمدرس الجديد بيد مرتعشة المنهج الذى درسه

لماذا يرتعد ؟.. ليس هناك ما يدعو للرعشة ، ان مدرس اللغة الايطالية لا تبدو عليه هيئة مدرس .. ان جاكتته زرقاء ، وسرواله أبيض .. ولعله يريد أن يلعب التنس ، أو يشرب هذه الليلة البيرة مع أصدقائه ..

آه لو فهم الأولاد هذه الأشياء ، ولكن الأستاذ بالنسبة للأولاد أستاذ.. ولا شىء غير هذا ، انه مختلف عن الباقين .. انه بعيد .. بعيد جدا ، انهم لايفكرون انه فى حياته الخاصة كالرجال الآخرين ، لايفكرون ، انه يأكل ويدخن ، وان لديه أطفالا فى المنزل ، وانه يلاطفهم ويلعب معهم ككل الآباء ..!

لو فكروا فى هذا لقل خوفهم ..

حتى اللغة الايطالية كارثة بالنسبة « لكاتشالوبى » ..

« أين توجد ريكاناتى ؟ » يسأل المدرس عنها عندما يتحدث عن « ليوباردى » ، وهذا السؤال يكاد يستقبل بالتصفيق من الطلبة .. من هذا الذى لايعرف أين توجد ريكاناتى ؟.. انه « كاتشالوبى » .. لقد كان يعرف الاجابة .. والآن فى أثناء الامتحان لا يعرف شيئا ..

تتساءل العيون ، وتنقبض الأيدى .. انه يتعب نفسه ليرى الخريطة الجغرافية وفيها « ريكاناتى » ..

يراها ولكن مهزوزة .. تارة فى « بيدمونت » وأخرى تسقط نحو « كالابريا » وتارة تعود وتصعد وتقترب من اقليم « ماركى » .. قفى ، قفى ياريكاناتى .. انها تتراءى له وكأنها تقف ، ولكن على العكس انها تذهب الى أعلى الى لومبارديا ..

وخلال هذا ينادى مدرس التاريخ على شخص آخر .. شخص ماهر ، يعرف كل التواريخ ، كل معاهدات السلام وكل الحروب ..

« كاتشالوبى » وهو يتعقب « ريكاناتى » عبر ايطاليا ، يسمع من بعيد جدا هذه التواريخ التى لم يعرفها .. تلك التواريخ التى أفسدت له الامتحان ، وجعلته يفقد هدوءه وثقته بنفسه ..

« صلح اوترخت سنة ١٧١٣ ، وصلح وستفاليا فى أكتوبر سنة ١٦٤٨ ، وصلح أكويزجرانا فى ٢ مايو سنة ١٦٦٨ »

ويسمع كلمات الزميل الذى يعرف التاريخ جيدا كأنها آتية من مسافة بعيدة .. وكأنه فى حلم !

« على أثر صلح أوترخت أصبح فيليبودى انجو معترفا به ملكا على أسبانيا والمستعمرات الأمريكية .. وصارت صقلية الى فيكتور أميديو الثانى ، وصار جبل طارق ومينورقة الى انجلترا

وارتاح « منظار » رئيس اللجنة سعيدا مطمئنا فوق جبهته .. !

أما أستاذ اللاتينى واليونانى .. فقد استدعى طالبا وأمره بأن يترجم القطعة التاسعة من هجاء أورازيو المشهور ..

« كنت أذهب الى الطريق المقدس متسكعا كعادتى ، ولا أذكر أى خيال

كنت أنغمس فيه ؟ » ..

« حسنا .. حسنا » ويعتدل الاستاذ ناحية الطالب ، وهو يفرك يديه مبتسما ، ويقول :

ــ كم عدد مقطوعات هجاء أورازيو ؟..

ــ ١٨ مقطوعة ياسيدى المدرس

ــ عظيم جدا .. عظيم جدا

الوحيد الذى لم يكن على ما يرام ، هو ذلك المسكين كاتشالوبى ..

ولو انه قد استذكر كثيرا ، فهناك تنتظره منضدة أساتذة القسم العلمى : أستاذ الطبيعة والكيمياء ، ومدرّسة العلوم ، ومدرّسة الرياضة ..

والسبورة فى نهاية الفصل مملوءة بعمليات الحساب والأشكال الهندسية .. أرى شكلا هرميا قد قسّم الى نصفين طوليين من أعلى ، وتلميذة صغيرة شقراء وقفت الى جانبها معلمة الرياضة ، وهى عابسة الوجه لا تلقن أى كلمة للفتاة التى تكتب

ومن حين لآخر يسقط الطباشير من يدها ..

تلتقطه ويسقط من جديد ، وحينئذ ترسم التلميذة الصغيرة المسكينة ابتسامة على فمها لكى تنال بعضا من تشجيع المدرّسة ، ولكنها تصطدم بعينين تجمدانها فى مكانها .. وبأصبع تشير الى النسبة التى يجب أن توضحها ، وتموت تلك البسمة التى ما كادت ترتسم على فم التلميذة .. ويغلق ذلك القلب الذى تفتح للحظة بسيطة من جديد ..

يمر الوقت .. كم الساعة ؟ فى الامتحانات لا يعرف أحد الساعة ، قد تبدو كأنها الثانية أو الثالثة بعد الظهر ، بينما هى الحادية عشرة صباحا . وعندما دخلت ، كانت تبدو لى بعيدة جدا ، كما لو كانت بالأمس ، أو منذ شهر مضى .. !

والآن .. أعرفهم كلهم ، لقد أصبحت وجوههم مألوفة لدىّ ، وعرفت من منهم ثقيل الدم ، ومن منهم ظريف ، وكنت دائما لا أتكلم ، ودائما فى آخر مقعد ، لأنه ليست لدى الشجاعة لأقترب ، خوفا من أن يسألنى أحد:

ـــ ماذا يهمك ؟.. لماذا جئت ؟.. لتستمتع بما نعانيه ؟ !.. لتضحك على أجوبتنا الخاطئة ؟ ! لكى تقص بعد ذلك ضاحكا قصة كاتشالوبى الذى لم يكن يعرف أين توجد « ريكاناتى » وكان يقول انها فى صقلية ، أو فى لومبارديا ، أو فى بدمونت ؟ !

ولكن بينما أنا على وشك الذهاب ، خجل من كل هذه الأشياء ، يقترب منى شخص ، ويجلس الى جوارى .. ويوجه الى هذا السؤال :

ـــ هل لديك كتب تاتشتو ؟.. هل أخذت كتب تاتشتو ؟..

أود لو أقبّله فى جبينه .. (سأبدو حينئذ اننى ما زلت طالبا ، وسوف ينادينى الطلبة بـ « أنت » بدلا من حضرتك ، وسيعتبروننى واحدا منهم)

وأجيب : « لا .. لم أحضرها »

ونبدأ فى الكلام بصوت منخفض ، وأيدينا على أفواهنا ، ونحن ننظر بين الحين والآخر ، ناحية الأساتذة ..

ويقول لى انه لم يرنى أبدا ، وأجيبه بأننى من طلبة المنازل ، وأننى فقدت سنين عديدة بسبب مرض طويل ، وأننى لم أستذكر جيدا وأننى خائف ..!

وهو أيضا خائف .. انه شاب يناهز الثامنة عشرة من عمره ، ولم يكملها بعد ..

يطلعنى على دخيلة نفسه ، ويتكلم دون شك .. كما يتكلم شبان الثامنة عشرة فيما بينهم ، وهم الذين ليس لديهم سبب يدعوهم لعدم الثقــة .. اننى نادم على أنى قلت له اننى طالب ، ولكنى سعيد نوعا ما .. وأجــد كلمات مسعفة .. تلك الكلمات التى لم أكن أقولها أبدا منذ وقت طويل ، تلك الأفكار الشفافة التى لا تخفى وراءها شيئا ..

ـــ أنت ما اسمك ؟

ـــ فانتينى رومولو ، وبمجرد أن أحصل على التوجيهية سأتوظف ..

لقد وجد لى والدى وظيفة فى بنك ، وبهذا أستطيع أن أدفع مصروفات الجامعة . هل نذهب الى الممر لندخن ؟

ـــ هيا بنا ...

نقوم على أطراف أصابعنا ، ونمر محيين أمام مكتب لجنة القسم العلمى ، ويرفع مدرّس الطبيعة عينيه ، وينظر الى وأنا أعيد التحية بخجل ، ويحمر وجهى مثلما كنت أفعل فى وقت ما .. منذ اثنى عشر عاما ، حينما كنت أمر أمام أستاذ الطبيعة وأحييه .. انه يشبهه تماما ..

وفى الممر ــ كما كنا نفعل فى ذلك الوقت السحيق ــ نجلس فى ركن ــ مختفين ــ لندخن ، ونشتت بأيدينا من آن لآخر الدخان الذى يخرج من الفم ، ونخفى خلف ظهرنا السجائر ، عندما يمر الفراش الذى يرفع أنفه ، ويستنشق الهواء ، وينظر الينا فى شك .. ولكننا ننظر الى السقف ببراءة !

انها لمعجزة .. من قال لى هذا الصباح ــ قبل أن أدخل هنا ــ انه سيعاودنى الخوف من هذه الأشياء الصغيرة ، تلك الأشياء التى مضت منذ سنوات عدة ؟

وانه سيحمر وجهى ، عندما أحيى مدرّسا ، واننى سوف أخفى السجائر عندما يمر الفراش وقلبى يرتعد ؟.. واننى أيضا سأدخل الفصل فوق أطراف أصابعى ، وسأجد الأساتذة أكثر خجلا عندما أمر أمامهم ، وسأعود لأحشر نفسى فى آخر مقعد ، وأعود للتحدث من جديد مع زميلى الشاب بصوت منخفض ؟

يتحدث عن أخته التى تريد أن تكون راهبة ، ولكن الأب لايوافقها .. وعن والد كاتشالوبى الذى عندما سيعرف أن ابنه قد رسب سيحدث جلبة تسمع فى كل مكان ، وعن تلك الشقراء التى كانت أمام السبورة ، والتى تكاد تكون مخطوبة لهذا الشاب الذى يعرف جيدا كل تواريخ الأحداث التاريخية ، والذى نجح أيضا فى اللغة الايطالية ، لأن المدرّس جعله يعلق على قطعة سهلة من « أورلاندو الغضوب » وسأله عن السنة التى صدرت فيها أول طبعة من « المخطوبان » (١) وعن السنة التى خرجت فيها الطبعة الثانية ..

---

(١) من أشهر كتب الادب الايطالى ــ لمانزونى

كم تكون الساعة ؟..

لابد أن الوقت متأخر .. ان مدرّس الطبيعة ينظر من حين لآخر الى ساعة يده .. وتوقف عن توجيه الأسئلة ، أما الآخرون فيتعجلون ..

سنستأنف من جديد غدا ..

ووقف رئيس اللجنة ، وهو على وشك الخروج .. ويقترب منه المسكين كاتشالوبى ، وتحت ابطه « طرد » كبير من الكتب !

ـ سيدى المدرس كيف حالى ؟

ويفتح المدرّس ذراعيه ، ويهز رأسه ـ وقد وضعت مدرّسة الرياضة القبعة على رأسها ـ وهى الآن تمسح درس الهندسة من السبورة ، ويرفع مدرّس الطبيعة المنديل عن رقبته ، ويمرر ورقة النشاف مرة أخرى على جبهته .. ولا أعرف لماذا ينظر الىّ من جديد فاحصا ، وتخرج الطالبة الشقراء مع الشاب الذى يعرف جيدا كل تواريخ مادة التاريخ !

وأما أنا ، فانى أخرج مع فانتينى رومولو ، ويبقى كاتشالوبى.. كاتشالوبى الذى يتذكر فجأة أن « ريكاناتى » فى اقليم « ماركى » . ولكن قد سبق السيف العذل .. لقد انصرف المدرس ، والفصل الآن خال والسبورة دون علامات .. وفوق المفرش الأخضر لاتوجد الا المحبرة والريشة !

ويبقى كاتشالوبى وحيدا فى الفصل .. ليست لديه الشجاعة للعودة الى منزله !

فهرس

صفحة

مقدمة ٥

تقديم ٧

الفصل الأول :

يعود مدرسا ٨

الفصل الثانى :

فتح السنة الخامسة (ج) ١٨

الفصل الثالث :

معجزة الشجرة ٢٦

الفصل الرابع :

اختبار فى الفصل ٣٤

الفصل الخامس :

باتيستون لورنزو ٤٣

الفصل السادس :

الحديقة المسحورة ٥٤

الفصل السابع :

معطف رونكونى ٦٥

الفصل الثامن :

الربيع فى فناء المدرسة ٧٦

الفصل التاسع :

رائحة العجة ٨٤

صفحه

الفصل العاشر :
الآنسة تشينتشي ٩٥
الفصل الحادى عشر :
سر المدرس ١٠٥
الفصل الثانى عشر :
قطعة النقود الذهبية ١١٥
الفصل الثالث عشر :
ادريانا كوراتشينى ١٢٣
الفصل الرابع عشر :
كنز الأستاذ باليانى ١٣١
الفصل الخامس عشر :
حتى الطيور تذهب الى القداس ! ١٤٠
الفصل السادس عشر :
الساعة الصغيرة الزائفة ١٤٨
الفصل السابع عشر :
الضوء فى العلبة الصغيرة ١٥٦
الفصل الثامن عشر :
آخر يوم فى المدرسة ١٦٣
الفصل التاسع عشر :
الأزهار طبقا لنظرية فيثاغورث ١٧١
الفصل العشرون :
وداعا لامتحان الشهادة الحكومى ١٧٩
الفصل الحادى والعشرون :
لماذا تخافون المدرس ؟ ١٨٧


Twitter: @abdulllah1994

